فصول من سيرهم بأقلامهم

تحرير:

د. شهاب غانم

د. أكرم جميل قنبس أ. شيخة المطيري

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

Contents

محمد عبده غانم وتأثيره عليّ في مجالي التربية والشعر	11
بقلم: د. شهاب غانم	11
رؤوس أقلام لسيرة ذاتية	24
بقلم : مصطفى أحمد النجار	24
مقتطفات من سيرة ذاتية	40
بقلم: رياض نعسان آغا	40
مقاطع من حياة ثريا العريض تكتشف معنى الهوية و الإنتماء	57
بقلم: د. ثريا العريض	57
شيء عن التجربة الشعرية	75
بقلم : د. حسن الأمراني	75
سيرة نخلة العراق	87
بقلم: الشاعرة ساجدة الموسوي	87
مع الشعراء في بداياتهم ورحيلهم وخريفهم	102
أصداء ثقافية من حياتي	102
بقلم: نجيب سعيد باوزير	102
فصل من مشوار الشعر والنثر والسفر	120
بقلم : الشاعر محمد الجلواح	120

مِنْ سيرةٍ ذاتيّةٍ للشّاعرِ الدّكتورِ أكرم جميل قُنْبُس 134
بقلم: د. أكرم جميل قنبس 134
وجوه وحكايات من سيرة بدران 156
بقلم: أ.د. محمد أبو الفضل بدران 156
لمحات من تجربتي مع أدب "علي أحمد باكثير" 167
بقلم: د. عبد الحكيم عبد الله الزبيدي 167
أنا والشِّعر.. حكاية لم تنتهِ! 182
بقلم: الشاعر رعد أمان 182
سيرة شادية شقروش 196
بقلم: أ. د. شادية شقروش 196
تلْقَاءَ مَكَّةَ أَتْلُو آيَةَ الرُّوحِ 208
بقلم أ. نادية عبدالوهاب خوندنة 208
النجاح من الصف الرابع 226
بقلم: أ.د. عزيز ثابت سعيد 226
أيامي في المكتبة 240
بقلم: شيخة عبد الله بن جاسم المطيري 240
ملحق بأعضاء الملتقى في أثناء إعداد الكتاب 252
الكتب الصادرة عن منتدى شهاب غانم الأدبي 256

المقدمة

يضم هذا الكتاب ستة عشر مقالا لستة عشر عضواً من أعضاء منتدى شهاب غانم الأدبي. وجميع هؤلاء الأعضاء من الأدباء المتميزين المعروفين، ومعظمهم من الشعراء وبعضهم من النقاد والأساتذة الجامعيين والإعلاميين والشخصيات العامة ومن ضمنهم خمس من الإناث. وكل هذه المقالات هي فصول أو مقتطفات أو لمحات من سيرهم الذاتية أو ملخصات لها وكثير منها تتحدث عن تجاربهم الأولى مع الشعر والإبداع.

والفرق بين السيرة الذاتية (Autobiography) والسيرة (Biography) هي أن الأولى يكتبها الكاتب عن تجربته الذاتية وحياته بينما السيرة عمومًا يكتبها الكاتب عن شخص آخر. والسيرة الذاتية فرع من الكتابة الأدبية عرفت منذ أزمان قديمة في آداب الشعوب المختلفة بلغات مختلفة. وتعتمد السيرة الذاتية بشكل أساسي على ذاكرة المؤلف وقد يستفيد من مذكرات سجلها ولكنها تختلف عن اليوميات أو المذكرات التي قد يكون سجلها لأحداث محددة ومن الأمثلة المبكرة على ذلك تعليقات يوليوس قيصر التي كتبها باللاتينية عن الحروب الغاليّة وهي الحروب التي استغرقت 9 سنوات ثم مذكراته الثانية، تعليقات على الحرب الأهلية التي وقعت بين عامَي 49 و 48 ق.م.

ومن أقدم كتب السيرة الذاتية كتاب "الاعترافات" للقديس أوغسطين، الذي ولد فيما يعرف اليوم بمنطقة عنابة في الجزائر ويروي فيها عن حياته الروحية، فبعد أن ولد مسيحيا تحول إلى المانوية ثم معتقدات مختلفة كالأفلاطونية الحديثة ثم عاد عن قناعة إلى المسيحية. وقد سجل هذه الاعترافات في ثلاثة عشر كتابًا باللغة اللاتينية بين 397 و400 م.

ومن أهم وأقدم كتب السيرة الذاتية في التاريخ بشكل عام كتاب "المنقذ من الضلال" لحجة الإسلام الإمام أبي حامد الغزالي (450 – 505 هـ/ 1058 – 1111 م) الذي عاش في زمن الدولة السلجوقية في القرون الوسطى (ومن أشهر مؤلفاته كتاب "إحياء علوم الدين). وتقول الويكيبيديا عن كتاب "المنقذ من الضلال" الذي ترجم إلى الإنجليزية ولغات كثيرة مختلفة ما يلي:

"إِنَّ هذَا الكتابَ المسمَّى: «المُنْقِذُ مِنَ الضَّلَالِ والمُفْصِحُ عنِ الأَحْوَالِ» هو خلاصةُ تجربةِ الإمامِ الغزاليّ العالِمِ الحَبرِ الكبيرِ رحمهُ الله تعالى، وهو خُلاصةُ جهدِهِ في طلبِ الحقّ، ولا سِيَّمَا وقد كتبهُ في سنواتِ عمرِهِ الأخيرة، بعد أن أمضَى سنينَ حياتِهِ في العِلمِ والتَّعلُّمِ، والتَّعلِيمِ والتَّدريسِ، ويُبيِّنُ لنا الإمامُ الغزاليّ في مقدّمةِ الكتابِ أنَّ سببَ تأليفهِ لهذا الكتاب، هو: أنَّه قد وردَ عليه سؤالٌ يطلبُ فيه السَّائل أن يخبره عن غايةِ العلوم وأسرارها، وغائلةِ المذاهب وأغوَارِهَا، ويحكي له ما قاساهُ الإمامُ في استخلاصِ الحقّ من بين اختلاف الفِرَقِ، وكيف ارتفع عن التَّقليد إلى الاجتهادِ والبصيرةِ، وما استفادَهُ من علم الكلامِ، وما كرههُ من مذهب التَّعليميَّةِ، وما ازْدَرَاهُ من مذهب الفلسفة، وما ارتضاه من طريق التَّصوُّفِ، وما ظهر له أثناءَ تفتيشِهِ عن أراء هذه المذاهب، ويسألُهُ أيضاً عن سببِ انصرافِهِ عن نشر العلم ببغدادَ مع كثرةِ طلابِهِ، ثُمَّ معاودته للتَّدريس بنيسابور بعد فترةٍ طويلةٍ من الانقطاعِ."

ومن أوائل كتب السيرة الذاتية في العربية إن لم يكن أولها، إذا لم نعتبر "المنقذ من الضلال" سيرة ذاتية بالمعنى الدقيق للكلمة، كتاب "الاعتبار" للأمير الفارس الشاعر أسامة بن منقذ (488 – 584 هـ /1095–1188 م) وهو من القادة الأبطال في الحروب الصليبية، وقد حارب الصليبين دفاعا عن شيزر في سوريا التي كان عمه أميرها، كما حاربهم تحت أمراء مثل عماد الدين زنكي ونور الدين زنكي وأخيرا صلاح الدين الأيوبي الذي كان معجبا به وشعره وأقطعه ضيعة ومنحه أملاكا وقد نيف على التسعين. ولأسامة بن منقذ ما لا يقل عن عشرة من المؤلفات

ضاعت معظمها وبقيت منها أربعة على الأقل منها ديوان شعره الجيد السبك وكتابه "الاعتبار" الذي كتبه في آخر عمره وأملى بعضه بعد أن عجزت كفه وكل بصره وقد جاوز التسعين وتوفي وعمره 93 سنة ميلادية. والكتاب يروي أحداثا كثيرة في حياته التي كانت مليئة بالأحداث والبطولات. وقد وجدت نسخة وحيدة منه قرب مدريد في أواخر القرن التاسع عشر وترجمت إلى مختلف اللغات.

ومن أوائل الذين كتبوا شيئا من سيرتهم الذاتية في طيات كتبهم من مشاهير شخصيات التراث العربي الإسلامي الرحالة أحمد بن فضلان (877 – 960م) في رحلاته في بلاد الترك والروس والصقالبة والبلغار، وأبو حيان التوحيدي (310 – 414هـ / 922 – 1023 م) في كتابه الإمتاع والمؤانسة، و عالم البصريات والفيزياء والرياضيات الحسن ابن الهيثم (354 – 430 هـ / 965 – 1040 م)، والشاعر العباسي أبو العلاء المعري (363 – 449 هـ / 973 – 1057 م)، والرحالة محمد بن أحمد بن جبير الأندلسي (1145 – 1217م)، والشيخ محي الدين ابن عربي (558 – 638 هـ / 1164 – 1240 م)، والرحالة محمد ابن عبد الله ابن بطوطة (703 – 779 هـ / 1304 – 1377 م)، وغيرهم.

ومن كتب السيرة الذاتية في الغرب في العصور اللاحقة كتابان للشاعر الإيطالي فرانشيسكو بترارك (1304– 1374م) الذي يعد من المؤسسين البارزين لحركة النهضة الأوروبية هما "سري الخاص"، "مشاهير الرجال". وفي الكتاب الثاني يتخيل حوارا مع القديس أغسطين ويتحدث عن تجربته الروحية. ثم هناك سيرة النحات الإيطالي الشهير بينفينوتو سيليني (1500–1571م) التي تحدث فيها عن عمله مع البابا وملك فرنسا ولكنه بالغ في التباهي في الحديث عن نفسه، بيد أن أسلوبه الجميل ساهم في تطوير كتابة السيرة الذاتية. ومن السير الذاتية المهمة سيرة للفيلسوف

الفرنسي ميشيل دي مونتين (1533 – 1592 م) الذي أكد في سيرته أنه شخص عادي وأن سيرة الأشخاص العاديين تستحق التسجيل.

ومن أشهر السير الذاتية سيرة الفيلسوف والكاتب الفرنسي الشهير جان جاك روسو (1712 – 1778 م) صاحب كتاب "العقد الاجتماعي" الشهير في عالم السياسة ، وهو مؤسس مذهب التيار العاطفي في الأدب الذي اهتم كثيرا بالطبيعة. وسيرته الذاتية معنونه "الاعترافات" وفيها عرى نفسه ولم يجرؤ على نشرها في حياته فنشرت بعد وفاته ويقول "أنا فعلت شيئاً لم يفعله شخص قبلي ولن يقدر شخص بعدي على تقليده."

ومن السير الذاتية الهامة أيضا سيرة الشاعر الألماني الأشهر يوهان غوته (1749–1832م). وكان يرى فيها أن المهم في مثل هذا الكتاب هو وصف علاقته بعصره والناس ونظرته إلى العالم.

ومن السير الذاتية الشهيرة في القرن التاسع عشر سيرة جورج صاند "قصة حياتي". وفي النصف الأول من القرن العشرين ظهرت الكثير من السير الذاتية لأدباء أمثال كتاب "البحث عن الزمن الضائع "لمارسيل بروست، و"صورة الفنان في شبابه" لجيمس جويس، و"الحصيلة" لسومرست موم، وسيرة الزعيم السياسي البريطاني وينستون تشرتشل الذي حصل على جائزة نوبل للأدب. وفي النصف الثاني من القرن العشرين رأينا كثيرا من السير الذاتية لرؤساء وزعماء أمريكيين وأوروبيين، وأيضا لقادة من العالم الثالث لعبوا أدوارا رئيسية مثل "رحلتي الطويلة من أجل الحرية" لنلسن مانديلا و"قصة سنغافورا" للرئيس لي كوان يو. كما كتب بعض الناجحين من رجال الأعمال قصة حياتهم ومنهم على سبيل المثال ستيف جوب مؤسس شركة آبل.

وقد كتب الرؤساء الثلاثة الأوائل لجمهورية مصر العربية قصص حياتهم وهم الرئيس محمد نجيب الذي عنون كتابه "كنت رئيسًا لمصر" ولم يتهم فيه عبد الناصر ومن عزلوه. وكتب جمال عبد الناصر ثلاثة كتب منها كتابه "فلسفة الثورة". وكتب أنور السادات عدة كتب تسجل بعض مذكراته منها "البحث عن الذات".

ومن كتب السيرة الذاتية في الأدب العربي في القرن العشرين "الأيام" لطه حسين وهو كتاب نال شهرة واسعة، و"أنا" لعباس محمود للعقاد، و"حياتي" لأحمد أمين، و" تربية سلامة موسى" لسلامة موسى، و"أوراق العمر" للويس عوض، و"ماذا علمتني الحياة" لجلال أمين و"مذكرات مصطفى محمود" لمصطفى محمود وكتاب "الخبز الحافي" لمحمد شكري و"أثقل من رضوى" لرضوى عاشور. ومن الشعراء المعروفين الذين كتبوا جوانب من سيرتهم وخصوصا سيرتهم الشعرية فدوى طوقان في كتابيها "رحلة جبلية رحلة صعبة" و"الرحلة الأصعب"، وصلاح عبد الصبور في كتابه "حياتي في الشعر" ونزار قباني في كتابه "قصتي مع الشعر". والحقيقة أن كثيرا من الشعراء يعتبرون شعرهم بمثابة مذكراتهم. فعندما حثثت والدي الشاعر د. محمد عبده غانم رحمه الله أن يكتب سيرته الذاتية قال لي "أنت شاعر وتعرف أن ديوان الشاعر هو سيرته الذاتية"، فقلت له إن ذلك صحيح إلى حد كبير ولكنه شخصية عامة متعددة الجوانب وقد لعب دورا كبيرا في تطوير التربية والتعليم والحركة الموسيقية وحركة الإصلاح في اليمن ومعظم ذلك لا ينقله ديوان الشاعر. ويبدو أن كلامي أقنعه بعض الشيء فقد بدأ يكتب أولى صفحات من سيرته ولكن المنية لم تمهله.

والحقيقة أنه ليس من الضروري أن يكون كاتب السيرة الذاتية شخصية مهمة في السياسة أو الأدب أو الفن أو العلم أو الرياضة أو الأعمال التجارية، إلخ فلكثير من الناس العاديين ما يستحق أن يروى ويقدم العبرة أو المتعة. وكتابة السيرة الذاتية ليست سهلة فالإنسان يصعب عليه

قول الحقيقة كاملة ويصعب عليه أن يعري نفسة أو يكتب مثلا عن جوانب من حياته، كالجنسية مثلا، أو أن يتحدث عن أخطائه خصوصًا في حضارتنا الإسلامية حيث الحديث الشريف: "إذا بليتم فاستتروا". وفي الوقت نفسه يخشى المرء إن كتب عن إنجازاته أن يتهم بالمبالغة أو الغرور.

وفي هذا الكتاب يقدم لنا ستة عشر من الشعراء والأدباء والأساتذة لمحات أو مقتطفات من حياتهم وتجاربهم الشخصية والأدبية، ونأمل أن يكون هذا الكتاب إضافة لكتب السيرة الذاتية وهذا النوع من الفن الأدبي الذي يجد إقبالاً من القراء.

د. شهاب غانم

دبي، فبراير 2021

محمد عبده غانم وتأثيره عليّ في مجالي التربية والشعر

بقلم: د. شهاب غانم

الشاعرالأستاذ الدكتور محمد عبده غانم شخصية عامة رئيسية في تاريخ اليمن المعاصر فقد كُتبت حول حياته وشعره عدة أطروحات دكتوراه وماجستير في السودان ومصر واليمن آخرها أطروحة دكتوراه نوقشت مؤخراً في جامعة صنعاء بعنوان "رؤية العالم في شعر محمد عبده غانم– دراسة بنيوية توليدية". كما كتبت عنه عدة كتب منها كتابي "صورة مدينتين: عدن وصنعاء في شعر محمد عبده غانم" الذي صدر عام 2008م كما كُتبتْ عنه فصول كثيرة في كتب أدبية وتاريخية مختلفة ومئات المقالات.

ولد والدي محمد عبده غانم رحمه الله في عدن في جنوب اليمن في يناير 1912م وتوفي في صنعاء في أغسطس 1994م. وكان والده السيد عبده غانم الهاشمي الحسني تاجرا ميسور الحال في مدينة التواهي، ميناء عدن الشهير الذي كان حتى ستينيات القرن الماضي ثالث أهم ميناء في العالم. وكان السيد عبده غانم عضوا في المجلس التشريعي والكونترول، أي ما يعادل غرفة التجارة في عدن، ومؤسسا ورئيسا لنادي الإصلاح العربي الذي تأسس عام 1929م في مدينة التواهي، وكان يجيد الإنجليزية إلى جانب العربية وعمل لفترة في شبابه مترجما لدى الجيش البريطاني. وعندما طلب منه ابنه الأكبر، والدي، أن يبعثه على حسابه للدراسة في الجامعة الأمريكية ببيروت كأول طالب يلتحق بالتعليم الجامعي الحديث من عدن بل الجزيرة العربية وافق على مضض فقد كان يحتاج إليه ليساعده في أعمال تجارته.

وقد تخرج والدي عام 1936 في كلية الآداب في تلك الجامعة بشهادة بكلوريوس في الآداب بدرجة الشرف الأولى وكان الأول على دفعته، كما كان بذلك أول خريج في الجزيرة العربية من

جامعة حديثة كما حصل على دبلوم التدريس. والتحق إثر ذلك بدائرة المعارف في عدن وعمل مدرسا ثم ترقى إلى مفتش معارف فضابط للمعارف وأخيرا مديرا للمعارف، فكان بذلك يحتل أعلى منصب في الخدمة المدنية بين أبناء مستعمرة عدن، وعندما تقاعد مبكرا منحته الملكة أليزابيث ملكة بريطانيا وسام قائد للإمبراطورية البريطانية. والتحق إثر ذلك لدراسة الدكتوراه كطالب خارجي في جامعة لندن وقبلته الجامعة ولكنها حسب قوانينها لقبول الطلبة الخارجيين للدكتوراه اشترطت أن يحصل على البكلوريوس من جامعتها فقبل التحدي ودخل امتحاناتها وحصل على مرتبة الشرف من الدرجة الأولى مجددا عام 1963 (وكان الوحيد الذي يحصل عليها في تلك الدفعة)، وكان ذلك في السنة نفسها التي حصلت فيها أنا على البكلاريوس في الهندسة الميكانيكية من جامعة أبردين بإسكوتلندا. وأذكر بهذه المناسبة أنني التقيت بالمستشرق الشهير آر. بي. سارجنت في لندن في الستينيات من القرن الماضي فأخبرني أنه كان المصحح لبعض أوراق والدي في ذلك الامتحان وعجز أن يجد حتى غلطة واحدة فيها. وهذه الدقة في أعمال والدي هي إحدى سماته الرئيسية التي كان يبثها طوال حياته في أولاده وأنا منهم وفي تلاميذة وأنا منهم. وأذكر أنه زارني في دبي بعد أن أكملت أطروحة الدكتوراه، ولكن قبل تقديمها، ولما سألني عنها استأذنته أن أقرأ عليه ملخصها في نحو 20 صفحة. وأخذت أقرأها وهو معجب جداً بلغتي الإنجليزية وصياغتي ويثني عليها. وكانت هناك كلمة واحدة فقط لم أكن مطمئنا لها، فلما وصلت إليها أوقفني وطلب تعديلها.

وعلى الرغم من أن والدي أضطر بعد ذلك للخضوع لعملية جراحية رئيسية لاستئصال سرطان في القولون وأصيب بالهزال لعدة سنوات إلا أنه أكمل أطروحة الدكتوراه في جامعة لندن في كلية الدراسات الشرقية والإفريقية الشهيرة عن "شعر الغناء الصنعاني" والتي نشرت في كتاب أعيد نشره 8 مرات على الأقل وكتب عنه الدكتور شوقي ضيف قائلاً: "لا أعرف دراسة علمية جادة لأغاني بلد عربي تبلغ حق الإجادة والإتقان مبلغ هذه الرسالة."

بعد ذلك عمل والدي في مرحلة قبيل استقلال عدن وبعد استقلالها لفترة قصيرة رئيسا لميناء عدن. ثم عمل في جامعة الخرطوم مباشرة بدرجة بروفسور ورئيسا لقسم اللغة العربية بين عامي 1974 و1977م وكتب في تلك الفترة عدة قصائد جميلة تتعلق بالسودان يذكر في بعضها صديقه الحميم البروفسور عبد الله الطيب رحمه الله. ثم انتقل إلى جامعة صنعاء عميدا لكلية التربية وأستاذا للأدب حتى 1980م، فمستشارا ثقافيا بسفارة اليمن في الإمارات حتى 1984م، عاد بعدها للعمل عميدا للدراسات العليا بجامعة صنعاء وأستاذا للأدب العربي حتى قبل رحيله بعام في 1994م رحمه الله. وكان كلما حاول التقاعد قبل ذلك يقول رئيس الجامعة د. عبد العزيز المقالح أن الجامعة في حاجة إلى اسمه ضمن أساتذتها حتى ولو لم يحضر للعمل، ولكن كرامة والدي كانت تأبى عليه عدم الحضور.

صدر له عشرون كتابا منها 7 دواوين شعرية و5 مسرحيات شعرية وعدة كتب نثرية منها كتابان بالإنجليزية عن لغة عدن. وكنت أنا من جمع وأصدر ديوانه السابع والأخير وسميته "الأنامل الجافة" عام 1999م بعد رحيلة وجمعتُ بعض دراساته النثرية وأصدرتها في كتاب عام 1999م كما جمعت مسرحياته الشعرية الكاملة التي كانت قد صدرت متفرقة وأصدرتها في كتاب عام 2009م عن المجمع الثقافي بأبوظبي.

ومن المهم أن أذكر هنا أن والدي متعدد الجوانب والمواهب فقد كان بجانب موهبته الضخمة في الشعر وتأليف المسرحيات الشعرية والتأليف الأدبي والأكاديمي يجيد العزف على العود كما مارس الرسم وبجانب إتقانه المتفوق للعربية والإنجليزية كان ملما بالفرنسية وله معرفة أولية ببعض اللغات الأخرى. وكانت له مقدرة متفوقة في فنون الإدارة فبجانب إدارة وتطوير التربية والتعليم وإدارة ميناء عدن والكليات في الجامعات فقد كان رئيسا لنحو 6 جمعيات ونواد ثقافية واجتماعية مثل نادي الأحداث بعدن ونادي صيرة للتنس الذي ظل رئيسا له لعقود منذ تأسيسه وحتى هاجر

والدي من عدن عام 1972. وكان والدي في الأربعينيات والخمسينيات من القرن الماضي يحاول أن يصلح سيارته بنفسه مستعينا بشقيقي قيس وبي وكنا نحب ذلك ونمني النفس أن نصبح مهندسي سيارات ونمتلك ورشة سيارات.

وكان والدي محبا للسفر والرحلات وقد ألف كتاب "عدني يتحدث عن البلاد العربية والعالم" الذي كان في الأصل قد كتبه فصولا لدروس الجغرافيا مقررة على تلاميذ الصف الرابع في المدسة الابتدائية ومن الواضح أنه اعتمد جزئيا على ملاحظاته في أسفاره. وقد أخذنا معه عام 1947 م في إحدى الإجازات الصيفية الطويلة أنا ووالدتي وأشقائي إلى أرتريا على طائرة دكوتا وكانت أول رحلة جوية في حياتي وأنا دون السابعة. كما أخذنا في إجازات صيفية لاحقة إلى مختلف مناطق محميات عدن الغربية مثل مودية في دثينة والضالع حيث كنا نقضي عدة أسابيع. وكان ذلك أحد أسباب حبي للأسفار فزرت في حياتي أكثر من خمسين دولة.

تأثير والدي التربوي علي:

تزوج والدي عام 1937م من والدتي السيدة منيرة ابنة رجل النهضة بعدن واليمن المحامي الصحفي البارز محمد علي لقمان وهو الذي تربطه صداقة شخصية بكثير من رجال النهضة في عصره ومنهم المهاتما غاندي الذي حاول لقمان أن يستفيد من تجربته الوطنيه في تحرير عدن. وأنجبت والدتي عام 1939 أول أبناء غانم شقيقي قيس، وهو اليوم طبيب أعصاب شهير في كندا وكان رئيسا لجمعية الأطباء في كندا لثلاث سنوات متتابعة ورئيسا لرابطة الخريجين العرب يعاد انتخابه عشر سنوات متتابعة ونال عددا من الجوائز منها وسام "مارتن لوثر كنج" كما نشر 4 روايات بالإنجليزية ثم ترجم بعضها إلى العربية ونشرا ديوانا شعريا نصفه بالعربية والنصف الآخر قصائد كتبها بالإنجليزية.

وفي أثناء الحرب العالمية نزحت الأسرة مؤقتا إلى مدينة الحوطة بسلطنة لحج بالقرب من عدن وذلك هربا من قصف الطيران الإيطالي وولدت هناك في أكتوبر 1940م، بل سميت تلك السنه شعبيا ب"سنة الهربة". ثم عدنا لنسكن في منزل جدي السيد عبده غانم في التواهي ميناء عدن، والشارع الرئيسي أمام المنزل اليوم يحمل اسم والدي كما يحمل الشارع الجانبي اسم جدي. وكنا في طفولتنا أنا وأشقائي نقضي الصباح في كثير من الأيام في الطابق الثالث حيث يسكن جدي لنلعب مع أصغر أعمامي وعماتي وعدد من أطفال الأسرة الكتشينة والداما والدومينو و "الكيروم" بل و"الشبدليه". وفي ذلك المنزل رأيت في طفولتي عددا من الشعراء المعروفين في شمال اليمن يزورون والدي مثل محمد محمود الزبيري والشيخ أحمد نعمان وزيد الموشكي وأحمد بن محمد الشامي.

وفي أحد أيام 1945 طلبت مني والدتي أن أدخل غرفة والدي وأقول له "أهنئك" ولم أكن أعرف تلك الكلمة من قبل وأخبرتني أمي أنها بمناسبة فوزه بالمسابقة الشعرية العالمية التي أقامتها هيئة الإذاعة البريطانية، وكان والدي قد نال قبلها جائزة في كل عام من أعوام الحرب. وكانت تلك أول مرة أسمع كلمة شِعر. وكان والدي قد ألف أبياتا ودرب شقيقي قيس أن ينشدها ليهتم بي كشقيقه الأصغر أذكر منها فقط هذا البيت:

أخي شهاب سندي وساعدي في البلد

وقد فهمت أن الشعر شيء على غرار تلك الأنشودة.

وفي أحد الأيام بينما كنا نلعب الكرة أمام منزل جدي مع أطفال الحارة وقعت على ركبتي على حجر حاد كنا نتخذه علامة على أحد طرفي الهدف أو "الجول" فانشق الجلد واللحم أمام الركبة وجرى الدم غزيرا فأصابني هلع شديد، وحملني شقيقي وعمتي عائشة التي كانت تلعب معنا إلى الطابق الثاني في المنزل وكانت تلك شقتنا، وأيقظت والدتي المرعوبة والدي من قيلولته. ولكنه

لم يرتبك ولم يأخذني إلى المستوصف أو المستشفى بل غسل الجرح ودق بعض حبات السلفا ووضع المسحوق على الجرح وضمده. وقد أخذ الجرح عدة أسابيع ليلتئم وكان والدي يجدد الضماد من حين لآخر. وكان والدي قبل أن يدرس الآداب في الجامعة قد درس الطب لمدة عام بنجاح ولكن والده أراده أن يقطع دراسته لطول مدتها فحولها والدي إلى الآداب الأقصر مدة، واحتسبت له السنة التي كان قد أمضاها في الجامعة، ووافق والده على مضض.

في عام 1947 انتقل والدي مع زوجته وأطفاله إلى منزل حكومي بقرب البحر في مدينة كريتر بعدن وكان الموقع رومانسيا يواجه جزيرة صيره وعليها قلعتها التاريخية الشهيرة. وكانت معنا أختي عزة التي أصبحت أول خريجة ثم أول دكتورة وأول بروفسورة في اليمن وهي زوجة وزير الخارجية الأسبق د. أبوبكر القربي. وكان والدي عادة يناديها وهي ما زالت في الثالثة من العمر "دكتورة عزة" ولعل ذلك كان أحد أساليبه في تربية أطفاله ليوحي لهم بعلو الهمة وكان يهمه بشكل خاص تعليم المرأة. وكان معنا أيضا شقيقنا الأصغر في ذلك الحين الذي أصبح المحامي د. عصام رحمه الله، وهو مؤلف نحو عشرين كتاباً.

حان موعد التحاقي بالمدرسة الابتدائية عام 1947 وكان والدي، مفتش أو ضابط المعارف في ذلك الحين قد طلب من مدير مدرسة السيلة الأستاذ محمد باقر أن يسجلني للالتحاق بالصف الأول الابتدائي ولم يذهب بنفسه للتسجيل ومع الأسف نسي المدير فعل ذلك فلما ذهبت مع شقيقي إلى مدرسة السيلة وأنا في حالة تطلع وفرح دخل شقيقي السنة الثالثة أما أنا فلم أكن مسجلا ولم أدخل المدرسة. وأسقط في يد أبي ويد مدير المدرسة الذي اقترح حلا للمشكلة ولكن والدي رفضه لأنه يخرق قانون عدد الأطفال في الفصل وهو المسؤول عن المعارف فقد كان العدد مكتملا، فقرر أن يدرسني العام الأول بنفسه في المنزل. وكانت تجربة لها ما لها وعليها ما عليها فقد كان والدي رحمه الله شديدا معي وأنا لم أبلغ السابعة، ولكنني تلقيت تعليما فرديا

من معلم هو الأكثر تأهيلا في كل نظام التربية والتعليم في عدن يومذاك. وأذكر أن والدي عندما كان يعلمني سياقة السيارة عام 1958 وأنا في الثامنة عشرة من العمر، وبعد أن علمني عدة دروس مفيدة كانت سببا في عدم دهسي طفل جرى أمام السيارة خلال إحدى الدروس، قال لي إن الأب عادة لا يكون معلما مثاليا لأبنائه لأنه يتوقع منهم أكثر من طاقتهم وطلب من شخص آخر أن يواصل معي دروس السياقة.

في عام 1948 عدت لمدرسة السيلة في العام الدراسي الجديد وأجرى لي نائب مدير المدرسة اختبارا فوجدني متفوقا وكان هناك متسع في الصف الثاني في عدد التلاميذ فأدخلت فيه ووضعت بجانب الطفل الأول في الصف في درج مشترك. وفي نهاية العام كنت أظنني سأكون الأول على الفصل ولكنني كنت الثاني وجاء زميلي في الدرج في المرتبة الأولى، وهو اليوم العلامة الشهير البروفسور د. محمد علي البارالذي ظللنا أصدقاء طوال العمر وكتب مقدمتين لكتابين من كتبي أحدهما كتاب الفاتحة الذي كتبته مع نجلي د. وضاح، كما كتبت مقدمة لأحد كتب د. البار الضخمة عن عدن، وهو مؤلف قرابة مائة كتاب. وقد قفز البار سنة بعد ذلك ولم يقبل والدي أن أقفز معه لأنني أصغر منه بعام فصرت الأول على الفصل. أما البار فبعد أن قفز سنة كان مرة أخرى الأول على صفه الجديد لنبوغه.

وكان والدي في منزلنا في الرزمت يعقد اجتماعات نادي الشعر الذي كان هو رئيسه في عدن وكان من أعضائه الشعراء علي محمد لقمان، لطفي جعفر أمان، محمد سعيد جرادة، محمد حسن عوبلي، علي عبد العزيز نصر وآخرون وكنا نقدم لهم المرطبات وكان شقيقي قيس في نحو العاشرة يومئذ وأنا أصغر منه وأذكر أن الأستاذ محمد حسن العوبلي سألنا مازحا إن كنا نقرض الشعر.

كما كان والدي يعقد في ذلك المنزل اجتماعات لجنة تأليف الكتب المدرسية ومن أعضائها الأساتذه عبد الرحيم لقمان ولطفي جعفر أمان وهاشم عبد الله وإبراهيم روبله وإبراهيم لقمان وعبد الله نور الدين وغيرهم وكان كلهم من العاملين في إدارة المعارف التي سميت فيما بعد وزارة التربية والتعليم.

كما كانت تعقد في منزلنا اجتماعات وتسجيلات ندوة الموسيقى العدنية بدءاً بعام 1949 أو 1950 وكان والدي يزودها بالقصائد الفصيحة كقصائد "اللظى في وجنتيك" وعدد من الأغنيات بلهجة عدن الدارجة مثل "حرام عليك تقفل الشباك" و"كلام العين" وكان الفنان الأول للندوة الأستاذ الفنان خليل محمد خليل وكان مديرا للسجن المركزي بكريتر، وعازف الرباب الأستاذ عبده ميسرى، ومعهم جوقة من أعضائها الأستاذ حامد عبد الله خليفة وكان مربي الصف عندما كنت في الصف الثاني الابتدائي، والأساتذة محمد معتوق مكاوي وديع حميدان وياسين شوالة وغيرهم. وكنت أنا وقيس نحضر تلك الجلسات ونراقب التسجيل على عجلات المسجل. وقد أصدرت الندوة عدة إسطونات تحت مسمى "كايا فون" وهي شركة أنشأتها الندوة.

ثم بعد نحو عامين أوثلاثة أعوام جاء الفنان سالم أحمد بامدهف وهو لم يبلغ العشرين وأنضم للندوة وأصبح فنانا رئيسيا فيها وغنى لوالدي عددا قليلا من الأغاني بالفصحى مثل قصيدة "الهوى والليل" وهذه من ديوانه "على الشاطئ المسحور" وقصيدة "عرائس اللحن" وهذه موجودة في ديوانه الثاني "موج وصخر" وعددا كبيرا من الأغاني باللهجة الدارجة مثل "قولوا له" و"مين علمك يا كحيل العين" و"على أيش.. على أيش" و"يابو العيون الكحيلة". وكان شقيقي قيس قد كبر وبدأ يكتب الشعر فألف أغنية "الزين جزع مرة" لسالم بامدهف الذي لحنها وغناها ونالت نصيبا من الشهرة.

ثم جاء إلى منزلنا الفنان محمد سعد عبد الله وهو فتى مراهق ولحن وغنى لوالدى أغنية "ما أحلى السمر جنبك بين الوتر والدان" وكانت أولى أغانيه كما أعتقد وكان والدي لمعرفته بالعزف يساعد الفنانين في عمليات التلحين.

أما الفنان أحمد بن أحمد قاسم فلا أذكر أنه كان يأتي إلى منزلنا ولكنه غنى ولحن لوالدي عددًا من الأغاني المعروفة مثل "قُمري تغنى" باللهجة الدارجة و"عذبيني" التي غناها أحمد قاسم في فلمه المصري "حبي في القاهرة" وقصيدة "أتعلم يا فاتني". وقد غنى أحمد قاسم أغنية من كلماتي بعنوان "يا ليل قلبي ملآن" أعطيته كلماتها في دبي في السبعينيات.

وكذلك بالنسبة للفنان فرسان خليفة وغيره الذين غنوا أغنيات من تأليف والدي فلم يكونوا يأتون للعزف في منزلنا. وقد ساهم والدي مع السيد حسين خدابخش في إنشاء رابطة الموسيقى العدنية التي لم تكن تعزف في منزلنا.

وكان والدي أيضا يستقبل في منزله هذا ثم منزله في المرسابة وفي منزله الأخير في خورمكسر كبار الأدباء من العالم العربي وأجلس أنا إليهم أيضا ومنهم البروفسور عبد الله الطيب والأستاذ علي أحمد باكثير والشيخ محمد سالم البيحاني والأستاذ أحمد محمد نعمان والشاعر المهجري زكي قنصل الذي استغرب معرفتي الجيده بشعراء المهجر في الأمريكيتين وببعض قصائدهم، وحاكم عدن توم هيكنبوتام وحاكم عدن وليم لوس الذي جرى بينه وبيني حوار، والعالم الباكستاني محمد حسن الأعظمي الذي استقبلته نيابة عن والدي وأخبرني عن ترجمته لقصيدتَيْ محمد إقبال "شكوى" و"جواب شكوى" نثراً إلى العربية ومن ثم نظمهما الصاوي شعلان وغنت أم كلثوم مختارات من القصيدتين تحت عنوان "حديث الروح".

أنا ووالدي والشعر:

في المدرسة اكتشفت حبي الشديد للشعر الذي كان موضوعي المفضل هو ومادة الرياضيات. أيضا كان شقيقي قيس عاشقا للشعر ويطلب مني أن استمع للقصائد المقررة عليه وهو قبلي بعامين فكنت أحفظها معه. وكانت مكتبة والدي ثرية بالكتب الأدبية والثقافية العربية والإنجليزية وخصوصا الدواوين الشعرية ومن ضمنها ديوان والدي الأول "على الشاطئ المسحور" المنشور عام 1946 والذي حفظناه أنا وقيس عن ظهر قلب كله أو جله.

وذات يوم طلب والدي منا نحن الاثنين أن نعيد ترتيب مكتبته أثناء إحدى عطل المدرسة الصيفية فأنزنا الكتب إلى الأرض ورقمناها وبوبناها وفهرسناها في فهرسين باللغتين حسب الموضوعات وكنا نعود في مرات قليلة إلى والدي لنستفسر إذا أشكل علينا شيء. وكان هدف والدي كما أظن أن يعلمنا تبويب الكتب والحقيقة أن تلك التجربة جعلتني أتعلق بالكتب طيلة حياتي. كما أذكر وأنا في المرحلة الثانوية أنني سألته عن معنى كلمة إنجليزية فقال دعنا نبحث عنها في القاموس. وعندما كان قاموس أكسفورد بين يديه قال أظن معناها كذا وأيضا كذا ولكن دعنا نتأكد. وسألني إن كنت أعرف استعمال القاموس فأجبت بالإيجاب. ففتح القاموس وكانت معاني الكلمة كما قال بالضبط، وأدركت أنه كان يلقي علي درسا لطيفا في الاعتماد على النفس باستعمال القاموس.

وكان والدي يمدنا بمجلات الأطفال وكتب الأطفال لكامل الكيلاني ومحمد عطية الأبراشي وسلسلات كتيبات عن السيرة النبوية لمحمد سعيد العريان وعبد الحميد جودة السحار وبسلسلة الروايات التاريخية لجورجي زيدان وكتب روايات الهلال وسلسلة أولادنا التي كان يحررها محمد فريد أبو حديد وقرأنا بعض كتب طه حسين والعقاد وعلي أحمد باكثير وعلي الجارم وتوفيق الحكيم وغيرهم وكثيرا من القصائد في الدواوين الشعرية أمثال ديوان المتنبي والمعري وأبي تمام وأحمد شوقي وحافظ إبراهيم وعلي محمود طه وإيليا أبو ماضي إلخ. وكان والدي كثيرا ما يستعمل في توجيهي أنا وأشقائي أبيات الحكمة وخصوصا من شعر المتنبي والحكم الفصيحة والدارجة وأحيانا

الإنجليزية وطبعا الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة ولعل رواسب تأثير ذلك مما حفزني بعد عقود لكتابة كتابي الصغير "من قناديل الحكمة" ثم كتابي الكبير "جسر الحكمة" الذي ضم 1500 مثل إنجليزي وما يعادل ذلك في العربية من آيات كريمة وأحاديث شريفة وأمثال عربية فصيحة ودارجة وأبيات حكمة.

وفي عام 1958 سافر شقيقي إلى إدنبره في اسكوتلندا والتحق بكلية الطب. وكنت في الثانوية عندما أطلعت والدتي على إحدى محاولاتي الشعرية فأعجبتها ورفضت أن تعيدها حتى تطلع والدي عليها. وفرح بها قائلاً إن لدي الموهبة وأشار إلى أحد الأبيات الجيدة وطلب مني أن أستمر وأطور موهبتي.

كان والدي قد نشر ديوانه الأول عام 1946 ثم أخذته مشاغل تطوير التربية والتعليم في عدن عن نشر ديوانه الثاني وتحدثت معه في الأمر وكنت مطلعا على مخطوطته ولكن كانت كثير من القصائد التي نشرها في الصحف وخصوصا صحيفة فتاة الجزيرة قد ضاعت منه. فكنت أذهب يوميا إلى دار فتاة الجزيرة لأنقلها يدويا قبل اختراع آلة التصوير الضوئي "الفوتوكوبي". وكانت الصحيفة لجدي محمد علي لقمان، وكانت أول صحيفة مستقلة في جنوب الجزيرة منذ الأول من يناير 1940. أفرد لي جدي طاولة في مكتبه لنقل القصائد وكان كلانا يعمل في نفس الغرفة الفسيحة بمنتهى الهدوء حتى خلت أنه لو سقطت إبرة لسمعناها. وهكذا جمعت قصائد ديوان والدي الثاني "موج وصخر" وهو من أشهر دواوينه وكتب مقدمته الأديب البحريني الشهير الأستاذ إبراهيم العريّض، ونشر في أوائل الستينيات وأنا طالب هندسة في جامعة أبردين.

وكنت في كلية عدن أحرر مجلة الكلية بمساعدة 3 من الطلبة اللامعين في الصف الذي بعدي مباشرة هم أبوبكر القربي وعبدالله عقبه وعيدروس (وقد صار إثنان منهما فيما بعد وزيرين والآخر بروفسورا)، وكانت المجلة تصدر باللغتين العربية والإنجليزية معا ويشرف عليها الأستاذ إبراهيم

روبله نائب العميد وأستاذ الترجمة رحمه الله. وكنت قد انضممت إلى أسرة التحرير قبل التخرج في الكلية بأربع سنوات فكنت أصغر المحررين وذلك لرضى الكلية عن مستواي الأدبي. وكنت قد بدأت في محاولاتي في كتابة الشعر ولكن لم أنشر أيا منها في المجلة لأن والدي كان لا يشجع على الاستعجال في نشر الشعر فكنت أكتب فيها الافتتاحية وبعض المقالات باللغتين ونشرت إحدى القصص الفكاهية بالإنجليزية.

وعندما انتقلت إلى جامعة أبردين المختلطة باسكوتلندا تفتحت قريحتي فكتبت المقطوعات الغزلية والوطنية والتأملية وكنت أرسلها إلى والدي في عدن بالبريد الجوي وأنتظر بشوق تصحيحاته وتعليقاته ونقده، وكانت تلك هي الفترة التدريبية الحقيقية لي في كتابة الشعر. وقد جاء والدي مرة في زيارة إلى أبردين في أوائل الستينيات فأخبرته أنني شطّرت إحدى قصائد شوقي وأريد إطلاعه على تجربتي فرفض الاطلاع عليها ونصحني أن أتلفها وألا أحاول مثل ذلك مرة أخرى، فالشاعر حسب رأيه ينبغي أن يكتب معبرا عن تجربة حقيقية خاصة به. وقد استفدت من تلك النصيحة وكثير من النصائح الأخرى الثمينة خلال العقود التالية من قرض الشعر. ولا شك أن توجيه والدي لي في الشعر كان متعة كبيرة لي، ولم يكن فيه شيء من الشدة التي عهدتها في تعليمه لي مبادئ القراءة والكتابة أوسياقة السيارة بعد ذلك، فقد كان يتعامل معي كشاعر ناشئ محب للشعر.

وقد ظللت أطلع والدي على تجاربي كلما استطعت طيلة حياته ولكنه بعد أن قوي عودي في مجال الشعر كان يقول لي إنه يخشى أن يخرب قصائدي إذا لمسها بتصحيحاته. وكان هو أيضا يعرض علي قصائده كلما التقينا في الإمارات أو السودان أو اليمن أو لبنان أو بريطانيا ويستفيد قليلا من رأيي بينما كنت أستفيد كثيرا من رأيه. وقد راجعت معه ديوانه الرابع "في موكب الحياة" فقد أطلعني عليه عام 1973 في بيروت قبل نشره وهو من أجمل دواوينه ويحوي قصائد شهيرة

مثل "في الستين" و"بلا وكر". أما هو فقد اطلع على مسودة عدد من دواويني الأولى قبل نشرها، وهو الذي اقترح تعديل عنوان أحد دواويني إلى "شواظ في العتمة". وقد أهدى لي "أعماله الشعرية" الكاملة عندما نشرتها دار العودة، كما أهديته أول كتاب لي وهو ديواني الأول "بين شط وآخر" وعددا من كتبي التالية. وقد جمعت ما بقي من شعره ونشرته في ديوانه السابع "الأنامل الجافة" الذي اخترت عنوانه، كما جمعت مسرحياته المنشورة الخمس وقدمت لها ونشرها المجمع الثقافي في أبوظبي في مجلد واحد جميل بفضل اهتمام الأستاذ جمعة القبيسي. كما جمعت عددا من دراساته المنشوره في المجلات العلمية في مجلد نشرته ندوة الثقافة والعلوم في دبي. ونشرت عن شعر والدي فصولا في عدد من كتبي النثرية ثم جمعت مختارات من شعره مع مختارات من كلمات أغانيه في مجلد واحد وكتبت مقدمة مسهبة للكتاب الجميل الذي نشره مركز جمال بن حويرب للدراسات.

وقد أكرمني والدي بعدة قصائد واحدة عندما نلت المركز الأول في كل مدارس عدن لدخول كلية عدن، وواحدة عندما نلت الدكتوراه، كما كتب قصيدة لكل واحد من أطفالي وئام ووضاح ووجد. وكتبت له عدة قصائد كما رثيته بقصيدة طويلة.

وظللت لسنوات بعد رحيله أفتقده كلما كتبت قصيدة لشعوري بأنني أتمنى أن أعرضها عليه قبل النشر. رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه الفردوس الأعلى.

رؤوس أقلام لسيرة ذاتية

بقلم : مصطفى أحمد النجار

سيرة ابتدأت بمحاولة مستوحاة من صمود مدينة بور سعيد أثناء العدواني الثلاثي عام 1956م، وتقليد لنصوص شعرية مدرسية وتجويد في موضوعات الإنشاء (التعبير) في المرحلة الابتدائية والإعدادية (الصف السادس كان بداية المرحلة الإعدادية يومذاك)، إضافة إلى مطالعة كل شيء يقع تحت يدي، وتجريب جميع الأجناس الأدبية أذكر أني كتبت قصة طويلة بعنوان (دموع حيرانة) بعد فراغي من مطالعة رواية تحت ظلال الزيزفون أو ماجدولين لمصطفى لطفي المنفلوطي، كما كنت ألعب مع صديق لي لعبة (نعم. ولكن!) يبدأ أحدنا بحكاية ثم يقف ليبدأ الآخر بعبارة: نعم ولكن؟ مكملاً السرد الفوري الذي يستعين فيه بالواقع حيناً وبالخيال أحياناً، كما وجدت من يغنّي لي بعض محاولاتي الشعرية من هواة الغناء أعضاء فرقة أصدقاء المركز الثقافي في منبج، ووجدت نفسي شديد الرغبة في نشر مبكر في الصحافة الحلبية مثل: آخر دقيقة والشباب والتربية والحوادث والسنابل، وفي الصحافة الدمشقية مثل: الوحدة والأيام والناقد وفي الصحافة اللبنانية مثل: الورود والأديب والأحد إلخ، وأقدم على نشر باكورة أعمالي (شحارير بيضاء) عن دار الرائد بحلب 1963م مكرسة لقصيدة النثر، وعكفت على قراءة أعمال رواد قصيدة النثر في سورية مثل إسماعيل عامود ومحمد الماغوط وسليمان عواد وسواهم: ثم أصدرت بعدئذ في العقود التالية: (من سرق القمر؟)، (ماذا يقول القبس الأخضر؟)، (كلمات ليست للصمت)، (من رفيف الروح)، (فلوات الرؤيا)، (على هامش السمفونية الناقصة)، (غنائيات عصرية)، (الوردة ذات التوبجات المبعثرة) و(صباحات مشرقة) للأطفال، كما خضت تجربة المجموعات الشعرية المشتركة تلبية لهاجس التواصل الذي رافقني منذ البدء بمراسلة الأدباء وتبادل المطبوعات سواء مع أدباء سورية أو مع أدباء من الوطن العربي، كانت مراهقتي مليئة بالثقافة والصحافة وصداقة ذوي الكلمة وعشاق الصحافة بخلاف مراهقة الشبان الآخرين: أستطيع أن أقول: إني كنت سابقاً لعمري الزمني.. فأنا من مواليد حلب 1943م، نشأت وترعرت في منبج

مدينة البحتري ومقر إمارة أبي فراس وأبو ريشة . ربما كان لطبيعة هذه المدينة في أواخر الأربعينات والخمسينات وطبيعة تكوينها السكاني المتعدد، إضافة إلى النظام الداخلي في الثانوية الزراعية التي أمضيت فيها ثلاث سنوات في مدينتي (سلمية ودير الزور) وكان طلابها من سائر أنحاء سورية، التأثير الملحوظ في تعميق هذا التواصل والانفتاح على حرية الكلمة وتعدد فضاءاتها، كما كان لتحولي من مرشد زراعي في محالج القطن بحلب وفي حقول القطن وإكثار بذاره في حمص، إلى التعليم بعد دراسة حرة حصلت فيها على الثانوية الأدبية ثم أهلية التعليم الابتدائي، وتجربة الخدمة العسكرية وخوض حرب تشرين 1973م، على امتداد ثلاثة أعوام ونيف، ما ساعد على تعميق تجربتي الأدبية واتساعها.

* أنا مدين إلى الطبيعة بكل مساحة الخضرة في ذاكرتي ومخيلتي ثم في شعري فقد كانت طفولتي في منبج ذات البساتين الخضر والينابيع الغزيرة. والسماء المشرقة والصباحات والمساءات العذبة فاختزنت ما شاء لها أن تختزن. وفي كهولتي أجترها بمتعة تجلب لي السعادة النادرة مثل أي خروف يهرول فوق سفوحها.

شوقي بغدادي بعد أن خاض تجربة مديدة أمضى معظمها واقعياً اشتراكياً يعود إلى الطبيعة ويدعو الشباب خاصة إلى التعامل معها أثناء تقييم محاولاتهم الشعرية عبر أصوات جديدة بالأسبوع الأدبي، ويوم حارب بعضهم الامبريالية اختلط الأمر عليهم فحاربوا الطبيعة وأغلقوا أهم مصدر من مصادر الإلهام. هناك عودة أو توبة من الطبيعة إلى الطبيعة. والطبيعة هنا ليست وجهاً من وجوه العزلة والهروب من مواجهة الواقع، إنما هي ملاذ ومصدر ومنبع للروحانيات التي تساعد المبدع على مواجهة الحياة القاسية. وقراء مجموعاتي وبخاصة (كلمات ليست للصمت) سوف يقعون على تأثيرات هذه المخلوقة الجميلة!؟.

- كتبت العديد من القصص القصيرة مثل: ماسح الأحذية أو أحزان بائع متجول أو حزينة في العيد أو كاتب الفندق أو سارق الأكفان، تدرجت بكتابتها من خاطرة إلى سرد عادي إلى قصة تتوفر فيها عناصر القصة الفنية، وتوقع لي القاص فاضل السباعي مستقبلاً زاهراً في القصة وهو يعقب على قصة: أحزان بائع متجول في صحيفة الجماهير الحلبية بتاريخ 15أيار 1972م. نشرت هذه القصص وسواها في مجلة الورود والرأي العام اللبنانيتين، وفي الينبوع

الحمصية، وآخر دقيقة الحلبية، وأذيع بعضها من إذاعة حلب في برنامج (قصة الأسبوع) وأعددت مجموعة للطباعة بعد إطلاع القاص جورج سالم والأديب عبد القادر عنداني عليها، ثم عدلت عن نشرها بعد إدخال نفسي في دائرة النقد الذاتي. أما الخاطرة فكتبت الكثير منها، كانت قد بثت من إذاعة حلب في الأعوام: 1965- 1966- 1971م، تحت عناوين: خاطرة اليوم، خاطرة المساء، منك وإليك، غيمة مطر... كما نشرت الكثير من المقالات والزوايا تحت عناوين: يوميات، مفاتيح، شعاع، مرايا.. إلخ، في صحافة سورية وفي صحافة الوطن العربي، وأخص بالذكر: البيان في دبي والجزيرة في السعودية على مدى سنوات إضافة إلى نشر الحوارات مع أدباء سورية وأدباء الوطن العربي.. ثم اقتصرت على الشعر الأثير إلى نفسي منذ عام 1971م وحاولت الإفادة- بعدئذ- من القص والتشويق ومن الحوار والمونتاج السينمائي والدراما في صياغة القصيدة محاولاً تحقيق التوازن بين الشكل والمضمون بدون إفراط ولا تفريط، ووجدت نفسي أنساق إلى كتابة كل الأشكال الشعرية (العمودي والتفعيلي والنثري) تحت ما سميته بالتعايش بين الأنماط الشعرية والإيمان بأن الإنسان روح وجسد. وثمة حوار بين الأجيال وليس صراعاً.

- أما عام 1962م فقد أصبحت مراسلاً ومعتمداً لجريدة (أخر دقيقة) الحلبية، أنشر فيها رسائل صحفية ترصد قضايا المواطنين ومشاكلهم والواقع المعيش اليومي لمدينة منبج، واستمريت أمارس نشاطي الصحفي هاوياً إذ أصبحت مراسلاً لصحيفة الأسبوع الرياضي الدمشقية، ثم مجلة الورود اللبنانية، ثم مجلة السراج العمانية، ومجلة صوت الجيل الأردنية، ومجلة الرافعي المصرية، وجريدة الجزيرة السعودية. زودت الأسبوع الرياضي بالأخبار الرياضية، أما ما عداها فقد كانت الرسائل الصحفية تتضمن الأخبار والحوارات والزوايا، وفي الأرشيف لقاءات كثيرة مع أدباء من سورية ومن الوطن العربي: خليل هنداوي، سامي الكيالي، فاضل السباعي، نهاد رضا، عبد الفتاح قلعه جي، إسماعيل عامود، لينا كيلاني، جورجيت حنوش، ضياء قصبجي (سوريا)، د. حسن فتح الباب د. حلمي القاعود، ياسين الفيل، عبد الستار سليم، د. محمد عبد المنعم خفاجي (مصر)، د. حسن الأمراني، محمد بنعمارة (المغرب)، يوسف رزوقة، محمد العانش القوتي (تونس)، عبد العزيز الرفاعي (السعودية)، زكية مال الله (قطر)، وشهاب غانم (دبي)، راشد العيسى (الأردن) وسواهم.

• وعندما تأسس اتحاد الكتاب العرب كنت في القوات المسلحة مجنداًَ مشغولاً، بتلك المرحلة دخل في الاتحاد من دخل من غير شروط مسبقة، وقبل التشدد بشروط العضوية. وفي السبعينات أصبحت مشرفاً ثقافياً في جمعية الفرقة الشعبية للآداب والفنون بحلب التي قدمت العديد من المهرجانات الأدبية المتميزة وبخاصة بعيد حرب تشرين 1973م تحت عنوان (الحرف والطلقة يتعانقان) وفي عام 1990م، قمنا بتوجيه نادي التمثيل العربي بحلب الوجهة الأدبية بعد وفاة رئيسه المسرحي محمد ظريف صباغ وانتسبت إلى جعمية العاديات بحلب وإلى اتحاد الصحفيين بدمشق وإلى نادي أبها الأدبي في السعودية وإلى رابطة الأدب الحديث في القاهرة وإلى رابطة الأدب الإسلامي في السعودية بعد أن أغلقت أبواب اتحاد الكتاب العرب في وجهي عام 1990م.

• وأنا على مقاعد الدراسة الابتدائية شغفني معلمي (محمد سعيد) في الصفوف الأولى بهدوئه ونصائحه وتأكيده لنا على حب الأم وطاعة الوالدين واحترام الكبار، إذ ما يفتأ أن يردد علينا الحديث الشريف "الجنة تحت أقدام الأمهات" والآية الكريمة (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً) (الإسراء32)

إضافة إلى تأثير هذا المعلم التأثير الكبير وإضافة إلى ما أشرت إليه آنفاً حول تأثير الأسرة.

كنت ميالاًَ إلى التأمل العميق. والتفكر في خلق الله إذا اعتبر المرء غصناً في شجرة، والشجرة أكثر ثباتاً بجذورها. فكانت بعد ذلك (اللوحة الكاملة) قصيدة تضيف إلى شجرة العائلة المقتصرة على ذكورها، الإناث أيضاً. وكانت (الوردة ذات التويجات المبعثرة..) التي لا تصبح وردة إلا باكتمالها وتواشج تويجاتها. وكانت قصائد كثيرة على امتداد تجربتي الشعرية تُعنى بالأدب والأم والأطفال، وتجلت الأم في رموز متعددة منها الوطني والتاريخي، فضلاً عن المرأة حبيبةً وزوجاً. فالأسرة.. خلية أولى في الإنسانية كلما تماسكت.. تماسكت الإنسانية وارتقى المجتمع بخلاف الغرب الذي تقدم من جانب وفرط في مسألة الأسرة والقيم والدين.

المبدع مثله مثل أي إنسان– مع فارق الموهبة والتميز– يفقد تأثيره ومصداقيته عندما يتناقض بين النظرية والتطبيق. فهل من المعقول أن يمور شعري– مثلاً– بالإنساني. وأنا أمارس أقسى أنواع الاضطهاد على أقرب الناس إلي؟

• شعرنا العربي القديم افتقد إلى ما يسمى بشعر الأطفال إلا من بعض الإيقاعات الشعرية للأطفال، أدب الأطفال إضافة حقيقية تذكر لإبداعات معاصرة. لقد تهيبت كثيراً في خوض هذه التجربة. رغم أني معلم ابتدائي يعايش الأطفال يومياً وعلى امتداد ثلاثين عاماً في القرية والمدينة لجسامة هذه الرسالة. حتى غامرت في التسعينات، قبيل انقطاعي عن التعليم حسب رغبتي بخمسة أعوام، فكتبت بعض الأناشيد راعيت فيها أعمار الأطفال ومداركهم وحبهم إلى التنغيم على ضوء التطبيق الميداني التجريبي بين الأطفال،. فلا يخرج الواحد منهم من الصف إلا وقد حفظ النشيد مع إنشاده وتلحينه.

• أما آثار الأطفال والطفولة على مسيرتي الشعرية فهي تشغل حيزاً واسعاً: فأي متصفح لمجوعاتي الشعرية سيقع على قصائد كانت موضوعاتها عن الأطفال أو الطفولة، منها (البراءة تسكن قلعة حلب) ولدت بعد سؤال أحد التلاميذ الذين رافقتهم برحلة مدرسية إلى قلعة حلب الشهيرة: إذا كان باب القلعة قديماً جداً.. فمن أين أتى الدليل بمفتاحه الآن؟

ختمتها قائلاً:

صغيري.. صغاري..
تلاميذ هذا الزمان العصي.. العجيب
فهذا الزمان خطير المراس..
وهذا الزمان جميل
سؤالك يطرق بابي..
فيفتح قلبي، تطير
فراشاتُ، تجري قناديل..
أشهق.. أشعر أن دموعاً.. تسيل
فكونوا خيولاً تراكض فوق.. سنام الوجود
وفرسان عصر بغير حدود

منذ طفولتي وأنا أميل إلى محبة الآخر وأسعى إلى مساعدته لا أحب الأذى لنملة، أحب الأزهار والسماء الصافية، وأقف إلى جانب المظلوم ولا أحب السخرية من الناس مهما كانت أوضاعهم الخلقية والاجتماعية.

ساعد على تنامي هذه النِّعم. أم تُوصي ولدها الأخير بعدم مشاكلة الناس حباً وحرصاً، وأبٌ يتصف بالإباء والشجاعة والفصاحة، وأخوات يحدبن على آخر العنقود، وأنا أستمع إلى القرآن الكريم يرتله المقرئون (أبو العينين شعيشع، ومحمد رفعت، وعبد الباسط عبد الصمد) يبث نفحاته صباحا مذياع يصدح في دارنا العربية الواسعة. إنه جهاز يعد من طلائع الفتح الإعلامي الذي اقتحم هذه المدينة التاريخية في الخمسينات، هذا النفس الإنساني الذي يلاحظه المتلقي في شعري وفي السلوك، أرجو أن يستمر معي حتى الرمق الأخير، إن شاء الله، محصناً بحتمية التفاؤل والزهد بما يتشاجر عليه الناس، واليقين بخلود بعد الموت، وانتصار للحق والعدل مهما غُيّبا؟!

ومن الضروري الاشارة الى جملة نشاطات شعرية تضافرت مع هوايتي المبكرة للصحافة وللصحافة الثقافية على وجه الخصوص:

*نشاطات متنوعة من الأعداد الخاصة التي ساهمت بالشعر فيها:

مجلة الموقف الأدبي – عدد خاص عن الشعر – تشرين الأول 1979

مجلة المعرفة – عدد خاص عن شعر السبعينيات – ت1 ت2 1982

مجلة الثقافة الشهرية بدمشق – عدد عن حلب – كانون الثاني 1981

مجلة الثقافة الأسبوعية – عدد عن حلب – 4 أيار 1974

مجلة الفكر التونسية – عدد خاص – ملامح وألوان من المشرق العربي – جويليه 1978

مجلة الفكر التونسية – عدد خاص – قضايا الشعر المعاصر – جوان 1981

ملف الأدب السوري – مجلة الشورى – ليبيا – نيسان 1979

مجلة صوت الجيل – الأردن – إعداد ملفين عن شعراء وقصاصي الثمانينيات في سورية 1992

كما شاركت في الملاحق الثقافية بنشر القصائد:

ملحق جريدة الفجر – أبو ظبي – 1981/4/2

ملحق الميثاق الوطني – المغرب – 1986/7/21
ملحق البيان – المغرب – عدد /8/ 1985
ملحق العلم الثقافي – المغرب – 26 يناير 1979
العديد من ملاحق الحرية الثقافي في تونس على مدى سنوات
ملحق الثورة الثقافي بدمشق وتشرين الأسبوعي وملحق العروبة الثقافي بحمص إضافة إلى ملحق الجزيرة والسعودية الثقافي والمجلة الثقافية في فترة التسعينيات
مشاركة في ملاحق اتحاد الكتاب العرب بدمشق عن الأدباء والشعراء:
نازك الملائكة (العراق) بتاريخ 15 آذار 1977
حمد الجاسر (السعودية) بتاريخ 6 آذار 1999
عبد الله البردوني (اليمن) بتاريخ أيلول 1990
نور الدين صمود (تونس) بتاريخ حزيران 1992

نشر مئات القصائد والزوايا والمقالات على مدى سنوات عديدة.
و قام الشاعر عبد الله البردوني بنشر قصيدة "أسئلة سفر ما" اختارها من المجموعة الشعرية "من سرق القمر؟" المهداة له في صحيفة "17 يونيو" – صنعاء بتاريخ 1982/3/18 التي كان يشرف على صفحتها الثقافية.
كما أعادت جريدة أضواء البحرين نشر قصيدة "روضة حب تنتظر على الميناء" بتاريخ 1978/9/9 نقلاً عن مجلة الفكر التونسية – جويليه 1987.
شاركت في مسرحية :الرجل الذي يفكر لنفسه" لـ "نيل جرانت" شعراً للجوقة وهي من إخراج محمد سعيد سمان، عرضت مرتين على مسرح سوق الإنتاج الزراعي والصناعي وعلى مسرح دار الكتب الوطنية بحلب في مستهل السبعينيات من القرن العشرين.
نشرت العديد من الزوايا الصحفية المتعلقة بالأدب والحياة والثقافة في الصحافة المحلية والعربية تحت عناوين: يوميات، صدى الشهباء، خيط من شعاع، مفاتيح، شعاع، تفاصيل... إلخ.

تُرجم بعض شعري إلى التركية في كتاب "33 شاعراً عربياً" الصادر في تركيا عام 2004 وإلى الإنكليزية قصيدة "الزيارة" ترجمة د. شهاب غانم وإلى الفرنسية 3 قصائد منها "القلب المقدس، تجليات قلب" ترجمة أسامة مرعشلي.

اشتركت في معرض مؤلفات وبيانات الأدباء للأستاذ طه عثمان من الأردن الشقيق في تسعينيات القرن العشرين الذي أقامه في أماكن وتواريخ متعددة بمجموعاتي الشعرية المشتركة ويحتوي كل ملف لأديب مشارك به: بيانات شخصية للأديب بقلمه، صور غلافات المؤلفات والشهادات والجوائز، صورته الشخصية.

وبعد سنوات مرت في عمق التجربة الادبية و الشعرية و الصحفية

قام نادي التمثيل العربي للآداب والفنون بحلب بتكريمي في الثاني من شباط 1993 لمرور ثلاثين عاماً على صدور باكورة أعمالي الشعرية "شحارير بيضاء" عن دار الرائد بحلب عام 1963 اشترك فيه الأساتذة محمود فاخوري، فواز حجو، زياد كمال حمامي، أحمد خيري.

وتم تكريمي من قبل النادي في يوبيله الذهبي مع الأديبة ليلى مقدسي، والفنان عبد القادر أصلي.

قام نادي عشتار بدعوة من المشرف عليه أحمد بالو بتكريمي مع الأديب أحمد دوغان والفنان الممثل هلال دملخي ورئيس نادي التمثيل الأستاذ محمود فاخوري.

- كما تم تكريمي أيضاً من قبل جمعية التنمية الاجتماعية مع الأديب محمد الراشد والأديب أحمد دوغان.
- واستضافني المنتدى الثقافي الشهري لمديرية حلب بقراءة بعض القصائد، كما استضاف الأدباء: "الفاخوري، حجو، ريبر أحمد، بالتحدث عن تجربتي الشعرية، وسبق أن استضاف المنتدى بعض ادباء حلب الشهباء
- الكلمة مثل السمكة في الماء لها تأثيرها عندما يتم نشرها في المجلات والكتب الورقية و الالكترونية و في عناق المتلقي عبر المنابر الثقافية وجها لوجه

اشتركت مبكراً في أمسيات المركز الثقافي العربي في مدينة منبج وألقيت محاضرة عن الشاعر القروي (رشيد سليم الخوري) عام 1960، حيث كنت على مقاعد الدراسة الإعدادية، وقمت بالعديد من الأمسيات الشعرية في اتحاد الكتاب العرب بحلب وفي معظم المراكز الثقافية في

سورية ودار الكتب الوطنية بحلب وسواها بدعوة من الجمعيات والروابط الأدبية (الجمعية العربية المتحدة، جمعية العاديات، النادي الفلسطيني بحلب ونادي شباب العروبة ورابطة الخريجين الجامعيين بحمص) ومن الأماسي المميزة أمسية شاركت فيها مع القاصة أم عصام خديجة الجراح النشواتي التي كنت أطالع قصصها في الصحافة لما كنت على مقاعد الدراسة الإعدادية والثانوية إضافة إلى الشاعرة الدمشقية هنادة حصري في المركز الثقافي في أبو رمانة بدمشق عام 1996، استقطبت الأمسية العديد من الوجوه الأدبية المشهورة بدمشق، وقام الصحفي الشاعر الفلسطيني عبد الكريم عبد الرحيم بتغطية الأمسية في الصفحة الثقافية لجريدة البعث وقد أشاد بقصائدي (دون معرفة سابقة) ودعا فيها النقاد إلى الالتفات والاهتمام بتجربتي الشعرية. ومثلما شاركت في هذا النشاط المنبري بالشعر في المدن والأرياف.

ولم تقتصر موهبتي على مخاطبة الآخرين من خلال المجموعات الشعرية و من خلال النشر في الصحافة بل كان الخطاب عبر الأثير كما حظيت تجربتي الشعرية باهتمامات من يعشق الشعر من خلال تقديمي مقاربات لهذه التجربة

فأذيع لي من إذاعة حلب – البرنامج العام بتاريخ 1965–1966–1971–1972–1973 زوايا أدبية وثقافية واجتماعية في برامج حملت العناوين التالية: خاطرة المساء، خاطرة اليوم، غيمة عطر، منك وإليك، وعدة زوايا في الثمانينيات من إذاعة حلب/صوت الشعب.

– كما أذيع لي عدة قصص قصيرة في برنامج لكل أديب قصة، قصة الأسبوع منها: "لماذا تصفرّ الأوراق؟"، لا أملك أوسمة، العروس المثالية". وعدة أحاديث عن اللغة العربية ودعوات التجديد، والشاعر الدكتور علي الناصر، والأديب سامي الكيالي، وخير الدين الأسدي ونافذة على الشعر في حلب الشهباء، وسواها من الحوارات والمختارات الشعرية بأصوات روز بشّور ودعد الدّجاني ومأمون الجابري وسلوى شحادة وسهام مقصود ولابد من الإشادة بدور عبد الخالق قلعه جي مدير إذاعة حلب والأديب عبد الفتاح قلعه جي.

– كما أذاع الأديب نصر الدين البحرة من خلال مجلة الثقافة والنشاط الثقافي العديد من القصائد من إذاعة دمشق مع تعريف بالمجموعات الشعرية منذ السبعينيات.

– كما أذيع من إذاعة لندن في برنامج عالم الأدب "مختارات شعرية" لي بتاريخ 4 كانون الثاني 1981 وأعيد بثها في 1 آذار 1981 (1– الحب يلد الأطفال 2– الفرح يعود مجرباً 3– ولادة قلب) وأذيع بتاريخ 16 آذار 1982 القصائد التالية: "توقيع الأطفال، الوردة، الحديقة الباكية، القطار" وأعيدت بتاريخ 10 آب 1982.

– كما أذيع بتاريخ 27 كانون الأول 1983 القصائد التالية: "مسكون بالحب، وحين يجيء، أوراق الورد والشوك، لغتان" وكان القسم الثقافي العربي لإذاعة لندن بإشراف الشاعر العراقي الدكتور صلاح نيازي.

– عرّفت المذيعة هدى العجيمي من إذاعة القاهرة ضمن برنامجها مع الأدباء الشبان بالمجموعات الشعرية منها: "الطائران والحلم الأبيض، القبس الأخضر" كما تعرّض الشاعر المصري عزت الطيري بالحديث عن قصائدي غير مرة من خلال هذا البرنامج وفي برنامج "بين المطابع" إذاعة صوت العرب أذيع عن "الخروج من كهف الرماد" مع قراءة بعض القصائد.

– أذاع د. عبد الله الشحام (شاعر) عن القبس الأخضر حديثاً نقدياً من إذاعة عمّان – الأردن. كما أذاعت سلوى حداد على مدى نصف ساعة من خلال برنامجها الشهير "همسات الليل" بعضاً من قصائدي "من سرق القمر؟".

– وتحدث المذيع عبد الوهاب قتاية من برنامج سوق عكاظ – إذاعة أبو ظبي عن ديوان "ماذا يقول القبس الأخضر؟" حديثاً استغرق 30 دقيقة.

– كما قدم الشاعران المغربيان محمد علي الرباوي ومحمد بنعمارة من خلال برنامجيهما في إذاعة وجدة – المغرب العديد من القصائد.

– ومن إذاعة الرياض بُثّت عبر برنامج "سهرة ثقافية" للمذيع عبد الملك عبد الرحيم وبرنامج "نسيم الصباح" للمذيع عبد الله الحيدري وسواهما الكثير من القصائد.

– وقدم المذيع مهيار حيدر من إذاعة مونت كارلو تعريفاً بالمجموعات: "من سرق القمر؟، حوار الأبعاد، الطائران والحلم الأبيض، وقرأ مختارات منها وذلك في أيلول وكانون الأول 1979.

– كما أذيع العديد من القصائد من إذاعة الشرق اللبنانية وإذاعة وجدة في المغرب.

حوار و أجري معي حوار عن أدب الأطفال في برنامج "هيا نقرأ" أجرته المذيعة نسرين فندي تم فيه قراءة أربع قصائد للأطفال من مجموعة "صباحات مشرقة"
بحضور الأطفال وتوجيه الأسئلة مباشرة لي من قبلهم توافر فيها الذكاء و البراءة .

- كما تعرضت بعض الكتب و المعاجم الى تجربتي الشعرية :
- الحركة الشعرية المعاصرة في حلب – أحمد دوغان – المطبعة العربية – حلب 1975
- معجم المؤلفين السوريين في القرن العشرين – عبد القادر عيّاش – دار الفكر – دمشق 1984
- ملف خاص عن الشاعر السوري مصطفى النجار عن مجلة أصوات – مصر – العدد 13 سبتمبر وأكتوبر 1981. اشترك فيه الأساتذة: إسماعيل عامود، عيسى فتوح – عبد الفتاح قلعه جي – سمر روحي الفيصل – حسين علي محمد – حسني سيد لبيب – رياض محنّاية
- حركة الشعر الحديث في سورية من خلال أعلامه – د. أحمد بسام ساعي – دار المأمون – دمشق 1978.
- القرآن ونظرية الفن – ط1 القاهرة 1979 – د. حسين علي محمد ط1 القاهرة 1979 – ط2 القاهرة 1992.
- محمد صلى الله عليه وسلم في الشعر الحديث – أطروحة دكتوراه – د. حلمي محمد القاعود – دار الوفاء – مصر 1987.
- موسوعة مئة أوائل من حلب – عامر رشيد المبيّض – ج 3-4 عام 2004 – دار القلم العربي – حلب.
- معجم الشعراء من العصر الجاهلي حتى عام 2002 – كامل سلمان الجبوري – دار الكتب العلمية – بيروت.
- موسوعة الشعر الحديث المعاصر – د. يوسف حسن نوفل – مؤسسة المختار – القاهرة 2005.
- شعراء في العصر الحديث – الجدع وجرار – دار الرسالة 1978.

- أصوات من الشعر المعاصر ج1 أحمد فضل شبلول تعرّض فيه إلى أبرز الشعراء المعاصرين أمثال: نازك الملائكة، أحمد عبد المعطي حجازي، امل دنقل، سامي مهدي، عبد الله البردوني، فاروق شوشة.. إلخ – الاسكندرية 1984
- نحن موقف حوار مع شعراء وقصاصي الجيل – محمد الراوي – منشورات الكلمة الجديدة – السويس – مصر 1979
- دواوين الشعر المعاصر – دراسة وتوثيق أحمد الجدع – دار الضياء 1987
- أجمل مئة قصيدة في الشعر الإسلامي المعاصر – أحمد الجدع – دار الضياء 1988
- معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين ط1، مجلد4، 1990
- معجم الأدباء الإسلاميين المعاصرين – أحمد الجدع – دار الضياء – عمان 1999
- مسرح حلب في مئة عام – محمد هلال دملخي – 2000
- معجم شعراء الطفولة في الوطن العربي – أحمد فضل شبلول – مصر
- كتاب باللغة التركية 33 شاعراً عربياً من تأليف علي نار – اسطنبول 2004
- أحلام المساء – د. حسين علي محمد – مصر
- تطور الرواية العربية الحديثة –د. إبراهيم السعافين – بيروت 1987
- دراسات في الشعر الحديث والرواية والقصة القصيرة – مساءلات نقدية – د. بوراوي عجينة – تونس 2000
- شعراء تحت الضوء – دار الرضوان بحلب 2001 – محمد زينو السلّوم
- قراءة في الشعر العربي المعاصر – شعراء من سورية وفلسطين – محمد زينو السلّوم – حلب 1999
- مشاغبات فكرية – د. محمد جمال طحان – حلب 1994
- هكذا تكلمت حورية – د. محمد جمال طحان – حلب 1997
- من أدباء حلب في منتصف القرن العشرين – مجموعة مؤلفين – حلب 2000
- مقاربات نقدية من تجربة الشاعر مصطفى أحمد النجار – فواز حجو – كتاب مخطوط
- أعلام حلب – حسن بيضة مع إبراهيم هنانو وعبد الوهاب الصابوني 2000

- قراءات في الشعر العربي المعاصر – أحمد زياد محبك 2008
- أدباء في حياتي – ضياء قصبجي 2011
- الأعمال الكاملة – شعر – إسماعيل عامود 2003
- ينبوع الزهد فيما كتب عن حلب – مختار النعال 2005
- المختار من احلى قصائد الغزل وأجمل الأشعار – مختار النعّال 2003
- مئة كتاب وكتاب – حسين حموي – دار علاء الدين –دمشق ط1 2000
- لغتي الجميلة – مقرر للصف السادس الابتدائي في سورية – المطبوعات المدرسية 2003 إلى 2013.
- دروب الشعر العربي الحديث – د. أحمد زياد محبك – مديرية المطبوعات الجامعية بحلب 2000
- مسيرة الشعر العربي في القرن العشرين 1900–1993، راضي صدوق، السعودية
- الموسوعة الموجزة – حسان الكاتب – دمشق/مخطوط
- ثقافة الأطفال – أحمد الخميسي 2003
- ببلوغرافيا الشعر الإسلامي – بدر مقري – المغرب
- معجم أدباء حلب في القرن العشرين – احمد دوغان – حلب 2004
- أبو ريشة والنجار – الوطنية والإرهاص – جاسم محمد الجاسم – حلب/كتاب مخطوط.
- موسوعة أشعار القدس والأقصى – ج 2 – غزة.
- ديوان شعراء الوعي – الكويت – 2012.
- ظاهرة التجديد في قصيدة الأطفال – دراسة تطبيقية – محمد قرانيا – اتحاد الكتاب العرب – دمشق 2008.
- دواوين وكتب تحت المجهر – أحمد الخميسي – دار الثريا 2009.
- أحاديث في الأدب عن حلب – أحمد دوغان – دار الثريا – حلب 2006.
- كتيّب بمناسبة اليوبيل الذهبي لنادي التمثيل العربي للآداب والفنون بحلب للشاعر الشعبي محمد أديب خرسة 2009.

- قضايا الحداثة في الشعر والقصة – أحمد فضل شبلول – الاسكندرية 1993.
- تربية البنات في وصايا الآباء والأمهات – أحمد حسن الخميسي – دار القلم العربي – حلب 2007.
- الأطفال في مرآة الشعر العربي – أحمد حسن الخميسي – دار الثريا – حلب 2004.
- قراءة في الإبداع الحلبي – محمود محمد أسد – منشورات حلب عاصمة الثقافة الإسلامية 2006.
- قصيدة النثر – د. أحمد زياد محبك – اتحاد الكتاب العرب – دمشق 2007.

و منذ سنوات عكف على جمع ما نشر و مالم ينشر في كتب يأمل ان ترى النور منها

- مخطوط بعنوان (وتقترب المسافات) يضم الحوارات مع الأدباء والشعراء في سورية والوطن العربي.
- و كتاب بعنوان (في مرايا البصر والبصيرة)، يضمّ مجموعة من المقالات الأدبية.
- و كتاب بعنوان (مفاتيح) يشتمل على مجموعة من الزوايا الأدبية الثقافية

و كتاب يشتمل على مجموعة من عرض الكتب التي نشرها في الصحافة.

• منذ كنت في المرحلة الاعدادية و من ثم الثانوية كانت لي مراسلات مع الادباء و الشعراء في الوطن العربي بمرور السنوات توسعت و كانت حصيلة هذه المراسلات مئات الرسائل تعرفت من خلالها على حياتهم و تجاربهم أشير بالذكر حياة و تجربة الشاعر المقعد عبدالله السيد شرف الذي كان رمزا للصبر و الايمان و المثابرة في دروب الشعر رغم أنه لا يتحرك الا على كرسي و يشتهي أن يلبي ولديه الصغيرين في رفعهما الى الأعلى ملاعبا فهو مصاب بضمور الأطراف وهذه العلة ظهرت كما صرح لي في احدى رسائله بالوراثة في سن الشباب و أبت خطيبته التي أصبحت زوجته الا القران به رغم معارضة اهلها و أشير أيضا الى أسماء أدبية كبيرة في المشهد الأدبي العربي مثل الشعراء عزت الطيري و ياسين الفيل و حسين علي محمد و غيرهم من الكتاب و النقاد و هذه الهواية بالمراسلة انتجت ماي يسمى بالمجموعات الشعرية المشتركة مع شعراء من

الوطن العربي أكدنا فيها على وحدة الثقافة العربية رغم الحدود المصطنعة فيما بين أقطار الوطن العربي .

ومما أسعدني بمرور السنوات أن تكون بعض قصائدي مجال دراسة في اطروحات جامعية و أخص بالذكر هنا اهتمام الدكتور أحمد زياد محبك المدرس في كلية الآداب في جامعة حلب تكليف طلابه بحلقات بحثية بالتخرج من الكلية كما اسعدني اهتمام بعض الدارسين و النقاد في كتابة تتراوح بين العرض الصحفي و بين الدراسة المعمقة و أخص بالذكر الناقد فواز حجو الذي قام بجمع ما كتبه تحت عنوان مقاربات نقدية لم يتثن ظهورها في كتاب ورقي للظروف قاهرة .

- من الفضاء الورقي و أقصد النشر في الكتب الورقية و الصحافة الورقية على مدى عقود من الزمن من انقطاع دعيت من الشاعر الدكتور شهاب غانم غير مرة لضمي الى منتداه الالكتروني الذي يجمع بين النمطين أي اصدار كتب ورقية للشعر و النقد بعد ان يشترك عدد من أدباء الوطن العربي الكترونيا على الواتس اب وهي تجربة لافتة كنت مترددا بالانتساب لهذا المنتدى ثم لمست فوائد كثيرة حيث تقوم لجنة ضليعة باللغة الانكليزية بترجمة محتويات هذه الكتب على رأسها الدكتور شهاب الذي ترجم لي قصيدة منذ سنوات بعنوان الزيارة مستلة من قصيدة بعنوان قدود حلبية جديدة كما قام الممثل المسرحي هلال دملخي بتنزيل ترجمة عن سيرتي الادبية غير مرة في صفحته على الفيسبوك فبدأت اتقرب شيئا فشيئا من هذا العالم الافتراضي و أعتبر نفسي أميا فيه و من الإنصاف أن أشير إلى ما تقوم به الشاعرة اللبنانية المغتربة إخلاص فرنسيس من نشر بعض قصائد لي على صفحتها في الفيسبوك و في مواقع إلكترونية اخرى .
- إن من حوافز تجربتي الشعرية حالة الموت و الفقد لأصدقاء رحلوا شبابا أشير إلى فقد الشاعر سمير ددم و الى المذيع محمد ديب العيو بفقدهما وهما الرفيق اليومي لي أثر بالغ عنيق أضيف الى فقد والدي و فقد أمي و فقد ابنتي الصغيرة مروة التي فارقت الحياة نتيجة مرض السرطان كما قضى هذا المرض العضال على ثلاث شقيقات لي و على محمد البرعم الذي في طور التفتح في أسرتنا التي اتصفت بهذا المرض الذي ترك آثار الحزن في مجمل تجربتي الشعرية

و مما خفف من تجربة الموت القاسية الايمان بالله و الثقة به ووجود رفيقة عمر و شريكة حياة زوجتي التي تحملت معاناتي إضافة الى اتعابها في تربية ثمانية أطفال في السراء و الضراء و أخص بالذكر رغم أنها مشغولة بأمور البيت كانت تبيض لي ما أكتبه من قصص بعدم وجود الآلة الكاتبة لدي خلال وجود في دوامي المدرسي .

- إن جل الشعراء مرت تجاربهم الشعرية بحلقات متطورة و متسلسلة يعني بدأ الشاعر بالقصيدة العمودية ثم هجرها الى التفعيلة ثم جنح الى قصيدة النثر و أن هذا التطور كان نتيجة التحولات النفسية و الايديولوجية انما كانت تجربتي تختلف كل الاختلاف منذ البدء حيث كتبت كل الاشكال الشعرية و ما زلت اقول ان تجربتي ليست حلقية بل دائرية و هذا لا ينفي تأثري بما وصل اليه الشعر فأنا لست ممن يتقوقع بذريعة الأصالة تارة أو الحداثة تارة أخرى .

مقتطفات من سيرة ذاتية

بقلم: رياض نعسان آغا

كنت أبحث عن "سوزان"، أبصر بعينيها كما أبصر طه حسين، وأكتب بيمينها، وأنظر إلى الدنيا من خلالها، ... كانت أول امرأة عرفتها على الورق، ... فصارت في ذهني النموذج والمثال منذ أن كنت في العاشرة من العمر، ...

كان صديق طفولتي، قد جاءني ذات يوم من أواخر الخمسينات – ونحن آنذاك في نحو العاشرة من العمر – وفي يده كتاب ممزق الغلاف، وقال: إنه يريد أن يبيعه، فاشتريت منه الكتاب دون أن أعرف عنوانه، ورحت أقرأ لأول مرة كتاباً خارج الكتب المدرسية، وعرفت فيما بعد أنه الجزء الأول من أيام طه حسين، ... كنت يومها في الصف الخامس الابتدائي، وكانت لغة طه حسين صعبة عليّ، لكنني سرعان ما ألفتها في أول كتاب قرأته في حياتي، ... استغرقني حديث طه حسين عن طفولته، وبكيت لمصابه، وحفظت عن ظهر قلب مقاطع طويلة من الأيام، ... وقد كان لعلاقتي المبكرة جداً مع طه حسين دور كبير في تكويني الثقافي، ... وقد اشتريت الجزء الثاني من الأيام وأنا في الحادية عشرة، وحين دخلت المدرسة الإعدادية صرت واحداً من الرواد المداومين على المركز الثقافي، فقرأت الوعد الحق، والحب الضائع، وأديب، والشيخان، ... وتأثرت بلغة طه حسين، ... تلك اللغة الجزلة العذبة التي تنظم الألفاظ نظماً بلاغياً جميلاً، وقبل أن أتم السادسة عشرة من عمري قرأت "حديث الأربعاء"، وأذكر أن أستاذي الأديب الراحل "جورج سالم" الذي كان يدرّسنا الأدب العربي في السنة الأولى من دار المعلمين عام 1963م ضبطني منشغلاً في الصف عن درسه الأول، وأنا أنظر إلى شيء في درج المقعد، فكانت مفاجأته مثيرة حين اكتشف أنني منصرف عنه إلى قراءة "حديث الأربعاء"، وحين انتهت الحصة، وخرجنا إلى الاستراحة في حديقة دار المعلمين فوجئت بأستاذي جورج –رحمه الله– يقترب مني؛ ليهديني

مجموعته القصصية الأولى "فقراء الناس"، وهو يقول بتواضع الكبار: أريد أن أسمع رأيك، ... وقد احمر وجهي خجلاً من تواضعه، ولكنني كتمت سعادة بالغة باهتمام أديب كبير بي، ... ولقد نَمَتْ هذه السعادة، وكبرت في دار المعلمين، ... فقد انتقل جورج سالم إلى صفوف أخرى، وتسلم تعليمنا الأدب الأديب الراحل "خليل هنداوي" الذي واصل اهتمام جورج بي، وتعمقت صداقتي معه، وبتّ أطلع الأديبين على ما بدأت أكتب.

أول قصة حب:

كانت مغامرتي الطفولية الأولى مع الكتابة – وأنا دون العاشرة– سيناريو وحوار لفلم سينمائي سمّيته "قصة حب"، وقد استقيت أحداثها مما كنت أشاهد من أفلام، ... وقد كان في إدلب في أواخر الخمسينات داران للسينما تعرض كل واحدة منهما فلمين في الأسبوع، وكنت أشاهد الأفلام الأربعة، ولكن أفلام إدلب، لم تكن تشبع نهمي إلى السينما، فالأفلام الحديثة تُعرض في حلب التي كان فيها أكثر من عشر دور كبيرة للسينما، .

لم أكن قد بلغت الثانية عشرة من العمر حين بدأت أسافر مع ثلة من الصحب والأتراب إلى حلب مرة في كل أسبوع لحضور فلم جديد، ولم يكن أهلنا يعرفون أننا سافرنا إلى حلب وعدنا؛ لأن الرحلة كلها لا تستغرق أكثر من أربع ساعات، ... وقد وصل بنا هذا الغرام بالسينما إلى اختراع سينما، فقد صممنا آلة عرض، وكان "الصنايعي" صاحب الفكرة زميلنا "عبد الغني الكيالي، ، وأنا الآن أعجب كيف استطعنا – ونحن دون الخامسة عشرة جميعاً– أن نصنع سينما، ... وكيف فهمنا آليتها، ... كنا نحصل على الأفلام التي نعرضها من بقايا الأفلام في غرفة العرض في دار السينما، ولكن متعتنا لم تدم طويلاً؛ لأن لمبات الإضاءة كانت تحترق، وكنا نُمضي في إصلاح الآلة التي اخترعناها أضعاف الوقت الذي ننجح فيه بعرض فِلم لا تزيد مدته عن خمس دقائق، ... ولذلك حولنا نشاطنا إلى التمثيل، وكان مسرحنا خزانة في جدار منزل عمي، كانت

زوجته تضع فيها الفرش والأغطية، ... فكنا نحن الشياطين الصغار نرمي الفرش على الأرض؛ لتتسع الخزانة لمسرحنا، ... وكنا نؤلف تلك المسرحيات الساذجة تأليفاً جماعياً يعتمد على الارتجال، وكان مسرحنا الطفولي شاملاً فيه الحبكة والحدث والرقص والغناء، وكان النظارة أهلنا الذين يتحلقون حولنا سعداء بأبنائهم الصغار، ولم يكن هذا الأمر جديداً عليهم فقد كانوا يقولون: عادت أيام رمزي، ... يقصدون عمي الذي مات شاباً، وكان مغرماً بفن خيال الظل، يعرض في سهرات العائلة مسرحياته الضاحكة عن كركوز وعيواظ، ..

كان جهاد (ابن عمي) رفيق مسيرتي الثقافية الأولى، وكنا هو وأنا رواد المركز الثقافي نتبارى في حفظ الشعر القديم، وكانت نزهتنا اليومية على الدراجات العادية في طريق أريحا نزهة شعرية حفظنا فيها معاً جل المعلقات العشر.

كان ميلي إلى الكتابة قد أعلن عن نفسه حين بدأت أؤلف أحداث سيناريو "قصة حب" الذي كتبته، وأنا ابن عشر سنين، وكان اسم بطلته "ناديا" التي يحبها الفتى ولكنها تتزوج سواه، وسرعان ما تندم، ولا تدري كيف تعود إلى الحبيب، ... والطريف أنني سرعان ما عشت أول قصة حب وأنا في الحادية عشرة من العمر، ...

لا أذكر كيف بدأت تلك العلاقة الطفولية العذبة بيني وبين "ربا"، ... ارتجفت أصابعي حين صافحتها أول مرة، وارتعد كياني حين التقت عيناي بعينيها، ... كنت قد بدأت سن المراهقة، وعرفت أن الأنثى هي ذاك الآخر الرائع الذي تشتاق إليه الروح، ...

كانت "ربا" طفلة تسرح عيناها في المكان، وتحس أنها تفيق على حلم جميل، هو هذا الفتى الناحل الذي يرتعش كلما رآها، ... لم نقل شيئاً، فلم نكن نملك الجرأة على الكلام، لكننا كنا نلهو، ونضحك، ثم نبكي في براءة الأطفال، ...

رحلت "ربا" حين انتهت زيارة أهلها لإدلب، وتركت لي مشاعر الأسى الذي عرفت أنه الحب. ولم أبح بهذه الأحاسيس التي كان لابد لها من أن تفيض فكتبت شعراً، ... هكذا بدأت صلتي مع الكتابة، ... خربشات طفولية سرعان ما تدفقت فيها الحياة، ...

براعم تتفتح:

أصبحت الكتابة طقساً أمارسه كل مساء، ... وصرت شغوفاً بكتابة يومياتي، وفي سجل مذكراتي الأول دونت كل الأشعار الجميلة التي كنت أقرؤها، وكان أكثرها مختارات من الشعر اليوناني القديم المترجم الذي تعرفت فيه إلى أسماء رموز الأساطير والربات، مثل "أثينا" و"أفروديت" و"بروميثوس" و"سيزيف"، ومختارات من الشعر السوري القديم تعرفت فيه إلى عشتار وجلجامش وسوى ذلك مما أسهم في نمو معرفتي للعالم.

كنت قد دخلت المدرسة الإعدادية، وهي "مدرسة المتنبي" الشهيرة في إدلب التي تخرج منها أبناء جيلنا جميعاً، وكان صديقي اليومي هو ذاك الفتى الهادئ الرزين الذي تعرفت إليه في الصف الأول الابتدائي، وقد جمعتنا – عبد الله وأنا– ميول وهوايات مشتركة، وكنا من الأوائل في المدرسة، ولاسيما في مادة اللغة العربية، وفي الصف الثاني الإعدادي اتفقنا على أن نصدر معاً مجلة دورية نكتبها بخط اليد، ونطبعها على (الجستنر) ونصورها "فوتو كوبي"، ونوزعها على رفاقنا ومدرسينا.

أصدرنا العدد الأول من مجلتنا – التي كنت رئيس تحريرها – واخترنا لها عنواناً "براعم تتفتح"، وكان هذا الاسم يكشف وعينا لما نفعل، فنحن في بداية الطريق، ولعله طموح ضخم أن نصدر مجلة في عشرين صفحة، تضم موضوعات متنوعة في الأدب والتاريخ والسياسة، فضلاً عن القصص، ... وقد حررت المجلة كلها بخط يدي، ...

كان ذلك كله في العام 1959م – 1960م، ولم نكن قد تجاوزنا الثانية عشرة من العمر، ... وكانت سوريا آنذاك إقليماً شمالياً في الجمهورية العربية المتحدة، ...

رأيت عبد الناصر:

كان يملؤنا زهوٌ بأننا دولة تصون ولا تبدد، وتحمي ولا تهدد، ... وكان صوت عبد الناصر يدوي في أعماقي منذ أن كنت في التاسعة من عمري حين سمعت عبر الإذاعة خطابه الشهير "باسم الأمة، ... أعلن تأميم قناة السويس، ..."، وحين أعلنت الوحدة عام 1958م، وبدأ عبد الناصر جولته في الإقليم الشمالي كنا ننتظر زيارته إلى إدلب في طريقه من حلب إلى اللاذقية.

كان عبد الناصر زعيماً سياسياً ساحراً من طراز فذ فريد، فقد أحبته الجماهير حباً أوشك أن يخرج عن حدود الوعي، ... وحين وصل عبد الناصر إلى حلب عام 1959م زحفت جماهير إدلب إلى حلب لكي تستقبله هناك.

كانت جدتي "أم مصطفى" قد ملأت جعبتها بالخبز والبطاطا والبيض المسلوق زوّادة لذاك اليوم الذي تغلق فيه الأسواق، وتسد الطرقات والشوارع بالكتل البشرية الضخمة التي ترحب بعبد الناصر، ...

وقفنا قرب " المنشية" نسمع خطاب عبد الناصر، وكان لهذا الخطاب نكهة مختلفة؛ لأننا نسمعه الآن مشافهة من جمال ونحن نراه على الشرفة، وليس عبر المذياع.

لم يكن التلفزيون قد دخل الجمهورية العربية المتحدة بعد، ولكن دور السينما كانت تعرض جريدة مصر الناطقة قبل كل فِلم، وهي نشرة أخبار سينمائية تعرض نشاط الرئيس.

عدنا سريعاً إلى إدلب؛ لنستعد لاستقبال الرئيس في مدينتنا، وكنت يومها في الصف السادس الابتدائي، وكنت عضواً في الحركة الكشفية، وقد خرجنا لاستقبال عبد الناصر بملابس الكشافة، ولكوننا أطفالاً حظينا بأن نكون قبالته.

كان اللقاء بعبد الناصر حلماً، فهو الزعيم الضخم الذي سيوحد العرب، ويحرر فلسطين، ويجعلنا دولة قوية بين دول العالم.

كان يرافق عبد الناصر في هذه الزيارة جوزيف بروز تيتو رئيس يوغسلافيا، والإمام محمد البدر زعيم اليمن.

***

كانت قراءاتي المبكرة في مطلع الصبا فسحة رحبة لمعرفة الآخر، ولم أكن أجد خوفاً في نفسي من مواجه الأسئلة الكبرى، ... كيف؟ ومن أين؟ ومتى؟ وبدأت أغرق في كتب الفلسفة اليونانية، ... أبحث عن جواب، ...

كان الدخول إلى هذا الخضم الواسع من ثقافة اليونان أمراً عسيراً على فتى لم يبلغ الخامسة عشرة بعد، لكني وجدت في المركز الثقافي في إدلب كنوزاً من الكتب التي تحكي عن تاريخ الفلسفة اليونانية، ومن خلالها تعرفت إلى الأسماء العظيمة في الفكر والفلسفة، فرحت أقرأ عن أرسطو وسقراط وأفلاطون، ... ولم أكن أفهم كل ما أقرأ، وقد أدركت هذا الأمر حين عدت لقراءة هذه الفلسفة بعد سنين، ولكنني اكتسبت من الجولة الأولى معرفة جعلتني أشعر بالتفوق الفكري حين يجادلني الأتراب، لكن هذا الفهم المضطرب لمنطق أرسطو وكلياته، ولسقراط وأفلاطون وأفلوطين جعلني أتيه في غياهب الفكر بضع سنين، فقد تأثرت بمذهب اللاأدرية حيناً ثم تأثرت بالسوفسطائية التي علمتني مهارة الجدل، ... ثم ضعت فلم أعد أفهم شيئاً، ... حتى أنقذني من هذا التيه كتاب وقع في يدي مصادفة يحمل عنوان "قصة الإيمان" وهو من تأليف الشيخ نديم

الجسر، وقرأت في مقدمته قوله: الفلسفة بحر على خلاف البحور، على شاطئه الغرق وفي أعماقه الأمان، ...

أدركت أنني كنت أغرق على شاطئ الفلسفة، وكان أبي يخشى عليّ من هذه الكتب التي يراها بين يدي، فيقول لي: دعك من هذه الكتب التي ستضلك، واقرأ كتب المنفلوطي والرافعي كي تتعلم الإنشاء، ...

قرأت ماجدولين، وآلام فرتر، والبؤساء، واجتذبتني "أجواء" أندريه جيد، وغادة الكاميليا لألكسندر دوماس الابن، والجريمة والعقاب لديستويفسكي، وسوى ذلك من الروايات الأوربية التي أثرت مخيلتي، وفتحت عينيّ على عوالم جديدة تنطلق فيها الروح من سجن الرتابة، وينعم فيها القلب بفيض المشاعر.

بنت الجيران:

في صيف ذلك العام 1960م، تعرفت إلى "ولاّدة، ولم يكن هذا التعرف أكثر من نظرة التقت فيها عيوننا، فخفق القلب، وارتعش الكيان، ... كانت بنت الجيران تمسح زجاج النافذة المطلة على بيتنا حين رأيتها أول مرة، ... تسمّرت أتأمل جمالها النابض بالحياة، والمفعم بالأنوثة، ... وقد شهدت هذه النافذة حكاية حبنا الصامت، فلم يكن بيننا شيء غير النظر، وهذا السراح الشاعري الجميل الذي يقول ما يرتله القلب، ويعجز عن أدائه اللسان، ...

كنا مراهقين مذعورين، نمارس الشوق من وراء الزجاج، فنعيش الواقع حلماً نزركشه على هوانا، ويستبد بنا المكان فلا سبيل إلى اللقاء، ... ولكننا قتلنا الصمت بالغناء، ...

كنت قد ورثت شيئاً من عذوبة الصوت عن والدي، وكنت أعشق أغاني عبد الوهاب وعبد الحليم حافظ، ... وكان صوتي ينطلق في نسمة الليل ليحمل إلى الحبيبة رسائل أحاسيسي وأشواقي، ولم أكن أتوقع أن أتلقى أي ردّ على تلك الرسائل، لكنني فوجئت بصوت عذب حنون، يلمّ الليل

في نغم ينسل إلى القلب فيرتع فيه، ... غنت لي الحبيبة "يا نخلتين في العلالي" و"روحي وروحك حبايب"، ... ولم يكن حبنا سراً، فأهل الحي باتوا يعرفون متى تبدأ وصلات الغناء العذب البريء، ولعلهم كانوا يستمتعون بالفرجة على عاشقين صغيرين يغنيان، ... وكثيراً ما كنت أبدأ وجد الليل بأغنية عبد الوهاب التي تصف حالنا: على غصون البان عصفورتان تتناجيان بأعذب الألحان...

بقيت صورة بنت الجيران سنين طويلة معلقة على جدار القلب، ثم تحولت إلى طيف جميل يداعب الذاكرة حين تحن إلى زمن البراءة.

فاجعة الانفصال:

في خريف عام1961 وقع الانفصال بين العاشقين الكبيرين سورية ومصر، وفرّق بينهما طلاق تعسفي أجهضت فيه الآمال واختنق الحلم، ...

أمضينا عامنا الدراسي- في الصف الثالث الإعدادي- في إضراب متصل، واكتشفت أنني لا أصلح للمشاركة في المظاهرات، فقد كنت أنزوي جانباً أرقب من بعيد ذلك الهياج الصاخب الذي يتدافع فيه المتظاهرون، فيحاصرهم رجال الشرطة، ويلاحقهم رجال المباحث الذين بدؤوا يقتحمون المدرسة، ويعتقلون بعض الطلاب.

كنت متعاطفاً مع الناصرية؛ باعتبارها دفاعاً عن الوحدة، وترسيخاً لمفهوم القومية العربية، وتحدياً لدول الغرب التي تريد إخضاع العرب ونهب ثرواتهم، لكنني لم أكن ناصرياً بالمعنى السياسي الذي تكون فيما بعد.

لعلّ الذي أبعدني عن تيار الناصرية مغالاة بعض الناصريين الذين بدؤوا يلحقون صفات شبه ألوهية بعبد الناصر، ويرونه معصوماً عن الخطأ، ... فيظلمونه بهذا الحب القاسي، وكنت أرى

بعضهم أقرب إلى الغوغائية والحماقة منهم إلى حوار العقل والمنطق، ولكنّي كنت أدرك أن الناصريين نبلاء المنطلق والهدف.

ناظم القدسي يضرب بالحجارة:

عادت سوريا أيام الانفصال إلى المصطرع السياسي الذي كان قبل الوحدة، فقد نشطت الأحزاب وراح دعاتها وأنصارها يتجادلون بالأيدي في الشوارع، وكان الشارع العام ناصرياً صرفاً.

تسلّم رئاسة الجمهورية السورية ناظم القدسي، وبدأ جولة في المحافظات، واستعد الناصريون في إدلب لاستقباله بالحجارة والشتائم، وقد شكل المحافظ وفداً من وجهاء البلد لاستقبال الرئيس، وعرض مطالب المحافظة عليه، وكانوا متفائلين بأن يدعم بلدية إدلب، ويأمر بمرور الخط الحديدي في المدينة، وينفذ بعض المشاريع الحيوية لإنماء المحافظة.

كان الانفصاليون يدركون أنهم معزولون عن الشعب، ومرفوضون منه، ولذلك تم اختيار شارع ضيق مقابل السرايا القديمة لا يتجاوز بضعة أمتار يُلقي الرئيس فيه خطبته من شرفة صغيرة جداً، ... لم يكن هناك استعداد أمني، وحراسة مشددة مثل تلك التي كانت لعبد الناصر، بل وقف ناظم القدسي على الشرفة، وجهاً لوجه أمام أعداء نظامه من الناصريين، وكنت أقف على بُعد أمتار قليلة منه حين بدأ خطابه فانطلقت حناجر الجماهير تردد بصوت واحد: ناصر... ناصر... ودوّى في المكان الهتاف الشهير(بدنا الوحدة باكر باكر، مع الأسمر عبد الناصر)، ولم يقطع القدسي خطابه، ... رغم أنه فؤجيء بالحجارة تنهال عليه وعلى المنصة، ... وهاجم رجال الأمن المتظاهرين الذين فروا بعيداً، وتم اعتقال بعضهم، ... وكنت قد لزمت جانباً من الجدار، أتفرج على الذي يدور وأنا خائف ومذعور.

لم يعد بوسع وفد الوجهاء أن يعرض مطالب المحافظة على الرئيس الذي كان يكتم غضبه وغيظه، وروى لي والدي – وكان يمثل رجال الدين في الوفد – أن مطالبهم تقلصت إلى رجاء

الرئيس أن يعفو عن "الأولاد" الذين تصرفوا بطيش وحماقة، وأصدر الرئيس أوامره بالإفراج عن كل الذين اعتقلوا بتهمة الاعتداء عليه وضربه بالحجارة.

لقد جعلني هذا الموقف النبيل من ناظم القدسي أكنّ احتراماً عميقاً له، وقد أدركت أن الديمقراطية تحتاج إلى نبل وتسامح كبيرين.

4 سنوات في حلب:

بعد حصولي على شهادة الدراسة الإعدادية، توجهت إلى دار المعلمين في حلب، وكانت تلك الدار تمنح الطالب ثلاثة وثمانين ليرة تكفيه مؤونة عيشه، ...

ولم أكن أحب أن أكرر تجربة والدي مع التعليم فقد عشت معاناته، وكنت أخشى أن تحد مهنة التعليم من ميلي إلى الصحافة والأدب.

كانت دار المعلمين تضم تسعين مدرساً ونيفاً، يمثلون كل تيارات السياسة والمجتمع من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، أما طلبة الدار فهم رجال سياسة، يجتمعون في باحة الدار في كل استراحة بين حصتين ليقرروا مصير الأمة بالمناقشات التي سرعان ما تتحول إلى معارك تستخدم فيها الأيدي والسكاكين، ... وكان الانفصاليون – وهم الأقلية – من أساتذة وطلاب، يضربون ويهانون، ويرمون في بركة الماء الكبيرة التي تواجه مدخل الدار.

حين وقع انقلاب الثامن من آذار في عام 1963م قامت قيامة الدار، وتنازع الناصريون والبعثيون على امتلاك العهد الجديد، وانتصر البعثيون، وبدأ الناس يدخلون في حزب البعث أفواجا.

بين الفلسفة والأدب:

كان أكثر ما يشغل تفكيري في تلك الفترة هو إثبات وجود الله، كنت أرى الله في قلبي، لكن أريد أن يدركه عقلي، ... فعدت إلى الفلسفة اليونانية أقرأ فيها فزادتني ضياعاً.

كان بعض الذين عرفتهم من أنصار الفكر الديني متزمتين أقفلوا رؤوسهم على النصوص التي حفظوها، فلم يستطيعوا التلاؤم مع معطيات العصر، وكانت أحكامهم لا تقبل استئنافاً ولا نقضاً، وبعضهم كان جريئاً على إطلاق أحكام الردة والتكفير، فانطلقت أبحث عن فسحة أرحب للحوار، وسرعان ما وجدتها في الأدب.

بدأت أقرأ روايات نجيب محفوظ، وكنت أفهمها فهماً ظاهرياً إلى أن حضرت فِلم "الطريق"، وبدأت أحاور أستاذي القصاص "جورج سالم" في مضمون الفِلم، وفاجأني بقوله: إن السينما لا تستطيع أن تأخذ من روايات نجيب محفوظ إلا الحدث الظاهر، أما الحدث الفكري الفلسفي فهو لا يدرك إلا في الكتاب، ... حذار أن تظن يا رياض أن نجيب محفوظ يكتب عن شاب اسمه صابر يبحث عن أبيه، ... هذه رواية فيها بحث عن الله، ورؤية في المطلق، وحين تكبر ثقافتك ستفهم نجيب محفوظ بشكل أفضل، ...

لم انتظر حتى تكبر ثقافتي، فقد عدت سريعاً أقرأ نجيب محفوظ، وبيدي مفتاح جديد لفهمه، وقد علمتني هذه التجربة المبكرة ألا أستسلم لظاهر النص الذي أقرؤه، بل صرت أبحث عما وراء الكلمات من معانٍ فكرية وفلسفية، وقد مكنتني هذه الرواية من أن أكتب بعد عشر سنين دراسة مطولة عن الفكر الفلسفي في أدب نجيب محفوظ، وأن أجعل روايته "حضرة المحترم" نموذجاً، وقد أجازت لي هذه الدراسة للنشر في مجلة المعرفة السورية الدكتورة "نجاح العطار" قبل أن تصبح وزيرةً للثقافة، ونشرتها لي في مجلة المعرفة، وقد أطلعت نجيب محفوظ على هذه الدراسة بعد أكثر من عشر سنين من تاريخ نشرها، حين أجريت معه حواراً تلفزيونياً بعد نيله جازة نوبل، والطريف أن أول سؤال طرحته على محفوظ وفاجأته به كان:

. أحقاً رأى صابر في "الطريق"السيد" سيد الرحيمي" على مشارف الصحراء أم هيئ له أنه رآه؟ وهل يرى نجيب محفوظ أن السيد الرحيمي موجود أصلاً؟

حكايتي مع الشعر:

كان الشعر هوايتي الأولى التي رافقت وعيي، فقد استهواني ذاك الهذيان اللغوي منذ أواخر المرحلة الابتدائية حين أصابني مس الهوى لأول مرة، ... وحين كبرت قليلاً، وأحببت "بنت الجيران" اكتشفت فيض الشاعرية في داخلي، وصار الشعر مستودع الأشواق والأسرار، ... كنت أقرأ ما أكتب للمقربين من صحبي، وحين تخرجت في دار المعلمين ظننت أن تجربتي الشعرية قد نضجت وصارت جديرة بأن تنشر، فأرسلت إلى مجلة "المعلم العربي" قصيدة غنائية بعنوان "في مراتع إدلب" أقول في مطلعها:

رعى الله أيام الطفولة والصبا وعهداً قضينا في مراتع إدلبا

امتلأت نفسي فرحاً وزهواً حيث قرأت اسمي مطبوعاً على صفحات مجلة، ولكنني كنت أكتم في نفسي شعوراً بالأسى وعدم الرضا عن مستوى موهبتي، ... كنتُ أدرك يومذاك أن ما أكتبه أقرب إلى النظم منه إلى الشعر.

***

كنت في العشرين من العمر حين وقعت النكسة، وأحسب أن أحلام فتى في العشرين ما بين النوم واليقظة لا تخرج عن كونها رؤى جنسية أو عاطفية، لكن أحلامي لم تكن تخرج إلا قليلاً عن الرؤى السياسية والانتقامية، كان هاجسي فكرياً وسياسياً وكنت مقهوراً ومهزوماً من الداخل، ... وقد أهلكني البحث عن شاطئ ترسو عليه سفينة أفكاري التي تعصف بها رياح الثقافات وأعاصير الثورات...

لم أحفل بما قرأت من وجودية سارتر، وعبثية بيكيت، وسوريالية بريتون، وغضب أوزبورن، ومثالية هيجل، ... الوحيد الذي وجدته جديراً بأن أتوقف عنده طويلاً هو "ماركس"، ... بدأت أقرأ في أدبيات الماركسية، وشعرت باحترام لنبل أهدافها، وأثارني اكتشافها لفضل القيمة.

لكن إهمالها للميتافيزيقيا والماورائيات لم يكن يرضي عقلي الصغير الذي ما كف لحظة عن طرح أسئلة كبرى تتعلق بما قبل الحياة وما بعدها، ... ولم يكن تفسير الماركسية – كما فهمته – للحتمية أو الضرورة أو الصيرورة، أو سوى ذلك من المصطلحات الماركسية يعني لدي أكثر من هروب فلسفي من العجز الإنساني أمام تفسير الظاهرة الكونية الكبرى بما في ذلك الظواهر الاجتماعية والاقتصادية.

أما مصطلح "الصراع الطبقي" أو "الحقد الطبقي" فقد رفضته نفسي؛ لأنها لا تعرف الحقد على أحد، ولا أحب أن أصارع أحداً فأغتصب منه ما يملك بالقوة فأصير أنا الثري ويصير هو الفقير.

وفي هذه الفترة وجدت ضالتي في الإسلام الذي وجدته رداء واسعاً فضفاضاً يضمّ في جنبيه الغزالي وابن رشد معاً، كما ضم المتنبي وأبا العتاهية، وأفاء على الشافعي وعلى المعري معاً، ولم يحرم أحداً من فيئه إلاّ الذين حاولوا تمزيقه، وأشهروا سيفاً عليه، ... وتأملت عظمة هذه السعة في قوله تعالى في "سورة النِّساء":

﴿إِنَّ اللَّـهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾. ﴿٤٨

أدركت أنني أنتمي إلى هذا الإسلام الحضاري الذي نما في سرحته الرازي وابن سينا وابن طفيل وابن رشد وابن حزم، والذي احتوى إبداع الأخطل المسيحي، وابن ميمون اليهودي، ... وسوى هذه الأسماء مما يصعب حصره وإحصاؤه.

لكنني كنت لا أتجرأ على طرح هذه الأفكار التي بدأتُ أطمئن إليها في داخلي؛... فالماركسيون و"التقدميون" سيعتبرونني رجعياً ما دمت أتحدث عن رداء الإسلام الفضفاض الذي أصبح – في نظر بعضهم – رداءً عتيقاً بالياً، يجب أن يركن في متحف التاريخ، ...

والإسلاميون، ... قد يعتبرني بعضهم ضالاً ضائعاً عن الحقيقة، أعبث بردائهم كما أشاء، ... هذا ما كنت أفكر فيه في مطلع 1970م، ... وجاءت فاجعة أيلول الأسود، وتلتها فاجعة موت عبد الناصر.

وقد بكيت عبد االناصر، لكنني لم أنسجم فكرياً مع قصيدة نزار في رثائه:

(قتلناك يا آخر الأنبياء

قتلناك يا حبنا وهوانا

وكنت الصديق الصدوق وكنت هوانا

وحين غسلنا يدينا اكتشفنا بأنا قتلنا فتانا

وأن دماءك فوق الوسادة كانت دمانا)

إلى آخر تلك القصيدة الرائعة التي بلغ فيها نزار ذروة الصدق والشاعرية، ... ولكنني من فرط الحب والأسى الفاجع صرخت في رد عفوي عليه أقول:

(نحن لم نقتل نبياً

نحن لم نذبح إماماً

بل ذُبِحنا وصُلِبنا

وتَحَمَّلْنا المَلامَا

نحن كنا شعب ناصر

نحن صفقنا طويلاْ...

كان في كل الحناجر

صرخة تصنع جيلاْ)

إلى آخر هذه القصيدة التي لم أجرؤ على نشرها، والتي كنت فيها ولداً متمرداً يعاتب جثة أبيه المقتول الذي مات قبل أن يحقق لأبنائه ما وعد، ...

***

في عام 1970 بدأت تساورني فكرة الكتابة للمسرح، ولكنني لم أكن أجرؤ على اقتحام هذا العالم المعقد قبل أن أفهم أسراره، وما يدور في كواليسه.

وجاءت الفرصة حين دعاني صديقي الفنان "مروان فري" لكي ألعب بطولة مسرحية من إخراجه، عنوانها "الفصل الثالث" من تأليف صديقنا الحلبي "عبد الفتاح قلعجي".

كنت قد أغرمت بالمسرح اليوناني، واجتذبتني أعماقه الفلسفية والنفسية، فلم أكن أكتفي بقراءة "أوديب والكترا" في مسرح "سوفوكل"، وإنما قرأت ما كتب عنهما فرويد، وما كشف فيهما من عقد شهيرة، وعكفت في هذه المرحلة على قراءة ملاحم هوميروس، واستغرقتني الإلياذة والأوديسة، ... كان هذا بعض الزاد الثقافي الذي في جعبتي، فأما الهم والهاجس والفاجع فهو انطفاء بريق الحلم الذي عشنا به أمل انتصار مع الكفاح المسلح الذي شهدنا وأده واغتياله مثلما شهدنا انكفاء الحلم الناصري.

وبات جوابي عن سؤالي الضخم – ماذا أكتب؟– شبه واضح، ... أكتب عن اغتيال الثورة الفلسطينية وعن ضياع الأمل الفلسطيني في التحرير الشامل، ...

أكتب عن يوليسيز الذي أبحر، ... وعن تيلماخوس الذي ما كفّ يبحث عن أبيه، وأكتب عن بنلوبي (فلسطين) التي ما تزال تنتظر عودة يوليسيز، ...

كان محمود درويش قد استخدم هذه الرموز في بعض قصائده، فأعجبني استخدامه لها، ... وهي التي حفزتني على إلقاء محاضرة عن الرمز اليوناني في شعره.

طورت فكرة استخدام الملحمة، وبنيت الحدث الدرامي، وعندما سألت نفسي بأية لغة مسرحية سأكتب نصي؟ كان جوابي جاهزاً: سأجعلها مسرحية شعرية، فمازال الشعر ينثال على لساني.

عندما انتهيت من كتابة نص المسرحية، قرأتها على مروان فنري، فأبدى إعجاباً كبيراً بها، وسرعان ما بدأ استعداده لإخراجها، وبدأت البروفات، وقد اعتمد مروان في إخراجها على مزج الأسطورة بالواقع ضمن ما كان سائداً من تغريب "بريختي"، واعتمد على الإنشاد الملحمي الكورالي فيما يشبه طقوس معابد الإغريق، وكان عرض هذه المسرحية الشعرية "تراجيديا أوليس" على خشبة مسرح الحمراء بدمشق، فاتحة دخولي إلى العاصمة، فمن خلال هذه المسرحية رحبت الأسرة الثقافية في القطر بانضمامي إليها، ونالت المسرحية نجاحاً لم أكن أتوقعه، ولفت النص إعجاب الكتاب والنقاد، وكانت هذه المسرحية مفتاح دخولي إلى عالم الأدب والفن في العاصمة التي انتقلت إلى العيش فيها؛ لأبدأ رحلتي مع حياة جديدة.

***

في دمشق بدأت رحلة كفاح طويلة، بدأتها بالعمل في إدارة التلفزيون، فقد أمضيت سنوات مديراً لبرامج التلفزيون، ومديراً للإنتاج الفني، وحين بدأت تكاليف الحياة تزاد مع بناء أسرة، وجدت نفسي مضطراً للبحث عن مصادر دخل، فانصرفت عن كتابة الشعر والنقد إلى كتابة الدراما التلفزيونية، فألّفت أول عمل درامي بعنوان (أحلام منتصف الليل) مصمماً على أن يكون العمل الوحيد، وأن أعود بعده إلى شرفات الأدب، لكنّ نجاحه أغراني فكان بعده

مسلسل بعنوان (الشك) الذي انتقلت من خلاله لإنجاز أعمالي في الدراما المصرية، ثم أجريت مصالحة بين ميلي إلى الأدب وبين توجّهي إلى الدارما فأنجزت سلسلة من الأعمال بعنون (ديوان العرب)، وكتبت فيها عن النابغة، وعن زهير، وعن المرقش، وتابعت هذه المسيرة التي وفرت لي أمرين، أوّلهما الدخل المادي الأفضل، وثانيهما الحضور الأدبي والفني.

وفي الثمانيات جمعت إلى الكتابة الدرامية والأدبية إعداد وتقديم البرامج الثقافية التي قدمت فيها (الشعر والشعراء، وشعراء العربية، وملاعب القوافي، وسلاسل عديدة، انتشرت في الفضاء العربي).

***

في التسعينات وددت أن أجدد حياتي، وأن أنتقل إلى العمل السياسي دون أن أفقد موقعي في رحاب الثقافة والإعلام، فرشحت نفسي إلى عضوية مجلس الشعب بوصفي مستقلاً لا أنتمي إلى أي حزب سياسي، ونمت صلتي الشخصية مع الرئيس حافظ الأسد الذي اختارني مديراً لمكتب الشؤون السياسية في رئاسة الجمهورية، وكانت تجربة هامة في حياتي، وبعد وفاته انتقلت إلى العمل الدبلوماسي (سفيراً في سلطنة عمان، ثم سفيراً في دولة الإمارات العربية المتحدة) وقد انتقلت منها عام 2006 إلى العمل في الحكومة السورية وزيراً للثقافة حتى نهاية عام 2010.

ولأنني أحببت شعب الإمارات، وفرحت بما أنجز في التنمية والحداثة، اخترت العيش في دولة الإمارات الحبيبة.

مقاطع من حياة ثريا العريض تكتشف معنى الهوية و الإنتماء

بقلم: د. ثريا العريض

إبراهيم العريّض وابنة عمه فاطمة رزقا بسبع بنات وولد؛ ليلى ولولوة وجليل ثم لبنى ومي وهند التي توفيت طفلة تحبو وأنا ثريا الطفلة السابعة وأصغرنا دعد. وكان الوالد، الشاعر الأديب البحريني، مؤمنا بأهمية التعليم، وتطوير المجتمع، وتشجيع المرأة وتمكينها.

بدأ التعليم الحديث في البحرين للبنين بمبادرات فردية –منها مدرسة تطوعية أسسها الوالد– في بدايات العقد الثاني من القرن العشرين واتسع لاحقا ليشمل البنات في أواخره. عُيّنَت أول خريجات الإبتدائية مدرسات في سن الثانية عشر وبينهن شقيقتاي الأكبر ليلى ولولوة.

في الثانية من عمري غادرنا جليل ببعثة للمتفوقين إلى بيروت. تبعته لبنى إحدى أول فتاتين ابتعثتا بعد الإبتدائية.

دخلت الروضة مبكراً بصدفة متفردة؛ كنت ألعب في الشارع حين مرت سيارة تحمل سيدتين، الليدي بلغريف زوجة المعتمد البريطاني سير تشارلز بلغريف ومساعدتها اللبنانية السيدة وفيقة ناير تتأملان معالم شارع في أحد أحياء المنامة صدف أنه الذي تقع عليه بيوت العريّض. وأصل العائلة جدٌ هاجر من شمال المدينة المنورة شرقا إلى البحرين. جدّي لأبي يمثلهم في بومبي يتولى شؤون تجارتهم في تسويق اللؤلؤ البحريني وبيعه للصاغة الهنود. جدّي لأمي كان عميد العائلة يدير شؤونها محليا، وعملهم في تجارة اللؤلؤ يتضمن أن يحضر الطواويش أكوام محار اللؤلؤ إلى منزله بعد استلامها من الغواصين. وأنا اكتشفت متعة اللعب في كوم الرمل والمحار أمام منزله أشيّد منها تكوينات معمارية. استرعى انهماكي نظر الليدي ورأت أن مثلي يجب أن تُضم للروضة التي افتُتِحت مؤخرا في مدرسة الحي. فأخبرتها مساعدتها أن الطفلة هي ابنة الأستاذ

إبراهيم العريض الأديب المعروف وأخت صغرى للمعلمتين بتلك المدرسة ليلى ولولوة. المستشار نقل رسالة زوجته لوالدي. وهكذا تم إدخال الطفلة النحيلة إلى الروضة قبل سن الثالثة. وكانت أروع صدفة فقد أتاحت لي أن أكتشف بسعادة وشغف متعة اللعب تحت إشراف مدرّسة لطيفة علمتنا مهارات جمة؛ تركيب صور من رسوم قُطّعت لأجزاء، وتمييز وتصنيف قطع خشبية ملونة ومقارنة الشكل والحجم واللون. شخصيا كنت أفضل أن أحولها جسورا ومنائر. وفي احتفال بآخر العام الدراسي وزعت المدرّسة علينا جوائز صغيرة، باستثناء زميلة حصلت على دمية جميلة كبيرة فسألتُ لماذا العروسة الكبيرة لـ"بدرية" فقط؟ مستغربة فروق التوزيع. وشرحت المدرّسة أن بدرية كانت "الأولى"! أما أنا فكنت أنشغل عن الحفظ بالرسم ومحاولة الكتابة. وأضافت أن ما أكتبه "شعر". وفهمت من ذلك أن الشعر هو "الكتابة".

سألت والدي فوضح لي أن "الشعر" هو تعبير مموسق وأن "الأولى" رتبةٌ تُعطى لمن يتميز بعمله وإنجازه على كل زملائه فينال تكريما وتقديرا. قررت وقتها أن أكون الأولى دائما. وحققت ذلك طوال دراستي في كل المراحل وفي حياتي المهنية في ما بعد. ولم تكن المدرسة المنهل الوحيد لمعرفتي فقد سبقتها أمي بحكايات البحر، وأدخلني والدي المهتم بالفلك و الرياضيات عالم الميثولوجيا اليونانية وهو يريني أبراج النجوم في السماء.

أول ما وعيت بالـ"عالم" كان قبل الخامسة من عمري طفلة تسيرّها غريزة حب الاستطلاع. وأنا أنبش في درج مهجور كان لشقيقنا قبل سفره، وجدت قطعة مخملية صغيرة سوداء مطرّزة بخيوط بيضاء تبينت فيها كلمة لم أستطع فهم معناها، فلجأت لأختي الكبرى لولوة التي قرأتها لي: "فلسطين".

بادرت لولوة بتعليمي القراءة والكتابة حالما أبديت اهتماما بالسطور المطبوعة في الكتب التي كانت تملأ بيتنا، وأغرمتُ بالقراءة؛ وقتها كان منهج التعليم في البحرين قويا ولكنه في الروضة

والتمهيدي لا يشمل القراءة والكتابة. وخلافا لتجربة زميلاتي كنت قد أتقنت القراءة نوعا ما. ولكن لم تمر علي كلمة "فلسطين" من قبل! كنت أعرف أن الكلمات التي تنتهي بالياء والنون هي صيغة مثنى أو جمع لشيء ما ولكني لم أعرف بالضبط معنى الـ"فلسط" الذي نقش على القطعة السوداء.

عدت لوالدي فشرح لي أن القطعة السوداء هي شارة حداد وحزن وأن "فلسطين" هو اسم دولة عربية سرق جزءا منها مهاجرون قدموا من شتى بقاع العالم لإقامة دولة لهم. وأن ذلك قد حدث قبل أعوام ولم يستطع العرب داخلها أو خارجها استرجاع ما سرق لأن الإنجليز، وهم من يحكمنا، قرروا منح اليهود الأوروبيين وطنا في فلسطين حماية لهم من مضطهديهم في دول أوروبا.

تطلب كل هذا الشرح درسا أوسع تعمقاً في معنى كلمة "وطن" و"دولة" و"قارة" و"حكومة" و"ديانة" و"استعمار" و"اضطهاد"، بالإضافة إلى توضيح جغرافيا وطبوغرافيا وتاريخ منطقة الجوار والدول العربية وغير العربية التي لم أكن أعرف أسماءها ولا وجودها قبل ذلك اليوم. وأحضر والدي الكرة الأرضية ليريني موقعنا مجسّدا عليها ضمن دول العالم.

لم استوعب يومها سوى أن البحرين "جزيرة" صغيرة جدا في "خليج"، وأن العرب لهم دول كثيرة وجنسيات مختلفة ولكن الإنجليز هم من يحكمنا ويحكم جيراننا. ولم أفهم لماذا يحكم الإنجليز أراضٍ بعيدة جدا عن جزرهم، ولا لم كانوا أيضا يحكمون شبه القارة الهندية بأكملها، قبل أن يتّحد أهلها ويتحرروا، ولا علاقة ذلك بقرار حكومة بريطانيا إعطاء فلسطين ليهود أوروبا.

ولم تنته عملية اكتشافي مكونات العالم لسنوات عديدة.

كانت سيدات وبنات في مثل سني يطرقن أبواب منازل الحي يتوسلن بلهجة مختلفة إعانتهن، ويشرحن أنهن لاجئات تشرّدن من قراهن فرارا من إرهاب "الصهاينة". وكالعادة عدت لوالدي أستوضح، فشرح لي معنى الإرهاب ومنظّماته وما فعلت "الإرجون" و"الهاجانا" بالفلسطينيين.

وكانت إدارة المدرسة تنظم سنويا حملة لإعانتهم. ووالدي يعطي ما يستطيع اقتطاعه للتبرع، رغم أن حالتنا المادية لم تكن تسمح بفائض، ولكن الوالد رحمه الله الذي ولد عربيا في الهند وعانى آلام اليتم والحرمان والغربة وعاد لوطنه مثقفا وشاعرا وتربويا كان مؤمنا جدا بحق أي فرد أو مجموع إنساني في العدالة والحياة الكريمة، ولكن ليس باستلابها من غيره. عرفت لاحقا بعد ما كبرت أنه ألف مسرحية شعرية بعنوان "أرض الشهداء" عن مأساة فلسطين ودرّب طلاب مدرسته التطوعية التي أسّسها لتعليم البنين بتمثيلها على المسرح، وكان ذلك حدثاً تربوياً وفنياَ وأدبياَ يحدث لأول مرة في البحرين.

في سن الخامسة مررت بعدة تجارب تركت بصماتها في رؤيتي للعالم. توفي جدّي لأمي. وكدت أموت شخصياً مرّات متعددة ولكن الله شاء لحكمة ما أن أعيش؛ صدمتني سيارة سائقها انجليزي. وصعقني تيار الكهرباء حين أمسكت مصباحاً بيدٍ مبلولة. وكدت أغرق في بركة النزل أثناء رحلتنا صيفاً حين رتّب لنا الوالد رحلة سياحية إلى إيران في الإجازة؛ والدتي وشقيقتي مي ودعد وأنا بصحبة خالي وابنه وابنته. الرحلة ذاتها كانت تجربة حيوية. خلال بضعة أيام من السفر بحراً حتى وصلنا لأحد الموانئ سعدت ليلاً بمراقبة أسماك الدولفين وهي تقفز خارج الماء، ونهاراً بمشاهدة عملية تفريغ شحنة السفينة التجارية من اللوز الهندي. ثم استمرت جولتنا براً عبر عدة مدن من الساحل غرباً إلى الجبال شرقاً. وكان واضحا أن معظم أهل البلاد فقراء جدا. أما أخطر تجربة فكانت حين خرجنا نحن الصغار نتجوّل في السوق، وفجأة هجم علينا من الخلف صبيٌّ يحمل سلسلة حديدية ضرب بها ظهر أختي وهو يهتف "عربو عربو". صرخت مي متألمة وركضنا

كلنا نلاحقه لنمسكه، ولكنه اختفى في الزحمة. ولم يكن المعتدي يعرف عنا شيئاً سوى اللغة التي كنا نتكلم بها. كان ذاك أول درس لي أن اللغة تستخدم لتمييز إنتماء الأعداء والأصدقاء. أسرتي لعبت دورا كبيرا في تنشئتي واثقة من براءة "العالم" حولنا من النيات السيئة؛ حيث لم يكن حوارنا يركز على التحذير من سوء العالم وتربص أشراره بالضعفاء بقدر ما كان مركزا على أهمية تعلم التفكير والوصول لحلول ناجعة حين تطرأ مشاكل بحيث لا يتضرر أحد.

عدت إلى البحرين بمشاعر متناقضة عن "العالم".

قبل أن أدخل الإبتدائية تقدم أحد طلاب الوالد سابقا لخطبة أختي ليلى، ووافق الوالد، وغضب الأهل لكونه من خارج العائلة، وقاطعونا. جهزتها زميلاتها المعلمات للحفل وأعددن لي ولمي ملابس الوصيفات البيضاء ورافقننا لبيت العريس في أول حفل عرسٍ غير تقليدي.

بقيت في مدرسة عائشة أم المؤمنين القريبة من بيتنا في فريج الحطب حتى سن التاسعة وهي أجمل فترة في حياتي.

في السنوات الأولى كانت أغلب معلماتنا لبنانيات قديرات في تعليم اللغة العربية بالذات، تلا ذلك فلسطينيات قدمن من الأردن. ولا أذكر وجود عراقيات ولم تحضر المصريات والسوريات إلا لاحقا في المرحلة الإعدادية يدرّسن الرياضيات والعلوم الطبيعية، غالبا مرافقات لأزواجهن.

في البدء كان منهج الدراسة المعتمد هو المنهج المصري شاملاً تاريخ العالم والحضارة اليونانية والفرعونية وحساب النقود المصرية الجنيه والقرش والمليم، بينما العملة المتداولة وقتها محليا في كل الخليج كانت الروبية والآنة والبيزة الهندية. وحفظنا أسماء أسماك البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر والأسماك النيلية وليس سمك الخليج الذي تطبخه أمهاتنا. وحين تغيرت العملة لاحقاً إلى الدينار والفلس تم تأليف كتب محتوياتها مرتبطة بالواقع المحلي. كان لتعليم البنات

إدارة نسائية ومنهج خاص يشمل تدبير المنزل والطبخ والخياطة والتطريز، بينما للبنين مهارات مهنية كالنجارة.

اشترى والدي بيتا أكبر في منطقة الحورة لكنه بعيد عن العائلة الممتدة. وكانت تجربة محزنة افتقدت فيها أقاربنا خؤولة وعمومة وزملاء لعبي يوميا. ولكنني سرعان ما تأقلمت مع حي "العوضية"، و تعرفت على بنات جيراننا في طريقنا اليومي المشترك من وإلى المدرسة. ثم اكتشفت أن لبعضهن لغةً أخرى غير العربية يتكلمنها في منازلهن مع أهلهن والتقطت بعض مفرداتها. وعلمني سيد علي خباز الحي وعبد القادر صاحب الدكان أن أعدّ بالفارسية. وشدني أن لهجاتهم تختلف أيضا، فصديقاتي الجدد أمينة وفهيمة وجاراتنا الأخريات فاطمة وعائشة وحليمة كانت أمهاتهن يناديهن: أومنا وفهيماي وفاتما وآيشاي وهليما. وكان هناك أيضا أسرة بهائية راقية التعامل، وجيران هنود، هندوس ومسيحيون، وباكستانيون وبلوش. ولن أنسى محمد علي "مدو" مصلّح السياكل الذي كان يقوم بمهمة شراء احتياجات البيت مقابل مبلغ شهري، يردفني في جولة على دراجته الشخصية. وفي عدد من الكراجات الخالية قرب بيتنا، يسكن إيرانيون ارتحلوا للبحرين طلبا للرزق كعمال غير مهرة في المطار والشركات والسوق. وحين كنت أطل من السطح على ما وراء بيتنا أراهم يتجمعون في الحوش على حصر بسيطة يتسلون بالغناء بلغتهم بينما يعزف أحدهم ألحانا تفيض شجنا وحزنا وغربة.

تعلقت بـ"جمعة" حارس ملحق بيتنا أثناء تشييده، وكان يحدثني عن ابنته في وطنه عمان أنها بنفس عمري، وتدمع عيناه. بعد انتهاء المبنى وجدته يوما يتسوّل عند سور المقبرة. ولا زلت أشعر بالحزن.

وهكذا عرفت في تلك المرحلة المبكرة من حياتي أن العالم يضم فئات متعددة وبعض أتباعها موجودون في البحرين، منهم عرب مثلنا، وغير عرب كالإنجليز والفرس والهنود، لهم ديانات

غير ديننا يحتفلون بها ولغات خاصة بهم. وأن بعضنا، كوالدي، يتقن أكثر من لغة، ويفهم حوار أفلام السينما الهندية والغربية التي كان يصحبني إليها كل أسبوع. بل وله بينهم أصدقاء كثيرون.

لم يكن عالم الرجال غريبا علي حيث أرافق والدي إلى الرحلات ونشاطات النادي، وجلساته وحواراته مع زائريه من الأدباء.

اكتشفت أن الخروج لأحياء أخرى يحملني إلى عوالم مختلفة. وصرت أتسلل دون استئذان إلى حيث شاطئ البحر الذي أغرمت به وتعلمت أن أصغي لأمواجه بهدوء وأتأمل حركات أسماك "العومة" السردين الصغيرة وهي تتثنى برشاقة كراقصات سابحات. وأتأمل الأزهار والفراشات في دوائر الحدائق الصغيرة بتقاطعات الشوارع. وأعود سعيدة للبيت قبل المغرب.

كان والداي يؤمنان بتشجيع أي موهبة أو مهارة أو شغف نظهره. أمي علمتنا التطريز والحياكة، والوالد يحضر المجلات الثقافية كـ"فتاة الرافدين" لشقيقاتي، ولي مجلة "السندباد" حين بدأت أقرأ، وعلب الألوان حين بدأت أرسم، ولنفسه "الأديب" و"الآداب". ولشغفي بالقراءة كنت أقرأها جميعها. وحاولت في الصف الرابع إخراج مجلة مصورّة نكتبها أنا وزميلتي سارة بأيدينا. على أن شغفي الحقيقي عدا القراءة وكتابة الشعر سرّاً، كان التشييد والمعمار. كنت أحاول صنع بيوت عرائس من أي علب فارغة. وحين أحضر جليل من بيروت هدية "بيكو سَت" لتشييد نماذج مباني من قطع بلاستيك أصبحت لعبتي المفضلة. ولو أن هذا الشغف أُخذ جديا بالاعتبار والتشجيع وتفهمته شخصيا لربما اخترت أن أكون معمارية. أما مدرساتي فتوقعن أن أدرس الطب. على أنني اكتشفت سريعا أنني أفضّل تاريخ العالم والعلوم السياسية والاقتصاد والأدب وحتى الموسيقى. وظل للشعر مكانة خاصة فقرأت كل الدواوين في مكتبة الوالد وحفظت شعر زهير بن أبي سلمى وإيليا أبو ماضي عن ظهر قلب.

زارتنا خالة والدي من بغداد واثنان من أبنائها، ثم زرناهم في الصيف وتعرفت على بقية الأقارب والعراق الزاهر في الفترة الملكية. وبعد عودتنا بأشهر أغتيل الملك فيصل الثاني وأهله في انقلاب دموي أبكى أمي.

في سنتنا النهائية بالمرحلة الابتدائية، قرر مجلس التعليم إجراء تجربة لمقارنة تحصيل مدارس البنات بمدارس البنين عبر اختبارات نهائية موحدة لكل المدارس. وجاءت النتائج توضّح تفوّق الفتيات خاصة في اللغة والعلوم والرياضيات. وكنت الأولى عليهم جميعا وبفارق كبير؛ ربما لأن لولوة كانت مدرسة رياضيات ممتازة ومكتبة الوالد –آلاف الكتب بعدة لغات– أتاحت لي ولأخواتي وبتشجيع منه أن نقرأ، فكنت أقرأ يوميا وبشغف بعد أداء الواجبات المدرسية وقبل أن أخرج للعب مع جاراتي. ما ساعدني كثيرا حتى في المراحل الدراسية العليا لاحقا.

كافأتني مديرة المدرسة بكأس فضي نقش عليه اسمي. وأخذني الوالد لمجلس الشيخ سلمان بن حمد بن عيسى شيخ البحرين للسلام عليه. سألني عما يعلمونا في المدرسة، وحين عدّدت له المواد ومن بينها اللغتين العربية والإنجليزية، علّق مداعبا: "أجل يعلمونكم ترطنون؟".

بعد نجاح عبدالناصر وتأميم قناة السويس، اتفق البحرينيون سنة وشيعة على رفض حكم الإنجليز، وسجن قادة الحركة في جزيرة سانت هيلينا، فتصاعدت من السرّية إلى مظاهرات عامة واستُدعي الجيش البريطاني وفُرض حظر التجول. كانت والدتي تشرع باب المنزل ليحتمي الفتية الذين تلاحقهم الدوريات. حذرنا والدي من الخروج ولكني لحقت بمظاهرة يوم الجمعة إلى ساحة مسجد العيد حيث تجمهر آلاف الرجال. نجح الحراك وقرر الإنجليز الجلاء. وأجرت الأمم المتحدة استفتاء وضح تفضيل البحرينيين آل خليفة حكاما للبحرين، وعدم رغبتهم التبعية لإيران.

تخرجت أول خمس فتيات من الثانوية، فقرر مجلس التعليم ابتعاث ثلاث منهن، أحداهن أختي مي، للدراسة في بيروت مع المتخرجين حيث لم يكن هناك جامعة في البحرين.

وبدا أمر مواصلتي الدراسة في لبنان متوقعا طبيعيا.

في عام 1961 تزوجت شقيقاتي مي ولبنى ولولوة.

فاجأتني آلام أسفل بطني قبل الامتحانات النهائية للمرحلة الثانوية بشهر، شخصتها طبيبة عيادة المدارس أنها أعراض الزائدة الدودية وحولتني للمستشفى، وقرر الجراحون استئصالها بعملية مستعجلة، وطمأنوني أنني سأخرج بعد أربعة أيام. وبعد إجرائها اكتشفوا أن تشخيصهم كان خاطئا. وللأسف التهب الجرح، وأبقوني في المستشفى لمواصلة علاجه حيث اكتشفوا أن المضاد الحيوي الذي استخدموه لم يكن فعالا في حالتي. كاد الإلتهاب يقتلني وفاتتني الإمتحانات النهائية رغم أنني طلبت من إدارة التعليم أن أجريها في المستشفى فطمأنوني أنهم يعرفون مستوى قدراتي ولا داعي للقلق. ولكن مجلس التعليم قرر لاحقا أنه يمكنهم فقط منحي شهادة النجاح بناء على أدائي خلال العام، ولكن لن ابتعث للدراسة في الخارج حيث لم أجرِ الإمتحان النهائي.

وبكيت من القلب!

تطلّب عمل والدي السفر إلى لندن لتدقيق اتفاقيات استخراج النفط من مشيخات الخليج المتصالحة باللغتين العربية والإنجليزية والتأكد من تطابق النصين. وأقنعته والدتي باصطحابي معه للنقاهة.

في لندن وجدت عالما شاسعا. ولأن والدي لم يكن يستطيع أن يتركني وحدي كنت بمعيته أينما يذهب. قابلت شيوخ الخليج؛ شخبوط بن سلطان آل نهيان من أبو ظبي، وخليفة آل ثاني من قطر، وراشد بن سعيد آل مكتوم من دبي، والأخير طلب من والدي أن يرتب جولة ثقافية لابنه الفتى محمد بن راشد، وفعلا أخذنا الوالد في جولة رائعة، شملت زيارة برج لندن ومتاحفها وملاهي باترسي بارك ثم رحلة نهرية في الثيمز إلى مدينة أوكسفورد حيث تجولنا في الجامعة ومكتبتها وحدائقها الشهيرة، ورجعنا مساء إلى لندن بالقطار. وكانت تجربة تثقيفية متميزة تذكّرها وذكّرني بها الشيخ محمد بعد سنوات مديدة حين تقابلنا في مناسبات لمنتدى الإعلام بدبي، كان

أحدها ليهدي نخبة من المدعوين كتابه "رؤيتي". وعلّقت وقتها أن رؤيته بدأت بتوجيه والده الذي اقترح تلك الجولة فتعرف فيها على معالم ثقافية واقتصادية تمناها في وطنه، واستطاع أن يحققها، مثبتا صدق ثقة والده في قدراته. وهو يودعنا توقف الشيخ محمد عندي قائلا: "فكرت في ما قلت وأتفق معك في أهمية عمق التجربة ومدى الثقة". رحم الله والدينا.

عدنا للبحرين وقد تحسنت جسديا ونفسيا، وتقبلت ما حدث، وقررت أن أعيد السنة وبالإضافة أجري امتحانات الثانوية العامة البريطانية عن طريق المجلس الثقافي البريطاني. رحبوا واقترحوا أن أختار خمس مواد يمدوني بالكتب اللازمة لها لأدرسها في المنزل. وهكذا كان. أحضر المدرسة صباحا وأدرس المنهج البريطاني في المنزل مساء. وتقدمت للإمتحانات النهائية، ونجحت في الجانبين.

ولكن سوء الحظ لم يفارقني حيث قرر مجلس التعليم إيقاف إبتعاث الفتيات. ومرة أخرى بكيت وبحرقة. ثم أقنع والدي الجهات الرسمية أن تتولى إجراءات التحاقي بكلية بيروت حيث ابتعثت زميلاتي العام الماضي، ويتولى هو دفع التكاليف، مع إمكانية ضمي للبعثة بعد عام إن حقق أدائي مرتبة التفوق. سافرت إلى بيروت وأوصلني للكلية زميلان يدرسان في الجامعة. واعتمدت الكلية نتائج الثانوية البريطانية فقبلت في السنة الأولى مباشرة متجاوزة السنة التحضيرية، وبعد عام ضممت للبعثة. وظل أدائي الأكاديمي مميزا، وفوق ذلك مثلتُ دفعتي بمجلس إدارة الكلية، وانتخبتُ رئيسة لتحرير الكتاب السنوي. ونشرت قصائدي باللغتين في مجلتي الكلية والجامعة الأمريكية ولقيت ترحيبا من المختصين.

ضمت دفعتنا مائة وأربعين فتاة، من أسر ثرية، أو نلن بعثات من جهات مختلفة. وهناك لأول مرة عايشت التحيز والتصنيف المسبق الذي كان بعض الأساتذة يعمّمه على الفتيات؛ أنهن غير جادات والدراسة ليست اهتمامهن الأول. ما يصدق على بعضهن ولكن التعميم يظلم.

في الكلية بين الزميلات وهيئة التدريس التقيت بشتى الجنسيات واكتشفت المتشابه الإنساني والفروق السطحية. أذكر زميلات السكن الداخلي عراقيات عربا وكردا وخليجيات من البحرين والكويت والسعودية، ولا عمانيات أو إماراتيات أو قطريات.. وأذكر اللبنانيات والسوريات والمصريات والإيرانيات والأفريقيات والأوروبيات ومن الأمريكيتين.

كان صعبا علي أن أميز الفلسطينيات من الأردنيات، أغلبهن قدمن من الأردن، وقلة من الكويت، وبعضهن من القدس ببعثة من الأونروا مثل آربينيه صديقتي الأرمنية الكاثوليكية التي أغرم بها طالب أفغاني يدرس الهندسة في الجامعة الأمريكية، وكان يأتيها زائرا فتصر أن أصحبها. ترى ماذا حدث لهما وكلاهما فقد وطنه؟

في بيروت الستينات عايشت تقاطع الثقافات ومقاه لن أنساها؛ أحدها قبالة سينما السارولا أذهب إليه وحدي لأتناول فطور الأحد وأقرأ الجرائد بهدوء متظاهرة بالنضج. يوماً توقف عندي مجهول يسألني إن كنت أسمح أن يرسمني؟ لم أفهم أنها طريقة مهذبة لطلب التعارف ولم أعره اهتماما. وبعد نصف ساعة نسيته فيها عاد وقدم لي رسمة "بورتريه" بالحبر الأسود وعليها توقيعه. دسستها مع أوراقي الأخرى وغادرت. أريتها لزميلة غرفتي بالسكن الداخلي. وإذ تمعنت في التوقيع شهقت: رفيق شرف؟ من أشهر الرسامين اللبنانيين!. مقهى نجريسكو في الحمراء صاخب بجدل المثقفين، ومطعم شيبول السويسري في الروشة، ومطعم أليزار بشارع بليس أمام الجامعة الأمريكية حيث يجتمع الطلبة حول الفوزبول؛ ومطعم الأنكل سام قبال بوابتها الرئيسية حيث النادل يتذكر طلبي ويحضره مبتسما.

في بيروت وفي هذا الخليط المتعدد اللهجات والخلفيات والإنتماءات والجنسيات تهت أبحث عن الهوية العربية الملتبسة التفاصيل والتي أعرف أنها قدري. فوجئت يوم قالت لي زميلة لبنانية مارونية حين كلمتها باللهجة اللبنانية لتفهمني: "منيح إنك تحكي عربي!" وتناوبتني وقتها تداعيات

مشاعري بالأسئلة! عربي؟؟ وهل اللهجات الأخرى تعني انعدام الهوية العروبية؟ هل الأديان والمذاهب الأخرى تعني انعدام الإنتماء؟ هل العرقيات والتفاوتات الطبقية تعني عدم الإنسانية؟ وهل الإنتماءات الإيديولوجية والحزبية تعني عدم الولاء لوطن؟ ويوم حدثني في تاكسي السرفيس شاب لبناني مهجري عاد باحثا عن "لبنانية بنت عرب" ليتزوجها تعاطفت مع عمق حسه بالإنتماء.

في أجواء بيروت الملغمة بالسياسة والإيديولوجيا جاءتني زميلة عربية تستفسر عن سبب عدم حضوري اجتماعات الطلبة العرب مع الزملاء؟. وسألتها ما الذي تبحثه اجتماعاتكم؟ فقالت: تغيير الأنظمة العربية وتحرير الوطن وبيننا زملاء بحرينيون وخليجيون كثر. سألتها: هل تدرسين مثلي على حساب أهلك؟ قالت: لا بل على بعثة حكومية. قلت لها: ليست حكومة سيئة إذن! اهتمي بدراستك وتخرجي وعودي لوطنك لتغييره بالعمل على تطوير أنظمته في الداخل وليس بمعارضة ومعارك خارجية. قابلتها لاحقا وقد تخرجت وعادت لتتبوأ موقعا بناء.

هذا الإنشغال بالسياسة لم يكن يحدث في لبنان فقط بل في سوريا ومصر وربما العراق والمغرب. كان اهتمام بعضنا بالنداءات الإيديولوجية كالقومية والشيوعية والبعثية أكبر من اهتمامهم بالدراسة. انضم شباب وشابات لحركة تحرير ظفار وتوفي بعضهم في معارك دارت بين الجبهة والقوات العمانية يدعمها شاه إيران.

في 1963 أخذنا والدي أنا ودعد إلى الهند وهالني التفاوت الطبقي بين فقر مدقع وغنى فاحش. احتفت بنا أسر عربية مستقرة في بومباي كالبسام والقاضي، وسافرنا شمالا إلى سيملا وكشمير الجبليتين وعرفت عن مشكلة المسلمين والهنود التي لم تحل منذ قسم الإنجليز شبه القارة الهندية قبل الجلاء.

1965 زرنا سوريا ولمست تألق الثقافة الإسلامية العربية في الجامع الأموي، والنكهة الشعبية في سوق الحميدية.

في إجازة ربيع 1966 سافرت براً عبر سوريا الى الأردن وفلسطين مع الأساتذة أسامة ووليد وطريف الخالدي وزوجاتهم. وزرنا القدس الشرقية والبحر الميت ونزلنا إلى العقبة حيث تومض أضواء إيلات الإسرائيلية وراء الماء. وساءلت نفسي أي تخطيط جهنمي هذا الذي أصر أن يكون لإسرائيل منفذ على البحر الأحمر؟

سرعان ما ضمّت إسرائيل الضفة الغربية كلها. واستمر التمدد.

اخترت أطروحة تخرجي عن ذوي الإعاقة وتخرجت 1966 في التربية وتعليم اللغة لغير الناطقين بها وأضيف اسمي للوحة قائمة الشرف. وعدت للبحرين مدرّسة للغة الإنجليزية. ثم ابتعثت بعد عام إلى الجامعة الأمريكية لنيل الماجستير في إدارة المؤسسات التربوية العليا وتعرفت بزملاء جدد منهم عرب كثر أصبحوا لاحقا بعد التخرج قادة وصناع قرار. لاحظت أن شباباً غربيين يتقربون للطلبة الشرق أوسطيين بالذات مبدين رغبتهم في توطيد علاقات صداقة، وأحرجني الشك فيهم حيث اهتمامي بالتخطيط البعيد المدى كان يحذر حدسي لما يمكن أن تكون عليه دوافعهم. عرض علي أحدهم فرصة السفر للولايات المتحدة في برنامج خاص، واستشرت والدي فنصحني ألا أذهب توجسا من المشاعر السلبية هناك بسبب الحرب، واعتذرت.

حين اندلعت حرب أكتوبر مع إسرائيل تطوع بعض الزملاء للمشاركة. انتهت الحرب سريعا وفقدت فلسطين أراض أخرى، وسوريا الجولان.

نهاية العام زارنا زميلي السعودي عبدالله الدباغ مع والده وخطبني من والدي. وطلب مني تحضير أوراقي للدكتوراه وسافر للولايات المتحدة.

تخرجت 1968وعدت للبحرين وعينت في قسم التخطيط بوزارة التعليم. وكنت أول فتاة تعمل مباشرة مع الوزير بالمقر الرئيسي للوزارة وليس في مبنى السيدات. وكان علي أن أقنع الموظفين الآخرين بالتعامل معي كمتخصصة وليس كأنثى.

بنهاية إجازة الصيف حضر عبدالله من الولايات المتحدة لنتزوج، ولضيق الوقت اختزلنا الإحتفال بعشاء عائلي وبضعة أيام في بيروت ثم لندن في الطريق إلى جامعته بنورث كارولينا حيث قبلت ببرنامج الدكتوراه.

1971 عيّن والدي رئيسا للمجلس التأسيسي وأشرف على كتابة الدستور الأول للبحرين.

1970–1975 حصلت على العديد من جوائز التفوق منها

جائزة «بي بودي PEABODY» من جامعة نورث كارولينا UNC Chapel Hill

جائزة «آلتروزا ALTRUSA» الأمريكية

جائزة« بي إي أو PEO» للطالبات المتفوقات

تخرجت 1975. وقضينا بعدها عاما في جامعة برنستون. ثم توجهنا راجعين في أواخر أغسطس 1976 بعد رحلة شرقا إلى كاليفورنيا ومنها لهاواي وبالي واليابان وأستراليا حيث حضرنا مؤتمرا عالميا جيولوجيا.

جامعة البترول والمعادن حيث يعمل زوجي مخصصة للرجال فقط، ولذلك قدمت طلبا للعمل في جامعة الملك فيصل بالدمام. وصل طلبي إلى وزير التعليم العالي الشيخ حسن آل الشيخ فاقترح أن أمنح الجنسية السعودية. وعينني رئيسة لقسم البنات في الجامعة. إلا أني اكتشفت أنني حبلى، بعد امتناع حريص أثناء مرحلة الدراسة، وقررت أن الأفضل أن أطبق نظرياتي التربوية وأجعل الأولوية لمشروع الأسرة، فأجلت التوظف. وأنجبت مي 1977 وهاشم 1979 وقررت رعايتهما بنفسي حتى أدخلهما الروضة، وعملت بذات الوقت مع عدد من أساتذة جامعة البترول والمعادن لتأسيس حضانة وروضة نموذجية بالجامعة. ونشرت مقالات تربوية للتوعية بأهمية الانتباه لمراحل نضج الأطفال ومتطلباتها.

فاجأت والدتي جلطة دماغية وتوفيت رحمها الله.

1980جاءني عرض للعمل في أرامكو على بعد 7 دقائق من سكننا وقررت تجربته 6 أشهر. كان أول مشروعين توليتهما تأسيس مكتبة متنقلة تزور مدارس المناطق النائية، والإشراف على برنامج الخطة الفردية لتطوير الموظفين الجامعيين الجدد.

في مؤتمري الطاقة المتجددة بكينيا، ومؤتمر الأوابك بالرباط شاركت زملاء من وزارة البترول والثروة المعدنية في إعداد تقاريرهم. وبتوصية من الوزارة نقلت إلى إدارة التخطيط العام في الشركة كأول موظف سعودي بتعيين دائم. ولم تكن الإدارة الأمريكية قبلها تسمح بذلك. واستمرت التجربة حتى 2006 محملة بتحديات التعامل مع الإدارة الأمريكية، ثم السعودية.

سافرت وعبدالله عدة مرات حول العالم بما في ذلك كندا واستراليا والصين واليابان والقطب الجنوبي وجنوب أفريقيا.

رزقنا بنور ثم ليلى.

بدأت أنشر قصائدي في الملاحق الأدبية السعودية ورحب بها النقاد. عام 1988 قبلت بكتابة زاوية يومية لصحيفة الرياض ورفضت مبدأ احتكار الكاتب فكتبت أيضا في الحياة ومجلة الوسط ما جعلني مقروءة عالميا.

وتوالت مئات الدعوات للمشاركة في مؤتمرات بترولية وتربوية وتنموية ومهرجانات وأمسيات شعرية ومحاضرات ومقابلات تلفزيونية محليا وعربيا وخارجيا.

عاندت إغراءات الشللية والانضمام لتياري الغلو أو الحداثة، وأصررت على حرية التعبير شاعرة وكاتبة أو متحدثة في محاضرات متخصصة أو مناسبات عامة أو مقابلات إعلامية. حوصرت بعداوتهم.

1990 صدمني الغزو العراقي للكويت.

1993 أدرت أول نشاط ثقافي نسائي في مهرجان الجنادرية.

1995 نشرت ديواني "أين اتجاه الشجر؟".

1996 كرمت بملتقى الشاعرات العربيات مهرجان سوسة الدولي.

1997 كرمت في مهرجان الشعر الخليجي الثالث في البحرين.

1998نشرت ديواني "امرأة دون اسم!".

تخرجت مي من هارفارد، ثم دكتوراه من أكسفورد في علم النفس، وهاشم مهندسا من برينستون وماجستير من هارفارد. ونور من هارفارد، وليلى من جولدسميث.

2001 شاركت بمهرجان المتنبي الشعري العالمي زيورخ/سويسرا

وتيتمت ثانية بوفاة شقيقتي الكبرى ليلى رحمها الله.

صدمني تفجير مركز التجارة في نيويورك حيث قبلها بعام كانت ابنتي مي تتدرب فيه.

2002 كنت ضمن 14 مواطنة موظفات بمجالات شتى دعانا ولي العهد الأمير عبد الله بن عبد العزيز للقاء معه، مستوضحا أوضاع المرأة العاملة. يومها شب حريق بمدرسة للبنات بمكة وتوفيت طالبات ومعلمات لم يسمح لهن بالخروج. وصدر قرار ولي العهد بإلغاء الرئاسة العامة لتعليم البنات وضم مدارسهن للتعليم العام.

2003 توفي والدي رحمه الله.

2006 كرمني الوجيه عبد المقصود خوجة في مؤسسة الإثنينية.

2008 توفيت شقيقتي لولوة رحمها الله.

2010 أدرت أول نشاط نسائي بمهرجان الجنادرية ودعاني الشيخ عبدالعزيز التويجري لمقابلته شخصيا.

2011 كرمت بمهرجان الجنادرية.

2012 كرمت بجائزة معهد الشرق الأوسط للمرأة القيادية.

عام 2013 تشرفت بقرار الملك تكليفي ضمن أول 30 سيدة سعودية لعضوية مجلس الشورى. تجربة مشحونة بمسؤولية المواطنة الفاعلة زرت فيها البرلمان الأوروبي وعدداً من البلدان، ورافقت في بعضها رئيس المجلس.

2014 كرمتني إمارة المنطقة الشرقية بالدمام.

وضعت بقائمة أرابين بيزنس لأقوى 30 امرأة سعودية.

يناير 2015 توفي الملك عبدالله بن عبدالعزيز وبعده بأسبوع شقيقي د. جليل رحمهما الله. أحسست أجنحتي تكسرت.

دعيت لورشة العمل التي أعلن فيها الأمير محمد بن سلمان رؤيته لبرنامج التحول، وحاورت وزير العدل حول معاناة المرأة في التعامل مع مؤسسات القضاء.

2016 كرمتني وزارة الثقافة بمركز الملك فهد الثقافي بالرياض.

دعيت لمرافقة ولي ولي العهد في رحلته للولايات المتحدة وفرنسا ضمن وفد متخصص.

2017 انتهت عضويتي بمجلس الشورى.

مارس 2018 كرمتني مؤسسة البابطين الثقافية في الكويت بإطلاق اسمي والدكتورة سعاد الصباح على مهرجانها الشعري 11.

أبريل 2018 كرّمت في مهرجان فاس للشعر بإطلاق اسمي على تلك الدورة.

ودعت الرياض للظهران.

2020 هاجم العالم فيروس كوفيد19 مخترقا الحدود واللغات

والأديان.

ومازال في العمر مدى للتساؤل عن معنى الانتماء.

شيء عن التجربة الشعرية

بقلم : د. حسن الأمراني

على سبيل الاستهلال:

قديما أشار ابن سلام الجمحي إلى ما للبيئة من أثر في قوة الشعر وضعفه، وكثرته وقلته، وبالرغم من أن بعض المناهج النقدية الحديثة صارت تضرب صفحاً عن أثر البيئة في الأدب، إلا أن الواقع أنه من الصعب تجاوز هذا العنصر في تشكيل الفنون والآداب، ونحن عندما نريد أن نتقرى تشكل ما يسمى (ظاهرة الشعر السبعيني) في المغرب نزعم أن هناك بيئة خاصة أسهمت بشكل جلي في بلورة تلك الظاهرة، وليس من شأن هذه السطور أن تبحث ذلك بحثاً علمياً أكاديمياً، وإنما هي انطباعات شاعر هو بعض من تلك الظاهرة.

السعي حبواً:

كان اهتمامي الشعري قد بدأ قبل المرحلة الجامعية، وكان قد استهواني الشعر الجاهلي بخاصة، والشعر القديم بعامة، حتى لقد رحت أعارض بعض أعلام ذلك الشعر، من أمثال (لبيد) الذي سعيت إلى معارضة معلقته، وأنا تلميذ بالثانوي، بقصيدة جعلت مطلعها:

قف حي دار حبيبة ورمامها واردد عليها قولها وسلامها

ولكن شغفي بالقديم لم يحجب عني بعض التجارب الحديثة، ولاسيما الشعر المهجري، حتى إني استعرت من (إيليا أبي ماضي) اسم محبوبته سلمى، فرحت أتغزل فيما أنظم بسلمى، وما من سلمى ولا لبنى.

ثم استهواني الشعر الفرنسي، من (رونسار ودوبيليه) حتى (فرلين وبودلير)، وقد قال المتنبي: (ولا ودّ بلا سبب)، فكان سبب تعلقي بالشعر الفرنسي أني انتقلت للدراسة بالثانوي إلى مدرسة النهضة بمدينة مكناس، حيث لم يكن آنذاك في (وجدة) السلك الثانوي المعرب، فتولى تدريسنا الشعر الفرنسي أستاذ فرنسي، واسمه (شاربونييه)، وحبّب إلينا ذلك الشعر بطريقته الساحرة. ومن حسن الأقدار أن عدداً من التلاميذ الزملاء بمدرسة النهضة صار لهم شأن في باب الأدب، أذكر منهم إدريس الزمراني– رحمه الله– وكان من أنشط التلاميذ بما يلقي من محاضرات، ويشارك فيه من ندوات، وعبد الرحمن بن زيدان، الناقد المسرحي، وعبد العالي بوطيب، الناقد الروائي، ... وقد صار بي ظمأ إلى مزيد من الشعر، وهو ما تحقق يوم التحقت بالجامعة، بظهر المهراز، بفاس.

مدينة الشعر:

أحدثت الجامعة في نفسي تحولاً كبيراً، هيأته مجموعة من الأسباب.

قبل انتقالي إلى الجامعة كان اطلاعي على الشعر الجديد محدوداً، فالسياب مثلاً لم أكن أعرف له غير (أنشودة المطر)، وهي القصيدة التي كان أستاذنا نجيب البهبيتي – رحمه الله –معجباً بها، رغم عدم قبوله الشعر الحر، وقد راعتني الصورة الجميلة التي يفتتح بها القصيدة:

عيناك غابتا نخيل ساعة السحر

أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر

لقد محا بتصويره هذا كل الصور البلاغية الكلاسيكية التي قيلت في العينين، فلا غزال، ولا جؤذر، ولا مها، بل هما (غابتا نخيل).

كنا قد اعتدنا في أسماء الدواوين الشعرية من وقت مبكر على عناوين رومانسية، مفردة أو مركبة، يستوي في ذلك الشعر العمودي والحر، مثل عناوين أحمد الصافي النجفي: (الشلال)، (التيار)، (الأمواج)، أو عناوين مثل (أغاني الكوخ)، أو (أغاني الحياة)، أو (الملاح التائه)، أو (أفاعي الفردوس)، أو حتى ديوان البياتي الأول: (ملائكة وشياطين)، ففاجأنا السياب بعناوينه الجاذبة: (شناشيل ابنة الجلبي)، (المعبد الغريق)، (منزل الأقنان)، ...

سحر العنوان بدأ يبرز في بعض دواوين الشعراء الشباب عندنا، وقد طالما وقفنا– أنا وبعض زملائي– عند ديوان أحمد صبري: (أهداني خوخة ومات)، ... لقد ثار على المعهود من العناوين، وزاد في سحر العنوان أنه كتب بخط تشكيلي جميل.

كان بنا، نحن طلبة الجامعة آنذاك، نهمٌ متواصل إلى الشعر، ... كنا نتسابق إلى مكتبات (الطالعة الكبرى) التي كانت تزودنا بكل جديد، ... وذات يوم وقفت عند مكتبة الحاج القادري، ولفت نظري عنوان: (زوبعة الدهور)، طلبته فقال لي البائع: (إنه ليس ديوان شعر)، ... قلت: أعرف، ... مارون عبود ناقد، وليس شاعراً، ... لم أكن قد قرأت يومها لمارون عبود غير كتابه: (على الطائر)، الذي اشتريته من سوق شعبي بمدينة سلا بثمن زهيد، فرأيت فيه ناقداً متفرداً، فحرصت على كتبه بعد ذلك، ... وسؤال البائع دلّ على أن هناك من طلب الكتاب ظناً منه أنه ديوان شعر، ... والعنوان مغرٍ وموهم، وهو في الحقيقة دراسة عن أبي العلاء.

كان جيلي من الشعراء جيلاً شعرياً يتيماً، لم تكن له أبوّة، حيث لم يكن شعراء العقد الستيني ـ بالمغرب ـ قد نشروا شيئاً من دواوينهم إلا قليلاً، فلم نكن نقرأ لهم إلا ما قد تصل إليه أيدينا بين الحين والحين من المجلات أو الجرائد، وقليل هم أولئك الذين كانوا يظفرون من إنتاجهم بشيء جلل، ولذلك كان احتفاؤنا بشعراء المشرق العربي عظيماً، وإن التحاقنا بالجامعة عدّل

كل شيء، وحظي هذا الجيل بما جعل الشعر السبعيني يتشكل على أعين شعراء ذوي خبرة ومكانة.

لقد كانت (ظهر المهراز)، في تلك الفترة، وهو الحي الذي يضم الجامعة، أعني أواخر العقدين السابع والثامن من القرن الماضي (أو كما صار يقال بعد ذلك: الستينات والسبعينات)، مدينة الشعر بحق، فقد كان معظم الأساتذة شعراء، المغاربة منهم والمشارقة على السواء، ومنهم أحمد المجاطي، ومحمد الخمار الكنوني، ومالكة العاصمي، وإبراهيم السولامي، ومحمد السرغيني، وأمجد الطرابلسي، وصالح الأشتر، ... كما تشكلت أسماء شعرية جديدة في تلك الفترة، يمثلها الطلبة الشعراء، ويصعب تذكرهم جميعاً، ولكنني أذكر بعضاً منهم، مثل عنيبة محمد الحمري، وأحمد مفدي، وعبد العلي الودغيري، وعبد الله راجع، وعلال الحجام، ومحمد بنيس، وإدريس الملياني، وحسن الغرفي، وأحمد بلبداوي، ومصطفى الزباخ، وسواهم، ...

لقد كان للمنظمة الطلابية (الاتحاد الوطني لطلبة المغرب) دور مشهود في ترسيخ القيم الشعرية من خلال الأمسيات التي كانت تعقدها، ويشارك فيها الأساتذة والطلبة على السواء، مما كان يعد تشجيعاً كبيراً للشعراء الناشئين، ... وما تزال حتى الآن نبرات بعض الأصوات الشعرية ترن في وجداني، ... هذا بالإضافة إلى أن بعض الأماكن في الجامعة، مثل ساحة (هوشي منه) أو (قاعة عبد الكريم الخطابي)، كانت مجالات لملصقات شعرية متنوعة، وكان شعراء الأرض المحتلة ـ الذين برزوا في تلك الفترة كظاهرة شعرية جديدة ـ يحتلون موقعاً متميزاً في تلك الملصقات الشعرية، ومنهم توفيق زياد، ومحمود درويش، وسميح القاسم، وفدوى طوقان، وسالم جبران، وأبو سلمى "عبد الكريم الكرمي".

قبل ولوجي الجامعة كان قد التحق الشاعر محمد بنعمارة مدرّساً بالمدرسة التي كنت بها تلميذاً بوجدة، ... كان قد رجع من كلية الآداب بفاس وهو متحمس للشعر، فألقى يوماً محاضرة

عن الشعر المغربي، وجاء على ذكر ديوان عنيبة الحمري: (الحب مهزلة القرون)، ... كان العنوان مثيراً، ... وقرأ علينا بعضاً من شعره، منها قصيدة يرد فيها على نزار قباني في قصيدته المشهورة (الرسم بالكلمات)، وقد أنهى نزار قصيدته بهذا المقطع:

كل الدروب أمامنا مسدودة وخلاصنا في الرسم بالكلمات

فأنهى عنيبة الحمري قصيدته بهذا المقطع:

كل القصائد في الغرام هزيلة والشعر كان لأكدح الطبقات

وهذا البيت يكشف عن التوجه العام للشعر المغربي، حيث ساد الالتزام بالواقعية الاشتراكية بخاصة.

ويوم انتسابي للجامعة كان عنيبة الحمري لم يغادرها بعد، وفي إحدى الأمسيات قرأ قصيدته هذه، فرد عليه زميله مصطفى الزباخ، فيما بعد، بقصيدة نشرها في ديوانه: (أصنام الشر) أنهاها بقوله:

كل القصائد في الهجاء هزيلة والشعر كان لأنظف الكلمات

كان الطلبة قد بدأوا في نشر أعمالهم على حسابهم الخاص، ولم تكن هناك دار نشر تتبنى تجاربهم، وكان التوزيع معضلة، لذلك كان الطلبة أنفسهم يتطوعون بتوزيع ما ينشره زملاؤهم، ... كان من الدواوين التي كانت توزع في الجامعة آنذاك ديوان مشترك عنوانه: (أشعار للناس الطيبين)، لثلاثة من الشعراء، وهم إدريس الملياني، وأحمد هناوي، والمسكيني الصغير، وهذا العمل المشترك هو ما شجع شعراء (البريد يصل غداً)، وهم حسن الأمراني، والطاهر دحاني، ومحمد علي الرباوي، على الاستفادة من تلك التجربة في النشر. وأنا أذكر الشاعر أحمد بلبداوي واقفاً في بعض شوارع سلا، وهو يعرض على المارة ديوان زميله الحمري: (الحب مهزلة القرون).

وكان من حسنات المنظمة الطلابية أن تبنت نشر بعض دواوين الطلبة، حين أقدمت على طبع ديوان محمد بنيس (وجه متوهج عبر امتداد الزمن)، وكان قد نشر قبيل ذلك ديوانه الأول: (ما قبل الكلام)، وقد عرضتُ آنذاك عـلى الزميل عبد الصمد بلكبير، وكان من القيادات الطلابية، طبع ديوان لي، فطلب مني أن أقدم نسخة منه إلى المنظمة لتنظر فيه، ولكنني لم أقْدم على تقديم الديوان قط، ... وتلك سجية الكسل التي طالما لازمتني، فقد عرض الأستاذ إدريس الجائي على مدير دار عويدات ببيروت نشر ديوان لي، فرحب بذلك، وطلب مني موافاته بالديوان، ولكنني سوّفت إلى أن تعرضت بيروت لما تعرضت له من الحرب الأهلية، وهاجرت الدار إلى باريس، وانتهى الأمر.

إذا كنت قد قلت إن جيل السبعينات نشأ يتيماً شعرياً، لا تواصل بينه وبين شعراء الحقبة السابقة، فإن المرحلة الجامعية لهذا الجيل قد أتاحت التواصل المباشر مع عدد من شعراء العقد السابق، بحكم كونهم أساتذة من جهة، وبحكم مشاركاتهم في الأنشطة الأدبية التي كانت تعقدها الحركة الطلابية من جهة أخرى. لقد كان بعض أولئك الأساتذة يدرّسنا الأدب القديم، وبعضهم يدرّس الأدب الحديث، وكان لكل أثره. فأما عن الأدب القديم فقد اكتشفنا– في تلك الفترة– تيارات شعرية جديدة لم تكن مألوفة لدينا، وقد كان اكتشاف الشعر السياسي القديم، ولاسيما في العصر الأموي، بتوجهاته المتعددة، فتحاً عظيماً، لقد أنقذنا ذلك الاكتشاف من قبضة الأساطير اليونانية والآشورية وغيرها، مما كان مهيمناً على الشعراء الرواد في المشرق، وجعلنا أكثر ارتباطا بالذات.

وهكذا بدأت تظهر للشعراء الشباب قصائد تستلهم تراثنا العربي، فقد كتب عبد الله راجع، رحمه الله تعالى، ـ على سبيل المثال ـ قصيدته: (مشاغل عبد الرحمن بن الأشعث) في تلك الفترة، وكتب صاحب هذه السطور قصيدة (الوقوف على أعتاب قطري بن الفجاءة)، ثم توجه بعض

الشعراء إلى ما هو أكثر خصوصية، وهو العناية بالتراث المغربي، مثلما صنع أحمد مفدي حين استثمر قصة شجرة سجلماسة الخضراء التي كانت تقول "بالعامية طبعاً": (هذا عام السكوت، من قال الحق يموت). أما تراثنا القريب العهد منا فقد طالما استثمره شعراؤنا، حيث كتب أكثر من شاعر، على سبيل المثال، عن المجاهد ابن عبد الكريم الخطابي ومعركة أنوال المجيدة التي كبد فيها المجاهدون في عام 1921 بقيادة الخطابي الاستعمار الإسباني هزائم منكرة أقضّت مضجع الاستعمار الفرنسي أيضاً، مما جعل الدولتين الاستعماريتين تتعاونان معا لكسر شوكة المجاهدين، فاعتقل الأمير، ونفي إلى جزيرة "لارينيون"، ومنها استطاع مناصروه تهريبه إلى مصر حيث قضى بقية حياته. كما حضرت (عيشة قنديشة) في الشعر المغربي، وهي المرأة المجاهدة التي أقضّت مضاجع الاستعمار البرتغالي، ولعل اسمها محرّف عن صيغة من الصيغتين: إما (الكونتيسة) وإما (القديسة)، ويكون الأخذ بالاحتمال الأول دالاً على أن البرتغال هم الذين أطلقوا عليها هذا الاسم، إعجاباً ببطولتها.

أما أثر الأدب الحديث فلم يكن أقل حضوراً، وقد درسنا ضمن ما درسناه الشعر المهجري الذي كان به أثر كبير على شعراء الجيل.

العلم الثقافي:

قد نعيش لحظات، أو نشهد أموراً تلقي عليها العادة حجاب الألفة فتحجب عنا بهاءها، حتى إذا استرجعنا لحظات تشكلها الأولى استعدنا ما فيها من دهشة وعجب وجدّة وطرافة، وهكذا فنحن ننظر اليوم إلى الملاحق الثقافية بصفة عامة، وإلى العلم الثقافي بخاصة، كشيء ألفناه ففترت في نفوسنا جدّته، وبليت طرافته، وإن كان لم يفقد أهميته، وأنا أذكر كيف أنه، ذات يوم من أيام عام 1969، صدر (العلم الثقافي)، فكان ذلك حدثاً مشهوداً له ما بعده، فقد كان أهل الأدب، ولاسيما الشعراء، يبحثون عن منبر قادر على أن يتابع الحركة الثقافية

الزاخرة، حيث لم تعد المجلات الشهرية أو الفصلية قادرة على استيعاب كل ما يجري في الساحة الثقافية، فلما صدر (العلم الثقافي) صرنا نتلقفه كل أسبوع بلهفة، وزاد من أهميته أنه كان يقف على ساحته الخضراء شعراء المغرب آنذاك على اختلاف أجيالهم، وتنوع أنماط الكتابة الشعرية عندهم، فكان محمد الحلوي، الكلاسيكي، يجاور الشعراء الحداثيين من أمثال محمد السرغيني أو أحمد المجاطي أو مالكة العاصمي من الأساتذة، أو أحمد مفدي أو عبد الله راجع أو عبد العلي الودغيري أو حسن الغرفي من الطلبة، وكان الاحتفاء بكل عدد جديد عظيماً، وإني ما أزال أذكر عبد الله راجع والفرحة تملأ عينيه، وهو يحمل (العلم الثقافي) الذي نشر له قصيدة جديدة، أظنها : (مشاغل عبد الرحمن بن الأشعث)، ولم يكن غيره من الشعراء الشباب أقل فرحاً وانتشاء منه كلما نشر لهم شيء جديد.

أما أنا فقد تهيبت النشر في العلم الثقافي زمناً طويلاً، بالرغم من أنني كنت قد نشرت بعضاً من شعري في منابر يعتد بها في المشرق والمغرب، منها مجلة (الفكر) التونسية، ومجلة (أقلام) المغربية، التي كان أستاذي أحمد المعداوي – رحمه الله– عضواً في هيئتها التحريرية، وكانت أول قصيدة نشرتها في (أقلام) هي (الدخول إلى أزمنة الحزن)، وكم كانت فرحتي غامرة بهذه الخطوة، ولاسيما أن العدد نفسه حمل قصيدة لشاعر كبير هو عبد الوهاب البياتي، وكنت أعدّ بحثي للتخرجّ بإشراف الأستاذ المعداوي، وهو لا يعلم أنني ممن يكتب الشعر، فلما جلست أمامه لمناقشة بحثي بادرني قائلاً: أأنت من يكتب الشعر؟ قلت: نعم، ثم أردفت: هل يمكنني مواصلة النشر معكم؟ فأجاب بالإيجاب، فشجّعني ذلك على أن أنشر قصيدتي: (يوميات مهاجر في زمن الرعب والنبوءة) التي كنت أعتبرها تحولاً في مسيرتي الشعرية. وقد نشرت في منابر شرقية، مثل (الكاتب) المصرية و(الطليعة الأدبية) العراقية، ومع ذلك بقيت متهيباً الإقبال على النشر في (العلم الثقافي) زمناً. ثم نفضت عني غبار الهيبة يوماً فأرسلت قصيدة عن (غيلان الدمشقي)، فإذا بها تنشر، ولكن ليس في (العلم الثقافي)، بل في زاوية تسمى (أصوات) كانت

تخصصها الجريدة للناشئين، وأثر ذلك في نفسي، إذ كيف أنتقل من منابر ثقافية يعتد بها إلى صفحة للناشئين؟ ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل مارست الجريدة نوعاً من الرقابة على النص، وذلك باستبدال كلمة بكلمة، فتحولت عبارة: (خاوية على عروشها)، وهي عبارة قرآنية خالصة، إلى: (خاوية على أعراشها). وتبينت آنذاك كم يمكن أن تجني الرقابة على النص. وقد لقيني الأستاذ الشاعر الطاهر دحاني– رحمه الله– فاستنكر نشري في زاوية (أصوات) وقال بلهجته الساخرة المعهودة: ماذا تفعل أنت هنا؟ مكانك في (العلم الثقافي)، أما هذه الزاوية فهي لي ولأمثالي، وكان ذلك تواضعاً منه، ولكنها روح الفكاهة التي لم تكن تفارقه، وقد ظل هو (مستأثراً) بزاويته زمناً.

وقد لقيت الأستاذ عبد الجبار السحيمي– رحمه الله– وقال بخلقه الدمث المعهود: قل لصديقك الربّاوي نحن لا ننشر مثل هذا الشعر، وذكر نصاً بعثه الربّاوي إلى الجريدة، وكان قد قرأه عليّ، واستنكرت أنا أيضاً من النص لفظة نابية، هي اللفظة نفسها التي استنكرها الأستاذ عبد الجبار، وقد عدت من جديد بعد ذلك إلى الإحجام عن موافاة (العلم الثقافي) بشيء، ولم أتحرر من هذا الموقف إلا بعد لأي، فقد ظهرت في المؤتمر الخامس لاتحاد كتاب المغرب قصيدتي: (بجماليون) في مكان بارز من (العلم الثقافي)، وكان لها ما كان من تداعيات، لا يتسع المقام لشرحها.

وذات يوم أرسلت إلى الأستاذ السّحيمي قصيدة عنوانها (من حراء) لنشرها (بالعلم الثقافي)، فنشرها بملحق للجريدة كان يسمى (الفكر الإسلامي)، وقد عاتبته على ذلك قائلاً: "إما تنشر في الملحق الذي طلبت النشر فيه، وإما ألا تنشرها أصلاً"، فقبل عتابي بصدر رحب، واعتذر لي اعتذاراً جميلاً– رحمه الله– فقد كان رجلاً واسع الصدر.

ومهما يكن فإنه يمكن أن يقال إن (العلم الثقافي) شكّل مدرسة ثقافية متميزة، دون أن يكون هذا غضاً من الملاحق الثقافية الأخرى التي صدرت عن جرائدنا الوطنية، وقد نشرتُ فيها

جميعها، حتى إن الأستاذ الشاعر أحمد الطريبق، وقد قرأ قصيدة لي في الملحق الثقافي لجريدة الاتحاد الاشتراكي، قال لي مبتسماً: هذه دغدغة إيديولوجية!

عبث الطلبة:

شهدت الكلية يوماً جلسة شعرية متميزة، أحياها ثلّة من شعراء دولة عربية شقيقة، وكان الوفد يضم بعض الشعراء المعروفين لكثرة نشرهم في مجلات مشرقية، ومنها مجلة (العربي)، وكان المدرّج محتشداً، يتقدم الحضور أساتذة الكلية، وقد افتتح أحد الشعراء مشاركته بقوله: زرت مصطافاً متفرداً في سوريا اسمه (الزبداني)، فلما نزلت بأرضكم، وشاهدت جمال بلادكم أحسست أن بلادكم كلها زبداني! وقد تنوّعت موضوعات القصائد بين الوجدانية والقومية، وكان أستاذنا الدكتور عبد السلام الهراس يتدخل أحياناً في أثناء الإنشاد، من أجل أن يقترح صياغة أخرى لما يسمع، من باب الدّعابة، وهو بالمناسبة من الأساتذة الذين كانت لهم مشاركات شعرية، وكان مما سمعنا منه من بعض شعره قصيدة منها:

يمين يسار، يسار يمين فإما الجحيم وإما سقر

ولما سمع شاعراً من الضيوف يقول: (قتيلة عشق لو رآها معمّر)، قال على سبيل الدعابة: (لو رآها معممٌ).

وفي اليوم التالي ظهرت أرجوزة نظمها بعض الطلبة، تصور الحفل تصويراً ساخراً، ومنها:

يا عجبا، يا عجبا، يا عجبا أفي الـ ..... شُـعَـرا وأدبا

سمعهم أستاذنا البهبـــــيتي فقال: إيتِ بعصاي إيـــتِ!

ودخل ابن عبد الله المجلسا فامتلأت نفسه غمّا وأســـــى

يقول لما سمع اللحن الكثيـر: أشعراء أم بغـــالٌ وحميـــــر

ولم يكن هذا جداً، وإنما كان من (شقاوة) الطلاب كما يقال! وإلا فقد استمتعنا في تلك الجلسة الشعرية بكثير من الشعر البديع والرفيع لشعراء كبار.

الاختيار:

ذكرت ما كان (للعلم الثقافي)، ثم للملاحق الثقافية الأخرى من أثر في تحريك الحياة الثقافية بصفة عامة، وفي تطوير القصيدة المغربية بصفة خاصة، ولكن حاجة راحت تتولد في النفوس مبعثها الشعور بأن الشعراء صاروا يصنفون لا تبعاً لما يتصفون به من إبداع، بل تبعاً للمنبر الذي ينشرون فيه، وقد قال لي صراحة المشرف على ملحق ثقافي في المؤتمر الخامس لاتحاد الكتاب: "كيف تبعث إلينا للنشر وأنت تنشر في منبر آخر؟"، وكأني أتيت كبيرة بالنشر في منابر متعددة.

لقد سبق لي أن قلت إنني كنت أنشر في كل المنابر والملاحق بغض النظر عن توجهاتها الفكرية والإيديولوجية، وقد لقيني يوماً الشاعر حسن الغرفي فشكا لي الوضع قائلاً: "يبدو أنهم لن يطمئنوا إلى أن ينشروا لنا دون تحفّظ إلا إذا صارت أسماؤنا مسبوقة بحرف دال صغير..".

كان هذا الأسى الذي عبّر عنه الغرفي يعتلج في صدور قوم آخرين ممن أحس بالحاجة إلى منبر ثقافي يتعالى فوق الخلافات الفكرية، ويراعي ما في النصوص من إبداع أولاً وآخراً. ولقد نهض بمشروع هذه الفكرة، وأخرجها من الممكن إلى الكائن، ومن القوة إلى الفعل الأستاذة الشاعرة مالكة العاصمي، حين أقدمت هي وبعض الأدباء الشباب على إصدار جريدة أدبية خالصة أسموها (الاختيار)، وسرعان ما التف حول الجريدة كوكبة من الشعراء الذين جمعتهم آصرة الإبداع، إذ صاروا يجتمعون في حديقة (الاختيار)، ويقطفون من أزهارها، ويستمتعون ببهجتها، ولقد كانت الجريدة تتمتع بشجاعة فائقة، وتحرص على أمانة النصوص، فتنشرها دون أي تدخل بالحذف أو التعديل، وتتعامل مع الرقيب الرسمي بذكاء.

لقد نشرت الجريدة يوماً نصاً للشاعر الراحل محمد الحبيب الفرقاني، وكان عنوانه: "أيها الزائر الحرم النبوي" أو شيئا قريباً منه، ولكن الرقابة اعترضت على نشر هذا النص، وأرادت حجز العدد، فاقترحت الجريدة حلاً آخر، عبرت من خلاله عن احتجاجها على الرقيب بطريقة حضارية، وهي أنها (قصت) الصفحتين اللتين تضمنتا النص، ويبدو أنه كان طويلاً، وآثرت أن ينزل العدد إلى الأسواق بذلك الشكل، فحمد القراء للجريدة هذا الصنيع، وكم كنت أود أن أقرأ ذلك النص الممنوع في الدواوين التي نشرها الشاعر – رحمه الله– ولكن النص لم يظهر قطّ.

وفي (الاختيار) تعرف القرّاء إلى شعراء ممن لم يكونوا قد التحقوا بالجامعة، ومنهم الشاعر محمد علي الربّاوي الذي كان قد بدأ ينشر في بعض المنابر الشرقية، من (الكاتب) إلى (الزهور)، وهو الملحق الذي كان يصدر عن مجلة (الهلال) المصرية، وكان يشرف عليه الشاعر صالح جودت، إلى (الثقافة الأسبوعية). وهذا الالتفات إلى النشر في منابر مشرقية جعل الأستاذ عبد الجبار السحيمي ينوّه به في بعض أعداد (العلم الثقافي)، وذلك قبل أن يشرع الربّاوي في النشر بهذا الملحق.

لقد كان مثَلُ صدور جريدة (الاختيار) كمثل توقد سراج في طريق معتم، وكان توقفها إيذاناً بانطفاء ذلك السراج.

وفي عام 1974 نفضت عن نفسي التهيّب والتّردّد، فأقدمت على نشر ديواني الأول: "الحزن يزهر مرتين"، وهو الذي وسم تجربتي الشعرية، وكتبت عنه أقلام كثيرة، في حينه وبعد ذلك، وإلى عهد قريب جداً تناوله بالدراسة الناقد الدكتور مصطفى الشّاوي، كما أن الدكتور أحمد شرّاك جعل عنوان كلمته التي شارك بها في التكريم الذي أقامه للشاعر المكتب المركزي لاتحاد كتاب المغرب: "حسن يزهر مرتين!!".

سيرة نخلة العراق

بقلم: الشاعرة ساجدة الموسوي

الفصل الأول من سيرتي

" شمعةٌ في إثرِ شمعةٍ ينقضي العمرُ ولا يبقى سوى الذكريات التي تحملُ ضوءَ الشّمعِ ودمعَهُ ورائحةَ المكان ..." ساجدة الموسوي

الطفولة الأولى ... وهديل اليمام

أقدم مشهد حفظته الذاكرة وعمري بحدود الرابعة حين أيقظتني أمّي من غفوتي وباستعجال (قومي .. قومي بغداد ستغرق هيا بسرعة) قمت والنعاس مايزال مهيمناُ عليَّ فوجدت مجموعة أغراض محزومة فرميت جسدي عليها، وما هي إلا دقائق حملني فيها أبي ورحل كل من في البيت إلى حيٍّ آخر من أحياء بغداد بعيداً عن الفيضان الذي غطّى في حينها مساحات شاسعة من المدينة (عام 1954م).

ورغم وجود سدّة ناظم باشا شرق بغداد بجانب الرصافة، وهي عبارة عن سدّة ترابية تمتد من شمال بغداد إلى جنوبها بناها الوالي التركي ناظم باشا أيام الحكم العثماني في العراق (وسأعود للحديث عنها فيما بعد) إلّا أن غضب نهر دجله يشبه غضب العراقيّ يكفهر ويزمجر ثم يتحول إلى طوفان .. ولم تكن هناك سدود نظامية تحمي بغداد وبقية مدن العراق من الفيضانات المتكررة كل ربيع ... ولعلكم تتذكرون قصيدة نازك الملائكة (النهر العاشق) التي وصفت فيها ذلك الفيضان ومنها قولها :

" أين نعدو وهو قد لفّ يديه

حول أكتاف المدينة

إنه يعمل في بطءٍ وحزمٍ وسكينة
ساكباً من شفتيهِ
قبلاً طينيةً غطّت مراعينا الحزينة ... "

الحي الجديد الذي سكناه كان في الرصافة أيضاً / منطقة الكرّادة وتدعى (العلوية) وكان بيتنا الذي استأجره أبي على عجالةٍ قريباً من بستان كبير كثيف النخل والشجر وغالباً ما كنا ندخل البستان أنا وإخوتي وبعض أطفال الحيّ في فصلي الصيف والربيع ونقطف ما تدلّى من ثمار الخوخ والمشمش والعنب، وحين يرانا الحارس العجوز يطاردنا، فنركض إلى الخارج لنلعب في الزقاق..كنت أحياناً أتركهم يلعبون وأجلس تحت ظل نخلةٍ لأستمع لهديل اليمام (يا قوقتي يا قوقتي ..)

ولهديل اليمام حكاية جميلة في تراثنا الشعبي حكتها لي أمّي قائلةً : إنَّ اليمامة بهذا الصوت الحزين تنادي على ابنتها الضائعة.. ويجري بين اليمامة الأم واليمامة الابنة الحوار التالي :

" اليمامة الأم : يا قوقتي وين أنتِ؟

اليمامة الثانية : بالحلّة (والحلّة هي مدينة بابل)

اليمامة الأم : وشتاكل؟ (أي ماذا تأكل؟)

اليمامة الثانية : باقلّة (أي باقلاء)

اليمامة الأم : وشتشرب؟ (ماذا تشرب؟)

اليمامة الثانية : ماي الله ... (ماء الله)

وتظل اليمامة الأم تبحث عن ابنتها اليمامة الضائعة بهذا الصوت الشجيّ، وحين أسترجع هذه الحكاية أشعر بالأسى على تلك اليمامة الحزينة وأتمنى أن أحلّق مثل اليمام وأفتش لتلك اليمامة الأم عن ابنتها الضائعة ..لقد حفرت هذه الذكرى مكانها في قلبي، وهاهي دمعتي تسيل وأنا أراني تلك اليمامة التي انقطعت عن ابنتها، فمنذ اثني عشر عاماً لم أرَ ابنتي فرح! لا هي تستطيع المجيء إلى دبيّ ولا أنا استطيع السفر إليها، وذي قصة سأحدثكم عنها فيما بعد ..

ألا يا لقومي للتجلّدِ والصّبرِ
وللقدر السّاري إليك وما تدري

وللشيء تنساهُ وتذكر غيره
وللشيء لا تنساهُ إلّا على ذكرِ (القتّال شاعر أموي) .
*

أعود إلى البيت محملة بشوق اليمامة الضائعة فأشتاق إلى حضن أمي .. قاربتُ السادسة وأنا مرهفة ممتلئة بالحنين أبحث عن أمّي ..أريد أن أغفو في حضنها، لكنّي لا أجده خالياً، فهي إمّا حامل أو ترضع أو تهدهد أو تقمّط، فأكبتُ شوقي .. وحين يحل المساء ونصعد لسطح البيت كي ننام، كعادة أهل بغداد صيفاً، أشكو لزهرتي المنيرة، نجمتي التي تطل عليّ من سماء الصيف الصافية ويُسمعني خيالي همسها المضيء بأنها ستكون مثل أمّي تحضنني وترعاني .. لم أرتوِ من حنان أمّي، وأبي كان يكد ويشقى طول النهار من أجلنا فلا نراه كثيراً، لكن مع ذلك كنت المميزة عنده بين أخوتي لأني البنت الوحيدة بين البنين، وكان أخواي الكبيران عبد المجيد وسعيد يذهبان إلى المدرسة ويعودان للّعب في الحيّ .
بدأت أمّي تدربني على العمل المنزلي لأساعدها، فلقد صرت بنت السابعة وكان لابد من مساعدتها ..ولم يكن الناس في العراق كأهل دول الخليج يستجلبون الخادمات، فالعائلة العراقية تتعاون فيما بينها لتدبير أمورها وفي الأغلب يقع العبء الأكبر على المرأة، باستثناء العوائل الأرستقراطية والأسر الأجنبية الذين يشغّلون خدماً من الفئات الفقيرة.
في السابعة من عمري تعلمت كيف أغسل الملابس والصحون و كنت أحياناً أشطح بخيالي فأكسر صحناً أو قدح شاي، وكنت أنظف السجاد وأكنس وأرتب الفرش وأهز المهد إذا انشغلت أمي عن أخي الوليد بتحضير الطعام .

جيراننا الجدد

في ذلك العام بنت لنا الشركة التي يعمل فيها والدي (شركة ويمبي البريطانية النفطية) مسكناً كبيراً نسبياً في حي جديد يدعى (كراج الأمانة) نسبةً إلى موقف كبير لباصات نقل الركاب التابع لمنشأة نقل الركاب ببغداد .

كان في الحي العديد من الأزقة، وكان زقاقنا _ في أغلبه_ تسكنه أسر مسيحية، وفي هذا الزقاق عشنا سنوات من الهدوء والراحة، فهذه الأسر المسيحية كانت من الأخلاق والرقي والنظافة ما يجعلنا ننظر إليهم بكل تقدير واحترام، ومرّت بي حكايات جميلة منها أنني كنت أجد فرصة بعد إنجاز عملي البيتي لألعب مع بنات الجيران، وكانت في كل أسبوع تأتينا من الكنيسة معلمة تدعى (ماسيرة) تعلمنا أشياء عن الدين المسيحي وقصص عن السيد المسيح، ثم توزع علينا صوراً ملونة وجميلة عن تلك القصص، واستمر الحال حتى انتبهت أمّي فبدأت تشرح لي شيئاً عن الإسلام وكيف أنه لا يتعارض مع الديانة المسيحية التي توحّد الله وأن النبي عيسى والسيدة مريم عليهما السلام مذكوران في القرآن الكريم ..ولم تحرم أمي نفسها ذات مرة من سفرة نسائية عملتها الجارات المسيحيات إلى كنيسة الأرمن الأرثوذيكس في الباب الشرقي واصطحبتني معها، وكان في تلك الكنيسة حدائق غنّاء يمكن التجوال فيها والتمتع بأجوائها، بعدها تكون جولة في المقبرة وقراءة الشواهد على القبور ومنها ما قرأته أمّي على قبر شاب :

(يا قاري كتابي ابكِ على شبابي

بالأمس قد كنت حياً واليوم في الترابِ)

كانت صورة شبابه مع هذا القصيد تكاد تعصر القلب، وشاهدة أخرى على قبر عروسين بثياب الزفاف، وأَخرى على قبر طفلة بعمر الورد، لم نسأل أنفسنا في حينها هل جئنا في هذه السفرة الجماعية لنسعد أم لنبكي؟ أم أن الحزن المؤقت يستدر الدموع فتغسل القلب من الحزن الخفي الكامن في النفس منذ سنين أو عصور؟!

سهام ضيفتنا الجميلة

كانت الدار التي نزلنا فيها كبيرة وفي آخرها حديقة داخلية.. وفيها خمس غرف كانت كثيرة علينا في ذلك الوقت حين كنا أسرة صغيرة؛ ولذلك حين طلب صديق والدي الفلسطيني أن تسكن معنا زوجته الشابة القادمة من رام الله لحين أن يدبر لها سكناً مناسباً استأذن أبي من أمي ووافقت قائلةً : "لدينا عدة غرف فارغة والبيت كبير"، فجاءت سهام وسكنت عندنا، وأصبحت صديقتي التي لا أفارقها إلّا خلال مساعدتي لأمّي ..حكت لي سهام قصصاً جميلة عن فلسطين وجمال الطبيعة فيها وخيراتها وعن عاداتهم الاجتماعية، وكانت تريني صور أهلها في مناسبات مختلفة،

كنت أعجب لتلك الأناقة وذلك الجمال، كانوا يشبهون الرجال والنساء الذين أراهم في المجلات ..كنت أحياناً أطرق الباب على سهام فتفتحه لي تقبلني وتعطيني بعض الحلوى، وحين كنت أرى أثر دموع في عينيها أسألها (هل كنتِ تبكين) فينهمر دمعها و تقول :" اشتقت إلى أهلي في فلسطين، اشتقت لفلسطين ورام الله والضيعة .. "

بعد أشهر ذهبت سهام لتسكن في بيت استأجره زوجها ..ذهبت تاركة فلسطين تنبض في قلبي عبر الصور والذكريات التي عشتها مع خالة سهام .

حلمي في المدرسة

دخلت عامي السابع وأواخر الصيف تستعد المدارس لاستقبال التلاميذ، وفيما أنا شبه نائمة كنت أسمع حواراً دار بين أبي وأمي :

" أبي: ساجدة كبرت ولازم نسجلها بالمدرسة

أمي : شلون والبيت والزغار؟! تعرفني ما عندي أحد يساعدني.

أبي : هذي بنت ولازم تتعلم وتاخذ شهادة تنفعها للمستقبل "

واستمر الحوار فخفتُ أن يتحول إلى مشكلة، ففركت عيوني وقمت لأقول لأمّي :

" أنا لو داومت في المدرسة ما أعوف شغل البيت، وما ألزم كتابي إلا بعد ما أخلص كلشي "

وأمام هذا التعهد سكن روع أمّي وقالت لأبي :

" لو ما دبرتها يا حميد، أنت المسؤول "

فضحك وقال :" خليها علي "

بعد أيام أخذني والدي للمصور الشمسي في الباب الشرقي وأخذ لي عدة صور ثم ذهب إلى لمدرسة وسجلني .

في اليوم الأول أرتديت الزي المدرسي ثوب أزرق غامق بأزرار بيض وياقة بيضاء، جديلتان بشرائط ستان بيض، وحملت الحقيبة الفارغة إلا من بعض القرطاسية، ومشيت ممسكة بيد أبي الحنون الذي أخذني مع أخي الأصغر (فلاح) إلى المدرسة الخلدونية الابتدائية في منطقة تسمى (52) تبعد عن بيتنا حوالي نصف ساعة مشياً، لكن بالباص خمس دقائق .

إذا قلت كان ذلك أجمل أيام حياتي فأنا لا أبالغ .. كنت قبل ذلك أتطلع إلى كتب أخوي الكبيرين وأحاول أن أفك رموز الكتابة لأفهم ماذا يقول الكتاب فيرتد إلي طرفي حسيراً، فأقول لنفسي لابد من المدرسة .

أرجع ظهراً أرمي حقيبتي تحت السرير وأتناول الغداء بعدها أباشر عملي المنزلي المرهق ومايتبقى من الوقت أقضيه في حل الواجبات .

أولاد المحلة

كانت المحلّة تعج بشتى صور الحياة الجميلة، إخوتي مع الأولاد عملوا فريقاً لكرة القدم، وتنابزوا مع فريق الزقاق الذي خلفنا، فطوّر أخي سعيد ابن التاسعة المصيدة التقليدية التي تقذف الحصى إلى شكل بندقية تضرب بالحصى أبعد، لكنه سرعان ما اكتفى بهذا ولم يضرب بمصيادته المتطورة أحداً، لكن فريقه المشاكس ذات يوم ولم يكن بينهم قاموا فوضعوا صخرة كبيرة أمام القطار، وكسروا الرهان الذي يقول أن القطار لا يتوقف، (سعيد أفندي) وهذا لقبه في المحلة اتهمه أحد المشاغبين بالفعلة، القطار توقف فعلاً، وجاء سائقه إلى بيتنا بملابسه الحكومية وقبعته ليشتكي لأمّي، اعتذرت منه ووعدت بعقاب سعيد .

حلف سعيد لأمّي إنه كان عند الحلّاق ولم يكن مع أولاد المحلة عندما ```وضعوا الصخرة أمام القطار ولو كان معهم لمنعهم، بعد هذا قرر سعيد أن يشغل نفسه بأمر أخر، ولم يخرج مع أصحابه إلّا قليلاً، فبين هواياتهم في مختلف الألعاب وجدوا في صيد العصافير متعةً..، أما كيف يصيدونها فلا يعلم ذلك إلّا الله، لكني رأيت بعيني مرّةً ابن جيراننا (صباح) كان بيده عصفور وأفلت من يده فقفز الولد في الهواء قفزةً مهولةً حتى أمسكه .

وسعيد أفندي هذا النحيف الطويل المشاكس عكس أخينا الكبير الهادىء.. فاجأنا ذات مرة بإصداره مجلة تحمل أخبار العالم والعراق والعرب والمحلّة ..كانت على شكل دفتر يكتب فيه الخبر ويلصق صورته، والمجلة تدور من قارىء لقارىء بين أصدقائه حتى تعود له في نهاية المطاف، وكنت أقرؤها فاستمتع بما تحتويه من أخبار وطرائف .

لقد انتبهت إلى تحول أخي سعيد من حياة الشقاوة والمشاكسة إلى الحياة الثقافية، وربما كانت شقاوته فورة وانتهت ليستكين ويبدأ يقرأ ويطالع الكتب الخارجية، ومع كل هذا كان ينجح عاماً بعد عام .

عرسٌ حلّق بي في الخيال

في المحلة كانت التقاليد الاجتماعية لها نكهتها الرائعة الخاصة ..
في آخر الزقاق عرس.. ذهبت مع صديقاتي وجل اهتمامنا أن نتفرج على العروس، وبين الزغاريد ورش الحلوى بدت العروس كالقمر المنير بثوب زفافها الأبيض والبرقع من التول الشفاف، اقتربت منها فشممت رائحة عطر لم أشم مثله في حياتي .. وبطريق الصدفة وأنا في مول دبي عند محل للعطور شممتني البائعة عطراً عمانياً فذهلت!!! كان هو ذلك العطر الذي احتفظت به ذاكرتي كل تلك السنين! تسللت مع صديقاتي وصعدنا إلى غرفة العروس، ويا لها من غرفة! كانت سماوية بزرقة البحر..الستائر الحرير والشيفون والفرشة على السرير من الساتان السمائي المطرز بالكلبدون وكأنها قطعة من سماء بغداد الصافية المرصعة بالنجوم، كل مافي الغرفة جديد لم يستعمل ورائحة البخور تدخل رئاتنا فنشعر بسعادة غامرة، وعلى صوت الطبل خفّت أقدامنا فنزلنا لنستمتع بالأهازيج والرقص الشعبي، والناس فرحون وكأنهم هم العرسان، وكان تعليق أمّي فيما بعد : (معرّس واحد .. مجنون ألف) .

بائع الشلغم

في الزقاق يمر خلال النهار بعض الباعة المتجولين، وكل ينادي على بضاعته بشعر من أجمل ما يكون، بائع القماش الفلسطيني، وبائع الآيس كريم صيفاً وبائع الباقلاء المسلوقة وبائع الشلغم شتاءً .. حتى الآن لم أنس ما كان يردده بائع الشلغم (يبا مايع والهوا يتجيله) أي لشدة ميوعته يكاد يتكىء على الهواء، شرحته لي أمّي في حينها، قلت وكيف يتكىء على الهواء؟ قالت هذا شعر لما تكبرين ستفهمينه .

الأولى والأولى مكرر

كنت الأولى على الصف الأول، نادوا على الأوائل ليخرجوا من بين طوابير المدرسة التي انتظمت في الساحة الكبيرة في يوم مراسيم رفع العلم وهذه المراسيم هي تقليد في مدارس العراق حيث تخرج كل الصفوف في الساحة خلال الفرصة الكبيرة بين الدروس، وفي نهاية الفرصة تنتظم طوابير الطلاب وتحضرالمديرة أو المدير مع الجهاز الإداري والتعليمي، ويبدأ عزف النشيد الوطني، ثم تقوم الكشافة برفع العلم أو يُكرّم أحد الطلاب المميزين ويُكلّف برفعه، وتلقي الإدارة كلمتها ثم ينادى على المميزين في دروسهم أو نشاطاتهم اللاصفية كالرسم والرياضة والموسيقى لتُعلن أسماؤهم ويصفق لهم الطلاب جميعاً، وكانت هذه الوقفة وتصفيق الطلاب الذي يصل عنان السماء حافزاً مهماً لكل الطلاب كي يتميزوا ليحظوا بهذا الشرف الكبير . أما حفل نهاية العام الذي يكرم فيه الأوائل فله طعمه الخاص وأثره الجميل وخلاله لا يتم التكريم بالتصفيق فحسب بل بتوزيع الهدايا أيضاً .

كانت سعادتي لا توصف بكوني الأولى على صفّي وبالهدايا الجميلة التي قدمتها لي مرشدة الصف الست دينا.. لا أنساها وإن فقدت مني فيما بعد .

لكن فرحتي في حينها كان يشوبها الألم، فعندما نادت مرشدة صفي على اسمي وقالت الأولى ساجدة حميد، نادت بعدي على طالبة ثانية في صفّي وقالت : الأولى مكرر عليّة _ لا أتذكر اسم والدها _ وما ان انتهت المراسيم حتى توجهت للمرشدة أعاتبها : لماذا لم تضع لي (مكرر) كنت أظن ذلك نوعاً من الامتياز ولم أكن أعي معنى الكلمة، فلما شرحتها لي انفرجت أساريري وطرت إلى أهلي أبشرهم .

مجازفة طفولية

نجحت للصف الثاني الابتدائي.. كنا أنا وأخي الأصغر فلاح في مدرستين متجاورتين، وكنا نذهب معاً صباحاً نمشي على رصيف الشارع العمومي حيث أغصان الأشجار في حدائق البيوت كانت تستريح على الأسيجة فنقطف منها الأزهار ونحن نمشي الهوينا حتى نصل المدرسة .

وذات يوم خرجنا من البيت متأخرين فاقترحت على أخي فلاح أن نركب الباص كي نصل بسرعة فوافقني، وفعلاً جاء الباص وركبنا وأعطينا الجابي عشرة فلوس عن كل واحد منّا كانت هي

مصروفنا اليومي، لكن الباص كان مزدحماً وصرنا من كثرة الركاب لا نرى الطريق جيداً، ومر الوقت ونزل الكثير من الركاب، وحين توقّف الباص نزلنا فإذا بنا في أرض خالية وليس ثمة سوى الشارع الذي تمر عليه السيارات و بيوت بدت بعيدة جداً .. أخذنا نبكي ولا نعرف وماذا نفعل لكن الله لم يتركنا ؛ فقد توقفت بقربنا سيارة يبدو أن سائقها انتبه إلى أننا وحيدين في الأرض الخالية وحقائبنا المدرسية بأيدينا..كان السائق في عمر أبي ..نزل من سيارته بعد أن صفها جانباً وأخذ يستفسر عن حالنا، فحكينا له قصةتيهنا، فضحك وقال : المدرسة قريبة اصعدا معي لأوصلكما إليها، والجميل أننا وصلنا قبل أن يرن جرس المدرسة.

حين يرن جرس المدرسة صباحاً نصطف على شكل طوابير ضمن صفوف متوازية في الساحة الكبيرة، وكل شعبة لها موقع وحرف مع رقم الصف، وكانت المدرسة تسع ما يقرب من 300 طالب وطالبة .

ومع أنسام الصباح العليلة وانعكاس الشمس الصباحية على شجر الكالبتوس العالي المحيط بالمدرسة وزقزقات حشود العصافير بين الأغصان المتشابكة كنا نؤدي النشيد المدرسي بسلاسة وكأننا فرقة إنشاد لكن بلا جوقة موسيقية؛ فأصواتنا ونحن بين السابعة والثانية عشرة من العمر كانت رقيقة عذبة متفاعلة مع كلمات و ألحان النشيد .. تلك الوقفات المهيبة لطفولتنا الغضة لا أنساها، صوت جماعي بلحن شجيّ ساحر يثير في نفوسنا المشاعر النبيلة ويدرّبها على التناغم مع الحياة بكل تفاصيلها ..

كانت الأناشيد تتغنّى بمحبّة الوطن والولاء له وبأمل العرب بتحرير فلسطين الحبيبة وعودة أهلها اللاجئين إليها، وبنُصرة ثورة الشعب الجزائري ضد الاستعمار الفرنسي، فكان نشيد الجزائر :

قسماً بالنازلات الماحقات والدماء الزاكيات الطاهرات
والبنود اللامعات الخافقات في الجبال الشامخات الشاهقات
نحن ثرنا فحياةٌ أو ممات وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر
فاشهدوا ..فاشهدوا .. فاشهدوا

وكان الحماس يأخذنا وكأننا في أرض الجزائر مع جميلة بوحيرد وأحمد بن بيللا نقاوم المستعمر، ونصيح بأعلى صوتنا حين نصل إلى كلمة (فاشهدوا ...) .

كانت تربية الأسرة مواكبة لتربية المدرسة، وكانت المدرسة بمثابة الأسرة، المعلمة حريصة علينا مُحبّة لنا، والمديرة تمثل سلطة الأب في البيت، والكل يحترم النظام .كانت المعلمة في نظرنا ذات هيبة وقداسة نفرح لكلمة رضا منها، ونحرص على النجاح والتميز لنحوز هذا الرّضا..

ذات يوم فاجأتني مرشدة الصف ومعلمتي (الست دينا) بأنني سأتشرف برفع العلم في احتفال رفع العلم الذي يقام كل خميس بعد الفرصة الكبيرة بين الدروس، وهو شرف كبير لا يحظى به إلّا المتميزون من التلاميذ، وتتمّ مراسم رفع العلم بحضور المديرة والهيئة التعليمية .. انتهينا من الاصطفاف وقرأت المديرة كلمةً توجيهيّة، ثم نودي عليَّ لأرفع علم العراق وسط تصفيق حاد من التلاميذ، ورفعته عالياً عالياً وأنا أمتلىء سعادةً وفخراً .

في نهاية العام وبعد الاحتفال بتوزيع الهدايا على المتفوقين عدت وأنا أحمل مجموعة من الهدايا الجميلة من بينها قصة أهدتها لي معلمة اللغة العربية كانت فاتحة لشغفي بالمطالعة الخارجية .

انتهى العام الدراسي الذي انشغلت فيه بتحضير الواجبات المدرسية والعمل المنزلي الذي يزداد كلما أضافت أمّي للبيت مولوداً جديداً . في أيام الدراسة تقلّ فرص الأولاد باللعب في الشارع أو المحلة، لكن ما ان تأتي العطلة الصيفية حتى تتزين الأزقة بالأطفال والصبيان وألعابهم التقليدية مثل (الدعابل والختيلان وجر الحبل) والبنات يلعبن (التوكي والصقلة والطفيران) وأحياناً يشترك الأولاد والبنات في لعبة واحدة مثل (أنا الذيب آكلهم أنا الأم أحميهم) وهي تتكون من فريقين الذئب ومعه شلته والأم ومعها شلتها، ويحاول الذئب أن يمسك بأحد الأطفال ليأكله لكن الأم تمنعه، وهكذا حتى يتعب الجميع فتنتهي اللعبة . أما كرة القدم فيلعبها الصبيان والشباب في بعض الساحات أو على أرض غير مبنية .

وهناك لعبة أخرى يلعبها الأطفال والصبيان تسمى (الزحليقة) وهي طبعاً لا تشبه التزحلق من الجبال أو على الجليد، فبغداد ليس فيها جبال ولا جليد، لكن بالنسبة لحيّنا القريب من السدة الشرقية كما أسلفت، يصعد الجميع إلى أعلى السدة الترابية ثم ينحدرون بسرعة فيجدون في هذا الانحدار متعة وتسلية .

أسرح بخيالي .. وأفكر

كنت كثيراً ما أسرح بخيالي فأرسم عوالمَ هي خليط من النجوم والغيوم وزرقة السماء والريح المسافرة والمطر ورائحة أمي التي أحبها ولون الشفق الذي يشبه الحناء ... كانت عمتي تأتي إلينا ليلة العيد وتضع في كفيّ الحناء وتربطهما بقماش.. كنت أنام ويداي مربوطتان، ثم أصحو صباح العيد فأغسلهما بلهفة وأفرح بلون العيد في كفيّ فتكمل فرحتي باليوم السعيد ..ألبس ثوبي الجديد الذي خاطته لي جارتنا الخياطة أم صباح وأعيّد أبي وأمي وأستلم أول عيديّة من أبي الحنون . الحديث ذو شجون، كما تقول العرب، و ذو مفازات عديدة .

أجل كنت أصوغ في خيالي عوالمَ جميلةً رحبةً أطوف بها، وأتمنى أن يكون العالم في مواصفات الجنة التي أحلم بها، ولكن يصدمني الكثير من صور الحياة المؤذية أحياناً كحال أولئك الفقراء الذين يعيشون في الأكواخ بلا كهرباء وفي شُحّ الماء، ثم أفكر في صديقتي سهام الفلسطينية التي رحلت عنا وهي دائمة البكاء على أهلها الذين تفرقوا في الشّتات بعد أن احتل اليهود بلادهم و سلبوا ديارهم، وأفكر في سعاد ابنة الجيران التي زوجوها لابن الجيران قاسم السمين الذي لا تحبه ؛ عرفت ذلك عندما وجدتها في المطبخ تبكي وسألتها ما بك ياسعاد؟ سعاد ابنة الخياطة أم صباح ..كانت أمي قد أرسلت معي قماشاً من البوبلين يناسب حرّ الصيف لتخيطه أم صباح ملابس نوم لإخوتي ..أخذت أم صباح القماش وقالت لي : نادي على سعاد لتساعدني.. إنها في المطبخ ...

قالت سعاد : " راح يزوجوني لقاسم السمين وما أحبه " تألمت من أجلها وأخبرتها أن أمها تحتاجها .

مراسم الزواج ...

شهدتُ أفراح قاسم وسعاد، فيوم المهر دعتنا أمها فذهبت مع أمي، وزّعوا الحلوى ملفوفة بالمناديل البيض.. وفي المساء ارتدت سعاد ثوب المهر السماوي من الساتان وفوقه عدة طبقات من الشيفون وبرقع بنفس اللون كانت تشبه قطعة من السماء وأمامها الشموع تضيء بين زغاريد وأغاني الأهل والجارات .

كانت سعاد مطرقة لكن وجهها مضيء ..كنت أنظر إليها وقلبي يتألم . بعد شهر بدأت التحضيرات ليوم الزفاف ..ليلة الزفاف كانت حناء العروس، وكان هناك حفل مسائي أيضاً حيث ألبسوها بدلةً حمراء من الساتان المغطى بطبقات الشيفون ومطرزة بالنمنمة والبلك الأحمر وعلى الرأس برقع من التول الأحمر الشفاف ..كانت المراسم ساحرة وكنت مأخوذة بجمال سعاد حيث تضيء الشموع فيشرق وجهها موشًحاً بحزن شفيف ..

في اليوم التالي تزوجت سعاد في عرس شعبي جميل ..رصفوا صفوف الكراسي على طول الزقاق وعرضه، وجاءت فرقة الموسيقى وغنت الغجريات ورقصن، وكنتُ أنا وأمّي نتفرج بلهفة من فوق سياج السطح فهذا المشهد لا يتكرر، فيما كان الأولاد تحت يتفرجون مع بقية أبناء المحلّة .

سعادة سعاد

بعد مدة رأيت سعاد مع زوجها قاسم يخرجان من البيت وقد علت على وجهها ملامح سعادةٍ غسلت الألم الذي كان في قلبي عليها.. ابتسمت لي وابتسمت لها ثم مضيا ودخلت البيت وأنا أراجع خيال وجهها المبتسم . بعد عام صرنا نناديها أم محمد وانطوت قصة الدموع .

انتقالنا إلى بغداد الجديدة

أخوال أبي من بني لام كانوا يسكنون واحدة من المناطق الحديثة في جنوب بغداد اسمها (بغداد الجديدة) وقد كلّف والدي خالته أن تبحث لنا عن دار هناك، وبالفعل بعنا دارنا واشترينا بدلها داراً في بغداد الجديدة، وانتقلنا إليها، وتغيرت في الموسم الدراسي الآخر مدارسنا .

كان سكان الزقاق خليطاً من الإسلام والمسيحيين، وكان عن يميننا وشمالنا ومقابلنا جيران مسيحيون وبيت مجاور المقابل من الصابئة، وكنا والله كأسرة واحدة أحببناهم وأحبّونا وتشاركنا في السّرّاء والضّرّاء ...

حين انتقلنا إلى بغداد الجديدة صرت في مدرسة الهدف الابتدائية النموذجية في الصف الثالث وعمري آنذاك تسع سنوات، ومنذ ذلك الحين كنت أقرأ لتوفيق الحكيم وطه حسين والمتنبي

وشوقي، وكانت مجلة المعارف والهلال والآداب ثم العربي الكويتية تصل إلى العراق ويشتريها إخوتي .

ليس هذا فحسب ماكان يغذي مخيلتي فقد كانت جدتي لوالدتي وكذلك خالة أبي كلٌّ منهما موسوعة تراثية، ففي ليل الشتاء كنا نتحلق حول الجدة زهرة لتحكي لنا أجمل القصص والحكايات القديمة وكنا نهيم بسحر الوصف والكلام، أما في أماسي الصيف فكنا نغسل آجرّ السطح عند الغروب ونفرش الأسرة المنصوبة على حواشي السطح ثم نفرش الوسط ونجلس جلسة سمر مع حكايات جدتي زهرة أو خالة أبي .

ذات مساء صيفي كان القمر زاهراً وحان موعد النوم، فاصطحبت معي كتاباً لجبران خليل جبران وصعدت إلى السطح لأستمتع بالهدوء وبضوء القمر.. حاولت أن أقرأ لكني فشلت إذ لم أتبين الكتابة جيداً، فطويت الكتاب وبدأت أحدق في السماء الصافية وتلك النجوم البرّاقة، وعدت لصديقتي النجمة العالية ورحت أكلمها عما يجول بخاطري .. نعم كنت بحاجة لأن أتحدث بقدر ما يصطخب القلب بالأفكار والأحلام والرؤى .

النصف الثاني لدراستي الابتدائية

في محلة بغداد الجديدة استكملت دراستي الابتدائية في مدرسة الهدف النموذجية ولم تكن بعيدة عن البيت ولذلك أذهب إليها مشياً .. هناك تعرفت على صديقتي فريال كوركيس فكنا في الأغلب نذهب ونعود سوياً .

آثار تظهر بعد المطر

لكن سرعان ما بدأت الدراسة وبدأ الدوام اليومي ..كانت المدرسة قريبة من البيت فأذهب إليها مشياً، وحين تمطر السماء في الربيع تهيج الخضرة في المساحات الفسيحة بين البيت والمدرسة فثمة أراضٍ لم تصلها حركة العمران، وكنت حين أمشي بعد يوم ممطر ألحظ على الأرض قطعاً خزفية ملونة .. وذات يوم أخذت معي بضع قطع منها وسألت مرشدة الصف عنها فقالت هذه من آثار العراق القديمة، وطرحت الموضوع على مدرسة التاريخ فقالت نعم إن أرضنا أرض حضارات قديمة ويبدو أن هذه المنطقة فيها آثار يظهر بعضها على سطح الأرض بعد جرف

التراب عنها عند هطول المطر، واحتفظت ببعض من هذه القطع التي أحسست بأنها تحمل عبق التاريخ المجيد، وأحببت درس التاريخ وكنت أقرأ كتابه بشغف ..

وذات يوم سمع أخواي الكبيران أن بالقرب من المنطقة التي نسكنها منطقة أثرية تدعى (تل محمد) يجري فيها البحث عن الآثار، وحين سمعت رغبتهما في استكشاف المكان توسلت إليهما أن أرافقهما فوافقا بعد رفضهما بحجة أن أمي قد تحتاجني . حين وصلنا المكان رأينا آثاراً ربما لقصرٍ أو معبدٍ قديم، وكان هناك بعض عمالٍ يشتغلون بالحفر بعناية كبيرة، وشدت انتباهي حفر مربعة على الجدران بعمق شبرٍ واحد فسألت عنها، فكان الجواب (هذه كانت رفوف كتب .. أي رفوف للرقم الطينية التي كانوا يكتبون عليها ويتراسلون بها ويسجلون أحوالهم فيها)، يا لدهشتي ويا لعظمة تاريخ بلادي!

عندما وصلنا في درس التاريخ إلى بحث شريعة حمورابي ورأيت صورة هذا الملك البابلي وهو يسلّم نسخة من القوانين لإله الشمس شغلتني الصورة وسكنت خاطري.

وفي يوم الجمعة حين فرغت من واجباتي المدرسية والبيتية طلبت من أبي أن يجلب لي (بورك) وهي مادة تصلح للبناء وقمت بخلط البورك بالماء حتى صار عجينة وبدأت أنحت مسلة الملك حمورابي رغم أني لا أعرف أصول النحت ولا خبرة لي فيه . في صباح اليوم التالي كانت المنحوتة قد جفت فأخذتها إلى لمدرسة وأعجب الجميع بفكرتي وبتنفيذي لها، وشكرتني مدرسة التاريخ وعلقت تعليقاً جميلاً على مبادرتي الشُّجاعة .

القصيدة الأولى

عبرت الثالث ابتدائي والرابع والخامس بتفوّق.. ومع الزمن كنت أكبر ووعيي يكبر .. أساعد أمّي وأنجح في دروسي، وفي العطل الصيفية أقرأ كثيراً، وأمارس هواياتي في الخياطة والتطريز .. وكانت قراءة قصص جرجي زيدان ومجلة الهلال متعتي الكبرى في آخر النهار، ولشدة شغفي بالشعر كنت أحفظ المقطوعات الشعرية المقررة في درس المطالعة أو درس المحفوظات وألقيها عل مسامع أهلي ولا أخطئ في أدائها .

بلغت الثانية عشرة من عمري حين صرت في الصف السادس.. وحدث معي ما لم يكن بالحسبان .. في درس التدريب على الكتابة الأدبية، المقرر في المنهاج الدراسي، كُلّفنا بكتابة موضوع إنشاء عن(الربيع) و كنا في آذار .. وفي شهر آذار ببغداد يعتدل الجو بعد شتاء بارد، وتتبرعم الأشجار وتتفتّح الأزهار الواعدة بالثمار اليانعة، ويهبّ النسيم عليلاً نديّاً ينعش الرّوح . أمسكت بقلمي ودفتري و قررت أن أكتب عن الشجرة فهي رمز الربيع تكسبه ثوباً زاهياً بجمال اخضرارها وزهرها وشذاها .

جعلت عنوان موضوعي (الشجرة) وبدأت أكتب، فإذا بالعبارة الأولى تأتي موزونة ..شعرت بأنها صدرٌ لبيت شعريٍّ فأعقبته بعَجُز وقلت لأكمل، فصار الموضوع اثني عشر بيتاً شعريّاً!! أغلقت الدفتر ونمت وأنا مشدوهة! وزاد اندهاشي حين أُعجبت مدرسة اللغة العربية الست (عروبة) بما كتبت حيث اكتشفت شاعريتي، وطلبت أن أقرأ هذه القصيدة يوم الخميس وهو يوم مراسم رفع العلم. كنت متوجّسة في البداية لأني لأول مرة أقرأ شعراً أمام جميع التلاميذ في احتفال مهيب .. وقفت بقربي الست عروبة بعد أن قدمتني قائلة "أعزائي التلاميذ أقدم لكم الشاعرة الموهوبة ساجدة حميد في قصيدة كتبتها عن الشجرة" صفق التلاميذ بحرارة وتقدّمتُ خطوتين وقرأتها بنجاح لكن قلبي كان يرفرف كالعصفور تحت جوانحي من رهبة مواجهة الجمهور، صحيح هذه المرة الثانية التي أقف فيها أمام كلّ تلاميذ المدرسة، وكانت الأولى عندما رفعت العلم لكوني من المتميزات في الصف الثاني الابتدائي، لكن في المرة الأولى كنت صامتة .. حملت العلم بيدي ورفعته عالياً شامخاً مرفرفاً بفعل نسيم الضّحى بينما كان التلاميذ ينشدون (موطني .. موطني). الحقيقة أنّ هذه المرة كانت أصعب لكنها مرت بنجاح قوّى عزيمتي وثقتي بنفسي.

مع الشعراء في بداياتهم ورحيلهم وخريفهم

أصداء ثقافية من حياتي

بقلم: نجيب سعيد باوزير

(1)

تعرفت إلى الأخ العزيز أبوبكر محسن الحامد لأول مرة في عدن من خلال زمالته لابن عمي وابنة عمي في كلية التربية بعدن أواخر السبعينيات من القرن الماضي. اقتربنا روحيًا أحدنا من الآخر من الوهلة الأولى نظرًا لميولنا المشتركة المتعلقة بالأدب والشعر، ولعلي التقيت به للمرة الأولى في بيت عمي نفسه الشاعر الظريف محمد عوض باوزير رحمه الله، وهو البيت الذي يقع في الخساف قريبًا جدًا من الموقع الذي كان يحتله باب عدن الشهير – وكان يعلوه قديمًا عقد مبني من الحجارة له صور محفوظة – على العقبة، التي تنحدر الطريق منها إلى المعلّا من ناحية، وإلى كريتر وشارع الملكة أروى من الناحية الأخرى.

في ذلك اللقاء الذي جمعني بالأخ أبوبكر عرضت عليه كراسة سجلت فيها بعضًا من محاولاتي الشعرية الأولى، ومنها قصيدة بعنوان (ليلة الحب) تقول أبياتها الأولى:

في سكون الظلام والليل ساجِ هوّمت في الخيال ذكرى السياج
وذكرت اللقاء ليلة كنا في انشغالٍ عن ليلنا الموّاج
هي في ثوبها الرمادي تخطو نحو درب الهوى منار ابتهاج
وأنا في الظلام أعزف لحني للعيون التي أضاءت فجاجي

وقد نُشرت هذه القصيدة فيما بعد ضمن أشعار ديواني الأول (حلم الشاعر) الذي طبع في دار الهمداني بعدن، وهنا عليّ أن أذكر أن البيت الثالث الذي ظهر في الديوان مستقيم الوزن على النحو الذي أوردته للتو كان في بادئ الأمر مكسورًا عندي، لأنني كنت مبتدئًا وغير دارس للعروض وإنما أحتكم في النظم إلى سليقتي الموسيقية، فقط، التي قد تخون أحيانًا، إذ كان الشطر الثاني من البيت هكذا: "نحو درب الهوى في ابتهاج". كان الذي يقوم بإجازة الدواوين للنشر في دار الهمداني، والذي أصلح البيت المكسور بوضع كلمة (منار) بدلًا من حرف الجر (في) هو الشاعر العراقي المعروف سعدي يوسف، إذ كانت عدن والجنوب اليمني في تلك الحقبة مهوى أفئدة الشيوعيين واليساريين من كل بقاع الأرض، وكان الشاعر سعدي يوسف واحدًا من هؤلاء، وأتذكر أنه زار مدينة المكلّا في بداية الثمانينيات والتقينا به في حفل عشاء، وعندما حانت فرصة للانفراد به طرحت عليه سؤالًا يتعلق بالترجمة لأنني كنت مهتمًا بها منذ ذلك الوقت وأعرف أن سعدي يوسف له عدد من الترجمات خاصةً في مجال الشعر، ومن ذلك ترجمته لديوان (أوراق العشب) للشاعر الأمريكي والت ويتمان وترجمته لمجموعة من أشعار الشاعر اليوناني قسطنطين كفافي تحت عنوان (وداعًا للإسكندرية التي تفقدها).

علق الأخ أبوبكر الحامد على قصيدتي تلك بأن كتب بخطه الجميل على نفس الكراسة:

ما الذي كان ليلةَ الغيل حتى قلتَ فيها النسيب والأشعارا؟

وهذا البيت طبعًا من بحر الخفيف نفسه الذي كتبت به القصيدة. ولكن العجيب أنني ظننت حينها أن هذا البيت قاله أبوبكر ارتجالًا من تأليفه، خاصةً أنه ترد فيه كلمة (الغيل) وهو اسم مدينتي التي يشار إليها أحيانًا هكذا مجردة وأحيانًا أخرى تسمى باسمها الأصلي الكامل (غيل باوزير). ولعلي لم أكن قد اطلعت على مسرحية (مجنون ليلى) لأمير الشعراء أحمد شوقي، التي ورد فيها

هذا البيت على لسان والد ليلى موجهًا كلامه إلى قيس، إذ الغيل قد لا تعني موضعًا بعينه وإنما مكانًا أشبه بالواحة فيه شجر وفير وماء غزير، ومن هنا جاء اسم مدينتي الحبيبة، غيل باوزير. وكان الرد الذي وضعه شوقي على لسان قيس على النحو التالي:

لم تكن وحدها ولا كنت وحدي إنما نحن فتية وعذارى

جمعتنا خمائل الغيل بالليل كما يجمع الحمى السُمّارا

ليس غير السلام ثم افترقنا ذهبت يمنةً وسرت يسارا

(2)

ابن عمي الذي تعرفت إلى أخي وصديقي أبوبكر الحامد من طريقه هو خالد محمد عوض باوزير، الذي نشأ محبًا للفن وتعلم العزف على العود منذ صغره، وكان قد أصبح نجمًا معروفًا يُطلَب لإحياء حفلات السمر والأعراس، وسُجلت له بعض الأغاني في الإذاعة والتلفزيون قبل أن يخترمه الموت غريقًا في (ساحل العروسة) بعدن، وكان رحمه الله يتأهب لدخول عش الزوجية، ولكن شاء الله أن يزف شهيدًا إلى جنة الخلد بإذن الله.

كان خالد قبل وفاته قد حصل على شهادة بكالوريوس آداب من كلية التربية العليا بعدن، وفي الوقت نفسه حصل على شهادة دبلوم في الموسيقى من المعهد الذي كان يسمى معهد جميل غانم، وقد سمي بهذا الاسم بعد رحيل الفنان جميل غانم الذي كان من دعائم المعهد أو بالأحرى

مديرًا له عندما كان خالد يدرس فيه. وكان عمي الشاعر الظريف يقول مازحًا عن ابنه خالد إنه أحرز الشهادتين، كما يقال عن الشخص الذي يدخل الإسلام إنه نطق بالشهادتين! رحمهما الله.

وعلى الرغم من أن عمي محمدًا لم يكن في قرارة نفسه مرتاحًا لانشغال ابنه خالد بالفن والطرب ثم اشتغاله به بعد ذلك، فإنه رضخ في نهاية المطاف للأمر الواقع. كان الأستاذ محمد عوض باوزير أحد الأشقاء الأربعة الذين تشربوا الثقافة منذ نشأتهم الأولى في غيل باوزير وكان أكبرُهم سنًا ورائدُهم على هذا الطريق الجميل والجليل والدي (المفكر) سعيد عوض باوزير رحمه الله. كان أبو خالد، وخالد هو ابنه البكر، يتمنى لابنه أن يكون شيئًا كبيرًا في أي مجال من مجالات العلم والدراسة ثم العمل فيما بعد، ولذلك ابتعث خالدًا وهو صغير في الإعدادية إلى الجمهورية العربية السورية، ولكن للأقدار دائمًا حكمها الذي لا يدري كنهه إلا الملك الواحد القهار. وعندما مات خالد تفجرت في نفس الشاعر ينابيع الحنان واللوعة نحو ابنه، وربما أحس بشيء من وخز الضمير لأنه – كما هو العرف السائد مجتمعيًا– لم يكن يرى الفن شيئًا ذا بال وكان يتمنى لابنه مستقبلًا مختلفًا كما أسلفنا، ولذلك كتب في رثائه عشر قصائد ضمها مطبوعة على الآلة الكاتبة في كراسة عمل منها عددًا من النسخ ووضع على غلافها صورة المرحوم خالد مع هذه الكلمات: "في ذكرى الأربعين لوفاة الفقيد الفنان الراحل المرحوم: خالد محمد باوزير المتوفى بالبحر غرقًا يوم الجمعة 14 أغسطس1981م"، وتتصدر الكراسة مقدمة كتبها العم محمد تلخص سيرة الفنان الراحل، كما تضم الكراسة إلى جانب قصائد والد الفقيد قصائد رثاء لثلاثة من الشعراء، أولاها للشاعر أبوبكر محسن الحامد، والثانية لكاتب هذه السطور بعنوان (خلود الفن)، وهي موجودة في ديواني الأول (حلم الشاعر)، والأخيرة قصيدة عامية للشاعر سعيد محمد بن هاوي باوزير. وهذه مرثاة الدكتور أبوبكر الحامد التي وعدته أنني سأوردها كاملة في هذه المقالة، إذ كنت قد سألته عنها وغاب عن بالي أنها موجودة في كراسة مراثي خالد التي أحتفظ بها، وإلى هذا فهي من أشعار البدايات التي تهتم بها هذه المقالة:

يا أبا خالد عزاءً عزاءً واصطبر فالقضاء أمضى وقدّر
كلما واجه الصبور بلاءً لاذ بالصبر فالمصيبة أيسر
أنت تدري بأن من مات يحيا في غد فالحياة جسر لآخر
فأعن أمه الحنون بقلب ثابت في الهموم تلقاه أصبر
وأعن إخوةً صغارًا مناهم أن يلاقوك من همومك أكبر
خالد والشباب بذرة حلم كنت ترويه بالعناء ليخضر
أوَتمضي والغصن ما زال غضًا؟ واقتبال الشباب ما زال أنور؟
كم بعثت الأماني تلو الأماني فإذا الموت فوق ما نتصور

وإذا خطوُنا بليلٍ كسِرّ الموت أيّان سِرّه سيُفسّر؟

(3)

كانت البداية لكل هذه التداعيات المرتبطة بالموت عندما وضع الدكتور أبوبكر الحامد منشوره الفيسبوكي، المرفق بصورة، الذي أشار فيه إشارة عابرة إلى وفاة الشاعر عوض ناصر الشقاع رحمه الله. وتصادف أن كان لي في الوقت نفسه مقالة في الفيسبوك استعرضتُ ونشرتُ فيها قصيدة رثائية جميلة للشاعر سعيد محمد بن هاوي باوزير. وقد علق صديقنا أبوبكر الحامد على المقالة مشيدًا بها، ثم عرّج على موضوع رثاء النفس، وذكر بعض الذين رثوا أنفسهم من الشعراء، ثم قال: "ولي قصيدة بهذا السياق". فرددتُ عليه قائلًا: والمازني – وأقصد به الأديب الكبير إبراهيم عبدالقادر المازني– رثى نفسه أيضًا، ثم أوردت مطلع أبيات كنت قد سجلتها في

الدفتر الذي اعتدت أن أسجل فيه الأشعار والقصائد التي تعجبني، وذلك في زمن الصبا الغابر، إذ يقول المطلع:

قضى غير مأسوف عليه من الورى فتىً غرّهُ في العيش نظم القصائدِ

ومعروف أن المازني بالرغم من أنه اشتهر بكونه أديبًا ساخرًا، فإن شعره الذي كتبه في مطلع حياته الأدبية، ثم انصرف عنه إلى كتابة الرواية، كان شعرًا يغلب عليه طابع الحزن والسوداوية وذكر الموت. وقد ختم المازني أبياته تلك بهذا البيت:

فلا تندبوه إنه ليس بالأسى خليقًا ولا أهل الهموم العوائدِ

وعلى الرغم من أنني كنت في ذلك الوقت في العقد الثاني من عمري فقط، فقد كنت أتقمص نفس شعور الحزن والسوداوية ورثاء النفس الذي تنطوي عليه مثل هذه الأشعار، وكنت قد بدأت منذ ذلك الوقت أولى محاولاتي الشعرية، وهي محاولات لا تخلو من طابع الحزن الذي يميز المرحلة الرومانسية المبكرة التي يمر بها تقريبًا كل الشعراء في ذلك العصر، وربما في كل عصر.

وفي نفس ذلك الدفتر الذي سجلت فيه أبيات المازني سجلت في صفحاته الأخيرة قصيدتين للشاعر أحمد عبدالمعطي حجازي وردتا في ديوانه الأول (مدينة بلا قلب). وقد أعجبت كثيرًا بتينك القصيدتين لأنهما كانتا تزخران بتلك المعاني والأحزان الرومانسية التي كانت تستهويني آنذاك، بل أشار في كلتيهما الشاعر صراحةً إلى تأثره، مثلي، بما كان يقرأه من الشعر

والروايات، بغض النظر عما إذا كانت إشارته تلك واقعية أم مجرد حيلة أو حلية فنية فقط. وسأورد هنا شيئًا مما ورد في هاتين القصيدتين.

كان عنوان إحدى القصيدتين (كان لي قلب)، ويقول الشاعر حجازي في مقطعها الأول:

على المرآة بعض غبار

وفوق المخدع البالي روائح نوم

ومصباح صغير النار

وكل ملامح الغرفة

كما كانت مساء القبلة الأولى

وحتى الثوب، حتى الثوب

وكنتِ بحافة المخدع

تردين انبثاقة نهدك المترع

وراء الثوب

وكنت ترين في عيني حديثًا كان مجهولا

وتبتسمين في طيبة

وكان وداع

جمعتُ الليل في سمتي

ولفقتُ الوجوم الرحب في صمتي

وفي صوتي

وقلتُ وداع

وأقسم لم أكن صادق

وكان خداع

ولكني قرأت روايةً عن شاعر عاشق

أذلته عشيقته فقال وداع

ولكن أنتِ صدّقتِ

كان ديوان (مدينة بلا قلب) لعبدالمعطي حجازي ومثله ديوان (الناس في بلادي) لصلاح عبدالصبور، اللذان كانا باكورة إنتاج الشاعرين، من الدواوين التي أسست لحركة الشعر العربي الحديث وما يسمى شعر التفعيلة. أما القصيدة الثانية التي سأجتزئ منها الآن فعنوانها (العام السادس عشر)، وهي نفس السن تقريبًا التي كنت فيها آنذاك، وفيها يقول الشاعر في المقطع الثاني:

عامي السادسُ عشرْ

يوم فتّحتُ على المرأة عيني

يومها واصفرّ لوني

يومها درتُ بدوامة سحرْ

وقد توقفت أنا – يومَها – طويلًا عند صورة أو حركة رد انبثاقة النهد (المترع) في القصيدة الأولى، وأعجبت بهذا الوصف الذي أعطاه الشاعر للنهد، والذي استعاره ببراعة من الكأس المترعة بالخمر. وفي مقطع آخر من القصيدة الثانية أورد الشاعر البيتين اللذين تبدأ بهما قصيدة (الأطلال) لإبراهيم ناجي، التي غنتها بعد ذلك أم كلثوم: يا فؤادي رحم الله الهوى...إلخ، وكيف أنه كان يسهر الليل مع مثل هذه الدواوين والأشعار. وقد أصدر حجازي فيما بعد كتابًا عن إبراهيم ناجي ضم مختارات من شعره مما يدل على تأثره به فعلًا، في حين أصدر صلاح عبدالصبور كتابًا مماثلًا عن علي محمود طه. وبعد هذا المقطع الذي أشرت إليه للتو، يأتي هذا المقطع:

كنت أهوى هؤلاء الشعراء

أتسامى فوق غيم نسجوه

أتمطى في بخور أطلقوه

وأرى الحب شرودًا وتهاويم وحزنا

والمحب الحق من يهوى ويفنى

وعميق الحب حب لم يتم

ليقولوا يا للحنٍ لم يتم

(4)

في سياق حوارنا – أبوبكر الحامد وأنا– على وسائل التواصل الاجتماعي جرنا الحديث إلى ذكر الشاعر الكبير صالح بن علي الحامد. وهنا سألت أخي وصديقي أبوبكر: هل لك علاقة قرابة مباشرة مع الشاعر الكبير صالح الحامد؟ ففاجأني بمعلومة لمت نفسي على أنني لم أكن أعرفها

ولم يخطر ببالي أن أسأل عنها طوال كل هذه السنين التي عرفت فيها أبوبكر محسن الحامد. قال لي: "إن صالح الحامد عمي، شقيق الوالد".

لقد مات الشاعر والمؤرخ والشخصية الاجتماعية البارزة صالح بن علي الحامد في 4 يونيو 1967م، كما أخبرني أبوبكر، وأتذكر أنه قبل وفاته كان قد أرسل لوالدي نسخة هدية من كتابه (تاريخ حضرموت) الذي يبدو أنه صدر للتو في ذلك الوقت. والرجلان لم يطل بهما العمر وماتا في عمرين متقاربين، فقد مات الحامد وعمره خمسة وستون عاما، ومات والدي وعمره ثلاثة وستون عامًا. والشاعر الحامد أحد ثلاثة شعراء حضارمة ربط والدي بينهم في أحد مقالاته في صحيفة (الطليعة) الحضرمية في ستينيات القرن العشرين الماضي، وكان بعنوان (حركتنا الثقافية عقيمة)، فقال: "أدباؤنا الذين يعدون على أصابع اليد الواحدة أمثال علي باكثير وصالح الحامد وحسين البار لمعوا في سماء الأدب قبل ظهور الحركة الثقافية الحاضرة... فهم مناضلون كونوا أنفسهم بمجهوداتهم الخاصة". ويقصد والدي بالحركة الثقافية الحاضرة حركة التعليم النظامي الحكومي الحديث التي بدأت في حضرموت في أواخر ثلاثينيات القرن العشرين الميلادي وكان لمدينتنا (غيل باوزير) دور ريادي فيها، إذ تكونت فيها المنطقة التعليمية النموذجية وتأسست بها أول مدرسة وسطى في البلاد، وكان للمدرسين من الأشقاء السودانيين دور محوري في هذه الحركة والنهضة التعليمية الحديثة، بل كان أول ناظر معارف في حضرموت شخصية سودانية ذات أهمية في التاريخ الحضرمي تعدت مجال التعليم إلى مجال السياسة والحكم، ذلك هو الشيخ القدال سعيد القدال.

وما دمنا بصدد الحديث عن الموت والتداعيات المرتبطة به، فإنني أسجل هنا أن الشعراء الحضارمة الكبار الثلاثة، الحامد والبار وباكثير، قد رحلوا عن الدنيا في سنوات متتابعة بانتظام وبفارق سنتين بين كل منهم والآخر. كان أولهم رحيلًا هو الشاعر حسين محمد البار الذي توفي

بتاريخ 10 مارس 1965م، تلاه الشاعر صالح بن علي الحامد وكانت وفاته بتاريخ 4 يونيو 1967م، كما سبق. أما الأديب الكاتب المسرحي والروائي والشاعر الأستاذ علي أحمد باكثير فقد توفي في العاصمة المصرية، القاهرة، بتاريخ 10 نوفمبر 1969م، ويصادف هذا التاريخ بالتقويم الهجري الأول من شهر رمضان عام 1389، أو اليوم الأخير من شهر شعبان، على خلاف بين مؤرخي باكثير. ولكنني أنا أتذكر جيدًا اليوم والتوقيت الذي وصلنا فيه خبر رحيل هذا الأديب الحضرمي المصري البارز عبر إذاعة لندن، كما أرجح، وكنا قد فرغنا من تناول الإفطار في أول يوم من أيام الشهر الفضيل، وأخذنا نحتسي الشاي المصنوع بالطريقة الحضرمية المعروفة والشائعة في وادي حضرموت دون ساحلها الذي كانت تقع فيه مدينتنا غيل باوزير، وإذا بوالدي ينقل لي خبر وفاة باكثير الذي سمعه من المذياع.

هذه الطريقة الخاصة لإعداد الشاي الأحمر كان يستعمل فيها إناء يسمى (البخاري)، وشكله يختلف عن (السماور) الذي يستعمل في روسيا وبعض المناطق الأخرى وحتى في حضرموت نفسها في بعض البيوت، ولكنه يقوم بنفس الوظيفة. وعادة تناول شاي البخاري عادة يومية أصيلة في وادي حضرموت دون الساحل كما أسلفت ولهذه العادة طقوس خاصة جميلة، ولذلك كان لا بد أن يذكر الشاي في أشعار الشعراء الذين ينتمون إلى وادي حضرموت مثل الحامد وباكثير اللذين كانا من أبناء مدينة سيئون. والسبب في أن بيتنا في غيل باوزير كانت تمارس فيه طقوس تناول شاي البخاري هو أن والدتي رحمها الله كانت تنتمي إلى إحدى مدن وادي حضرموت وهي مدينة القَطْن، التي عاش فيها والدي بضع سنوات من عمره وعرف هذه العادة واستطاب المذاق الجميل لشاي البخاري، ولذلك ظل محافظًا على عادة تناوله عندما عاد ليستقر في مسقط رأسه غيل باوزير، وكان يقدمه لضيوفه.

كان الأستاذ علي أحمد باكثير ما يزال مقيمًا في حضرموت في بداية ثلاثينيات القرن العشرين الماضي يحاول بكل ما أوتي من قوة أن يساهم في النهوض بها من خلال نشاطه الثقافي، فكان يدبج القصائد التي تدعو إلى الإصلاح وتستنهض الهمم، وأصدر مجلة خطية – طبعت أعدادها بعد ذلك في مصر – اسمها (التهذيب) تنحو في مواضيعها هذا المنحى. وفي العدد الثالث من هذه المجلة الصادر في 1 شوال 1349هـ الموافق 18 فبراير 1931م نشرت له قصيدة بمناسبة وداع شهر الصيام وإقبال عيد الفطر المبارك، تعد من أجود قصائده المبكرة، ختمها بهذه الأبيات التي يصف فيها شاي البخاري وصفًا رائعًا ويشير إلى بعض العلامات التجارية التي تتعامل في الشاي وكانت رائجة في ذلك الوقت: (باسلامة) و(مشعبي)، ويذكر في آخر بيتين من القصيدة مجلته (التهذيب) وما كان يتمناه ويتوخاه لحضرموت من تقدم ونهوض:

واقذف شياطين الهموم بأكؤسٍ تنقض من برّاد شاي معلم
شاي يفوز من احتساه بلثمة من كل خد في الحسان ومبسم
من (باسلامة) مثل ذوب التبر أو من (مشعبي) مثل لون العندم
مثل الطلا في لونها وصفائها ونقيضها في رجسها والمأثم
لا نقص عنها فيه إلا أنه حلو المذاق وأنه لم يحرم
فاشربه متخذًا نديمك كل ذي أدب متى نادمته لا تندم
واستحضر (التهذيب) واصطبحا على عددٍ جديدٍ بالطرائف مفعم
قبس تألق من سنا حرية سيكون فاتحة النهوض الحضرمي

وردت هذه القصيدة في ديوان بعنوان (أزهار الربى في شعر الصبا) حققه وقدم له الصديق الدكتور محمد أبوبكر حميد وأهداني نسخة منه بتاريخ 18 أغسطس عام 1989م. وكان قد وقع في يدي

قبل ذلك بقليل كتاب بعنوان (أزهار ذابلة وقصائد مجهولة) يضم الأشعار والقصائد المبكرة للشاعر العراقي الكبير بدر شاكر السياب، وهي مجموعة نادرة وقيمة فعلًا من بدايات الرائد الحقيقي للشعر العربي الحديث قام بإعدادها وتحقيقها الشاعر المصري الأستاذ حسن توفيق رحمه الله الذي تكرم بإهدائي نسخة من هذا الكتاب بتاريخ 10 مايو من عام 1989م. وقصة تعرفي عن بعد إلى هذا الأديب والإنسان الجميل قصة يطول شرحها وقد حكيت طرفًا منها في الفصل الذي عقدته للحديث عن الناقد الأستاذ رجاء النقاش من كتابي (كُتّاب في المرآة.. عصارة عمر مع أهل المعنى والفن)، إذ ربطَتْ بين الرجلين صداقة عميقة وعملا معًا في العاصمة القطرية، الدوحة. وقد أغراني وجود هذين الكتابين، اللذين أصدرهما محمد حميد وحسن توفيق، في حوزتي بأن أكتب بحثًا أعُدّه البداية الحقيقية لي بوصفي كاتبًا أو باحثًا أدبيًا أعطيته عنوان (باكثير والسياب.. وقفة مع البدايات الشعرية). وقد ألقيتُ هذا البحث محاضرةً في فرع اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين عندما كان مقره في قصر السلطان القعيطي بالمكلا، ونشره لي الأستاذ حسن توفيق مع نهاية عام 1989م في صحيفة (الراية) القطرية التي كان يشرف على القسم الثقافي بها، ومن المصادفات الجميلة أن هذا النشر تزامن مع مناسبتين يوبيليتين ترتبطان بالشاعرين مدار البحث، هما الذكرى العشرون لرحيل الأديب باكثير والذكرى الخامسة والعشرون لرحيل الشاعر السياب. وفي وقت لاحق اتخذ هذا البحث مكانًا له ضمن الدراسات والمقالات التي ضمها أول كتاب لي في البحث والنقد الأدبي صدر في صنعاء عام 2001م تحت عنوان (في دروب الإبداع.. قضايا يمنية في الأدب والثقافة).

(5)

أشرت في جزء سابق من هذا المقال إشارة عابرة إلى اهتمامي بالترجمة، وهو اهتمام تعود جذوره إلى ولعي باللغة الإنجليزية منذ بداية دراستي لها في المدرسة الوسطى بغيل باوزير، التي كانت

لعدة سنوات هي المدرسة الوسطى الوحيدة في حضرموت، ولذلك كان بها قسم داخلي لسكنى الطلبة الذين يأتون من أماكن بعيدة. وكان من يتولى تدريس هذه اللغة في الغالب هم المدرسون السودانيون، وكنت محط إعجاب هؤلاء المدرسين نظرًا لتفوقي في تحصيل مادة اللغة الإنجليزية وهو تفوق كان يوازيه تفوق في مادة اللغة العربية أيضًا، وقد بدأت كتابة أولى محاولاتي الشعرية وأنا طالب في المدرسة الوسطى.

ظل حب اللغة الإنجليزية يحفر عميقًا في عقلي ووجداني مما جعلني أقتني من مصروفي الخاص عددًا من الكتب الإنجليزية المهمة وأنا ما زلت بعد طالبًا بين الوسطى والثانوية التي انتقلت إلى مدينة المكلا للالتحاق بها لعدم وجود مدرسة ثانوية في غيل باوزير في ذلك الوقت. وأذكر هنا من هذه الكتب التي ما زلت أحتفظ بها: مسرحية (حلم ليلة صيف) لشيكسبير مع شروح وافية لها، وكتابًا يضم عددًا من الأشعار الفارسية المترجمة إلى اللغة الإنجليزية لكبار شعراء الفرس بمن فيهم عمر الخيام في رباعياته الشهيرة التي ترجمها الإنجليزي إدوارد فيتزجيرالد. وأتذكر أن كاتبًا لعله أنيس منصور قال شيئًا في مقالاته التي قرأتها عن رواية للكاتب الإيطالي ألبرتو مورافيا صدرت آنذاك عنوانها (امرأة من روما)، وذات مرة كنت في زيارة للمكتبة الوطنية في المكلا لصاحبها أحمد سعيد حداد، التي اقتنيت منها تقريبًا كل كتب مكتبتي الصغيرة في ذلك الوقت، فإذا بي أعثر على ترجمة إنجليزية لرواية (امرأة من روما) فاشتريتها وأنا في منتهى السعادة، ووجدت من نفسي قدرة على استيعاب تلك الرواية، باستعمال القاموس طبعًا، والاستمتاع بلغتها، ولعلها أشبعت عندي شيئًا من النزوع الفطري نحو الأنثى وأنا في تلك السن الغضة؛ لأنها كانت قصة بائعة هوى، أو مومس، تروي تجربتها بضمير المتكلم. وقد حدث أنني بعد ذلك في الثمانينيات، عندما بدأت (أترجم) اهتمامي بالترجمة عمليًا، أن ترجمت قصة قصيرة لألبرتو مورافيا نفسه عنوانها (الحلم) ونشرتها في مجلة (آفاق) لسان حال اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين

في حضرموت. وهذه القصة من بين عدد من القصص والقصائد الشعرية التي ترجمتها في فترة الثمانينيات ونشرت بعضها أو معظمها في المطبوعات الحضرمية.

وعلى الرغم مما حققته في مجال الترجمة اعتمادًا على مجرد الهواية والممارسة، حتى إنني أخذت بعد ذلك أترجم الكتب وصدرت لي ثلاثة كتب مترجمة حتى الآن، فقد ظلت في نفسي حسرة أنني لم أدرس اللغة التي أحبها أكاديميًا، ولكي أطفئ هذه الحسرة التحقت وأنا على عتبة الستين من العمر بفرع جامعة الأندلس في غيل باوزير، وحصلت على شهادة البكالوريوس بتقدير امتياز من قسم اللغة الإنجليزية وآدابها.

(6)

إن خريف العمر– كما يسمونه– ليس إلا لونًا آخر من ألوان تجدد الحياة، بالضبط كما هو خريف الطبيعة، وليس شرطًا أن يرتبط بالمعاني السلبية التي يعرفها عنه كثير من الناس والتي ربما رسختها بعض أشكال الثقافة السائدة. وعلينا بدلًا من ذلك أن نزرع في النفوس المعاني الإيجابية المرتبطة بهذه المرحلة من الحياة، وديننا الإسلامي الحنيف يشجعنا ويحثنا دائمًا على بث الأمل والتفاؤل وتغليب حسن الظن بالله وما يخبئه لنا المستقبل، مهما كانت الظروف الخارجية المحيطة. ولعل الاشتغال بالفكر والتأمل يوفر لنا جوًا وزادًا يعيد إلى نفوسنا وعقولنا التوازن ويحتفظ للعقول بالنشاط والتوقد إلى مراحل متأخرة من العمر، ويجنبها ما يعرف بالخَرَف.

وللخريف في ثقافتنا الشعبية المحلية، خاصة في الماضي القريب الذي عشناه، نحن الستينيين، مع منتصف القرن الماضي وما بعده بقليل، معانٍ إيجابية توحي بالهدوء والسكينة والراحة النفسية، عندما كان هذا المصطلح يرتبط بما يسمى في لهجتنا المحلية (الظعينة)، وهو الانتقال من مناطق السكنى الرسمية الدائمة إلى المناطق الريفية القريبة والبقاء هناك طوال فصل الصيف

إبان إثمار أشجار النخيل بألوان الرطب اللذيذ، حتى لقد أصبح يطلق على هذا الرطب في اللهجة الشعبية اسم (الخريف).

وكانت عائلتنا وكثير من عوائل مدينتنا غيل باوزير ينتقلون أو (يظعنون) إلى قرية تعرف باسم (الديوان)، تقع إلى جهة الغرب من الغيل. وعلى كثرة الذكريات الحلوة المرتبطة عندي بالظعينة أو (الخُرفة)، وهو مصطلح آخر مرتبط بهذه الفترة مشتق من الخريف، فإن هناك ذكرى تعيدنا إلى ما بدأنا به هذه المقالة، وهي أنني ذاتَ خريف كنت أصطحب معي كتابًا ذا حجم صغير على عكس المعروف عن كتب الأطفال من أنها تتسم بكبر الحجم، وكان ذا غلاف سميك وورق داخلي سميك يميل إلى الاصفرار. كان هذا الكتاب عن الشاعر أحمد شوقي، وأتذكر أنه كانت في نهاية الكتاب صورة شهيرة للشاعر تجمع بينه وهو في أواخر أيامه وبين المطرب محمد عبدالوهاب الذي كان في مقتبل العمر آنذاك، والاثنان يلبسان الطربوش غطاءً للرأس.

ربطت بين الشاعر أحمد شوقي، الذي كان يلقب بأمير الشعراء، وبين المطرب الصاعد عبدالوهاب علاقة وطيدة، لأن الشاعر كان شديد الإعجاب بصوت عبدالوهاب وأدائه وكان يصطحبه معه في سفراته ويفسح له في مجالسه التي تضم علية القوم ورجال الأدب والفكر، ولكن الأهم من ذلك أن عبدالوهاب لحن وغنى بصوته عددًا من القصائد التي كتبها شوقي بعضها بالفصحى وبعضها بالعامية. ومن أشعار شوقي التي غناها عبدالوهاب تلك المأخوذة من مسرحية (مجنون ليلى) التي كانت ضمن آخر ما كتب الشاعر الكبير في حياته من أعمال أدبية. فقد لحن وغنى عبدالوهاب (أوبريت) يمثل جانبًا من المسرحية أدى فيه دور قيس، وشاركته فيه المطربة أسمهان في دور ليلى والممثل عباس فارس في دور المهدي والد ليلى. كما غنى عبدالوهاب أبياتًا مستقلة عن هذا الأوبريت تأتي في نهاية المسرحية وتتكلم عن موضع في نجد يعرف بجبل التوباد شهد ذكريات الحب البريء بين قيس وليلى، ولذلك عُرفت الأغنية باسم (جبل

التوباد). والغريب أن الشيخ (جوجل) يذكر (قرية الغيل) وأنها تقع بالقرب من جبل التوباد، وقد بدأنا المقالة بإيراد الأبيات التي جاء فيها ذكر الغيل من مسرحية (مجنون ليلى).

وكانت مجلة (الهلال) المصرية قد أصدرت في نوفمبر عام 1968 عددًا خاصًا عن الشاعر أحمد شوقي، كان من بين مقالاته مقالة كتبها الشاعر أحمد عبدالمعطي حجازي بعنوان (شوقي رومانتيكيًا)، وكانت هذه المقالة من أكثر مقالات العدد الخاص التي استهوتني في ذلك الزمن وفي تلك المرحلة من العمر. والمقالة طويلة لا يتسع المجال لذكر ما فيها من آراء جميلة، ولكنني سأنقل منها فقط ما قاله عن قصيدة (جبل التوباد):

"سنلاحظ أولًا هذا النغم الشجي الوديع الذي يتنفس من أول القصيدة حتى ينتهي في آخرها نهايته المحكمة:

قد يهون العمر إلا ساعةً وتهون الأرض إلا موضعا

وسوف نلاحظ أيضًا أن الصور واللغة الشعرية أصبحت مألوفة قريبة التناول بعيدًا عن ادعاء النبل، مما ساعدها على الصدق وبالتالي على أن تدخل القلب. وسوف نلاحظ أخيرًا أن هذه القصيدة لا تفصح عن روح قيس كما تصفه لنا الكتب، وإنما تفصح عن روح شيخ متأمل هزه الصدق فانشرح قلبه للذكرى القديمة وفاض بها لسانه الخجول."

تعالوا نختم المقالة بقصيدة جبل التوباد التي هي، كما كتبها شوقي وكما تكلم عنها حجازي، تحمل لي فعلًا نسماتٍ رخيةً من زمن الصبا الجميل.. أسعد أيام العمر، وأنا في كنف أرأف وأرحم وأحنّ أب وأم، إذ كنت وحيدهما! أسأل الله العلي القدير أن يرحمهما كما رباني صغيرًا، وأن يسكنهما الفردوس الأعلى من الجنة:

جبلَ التوباد حياك الحيا وسقى الله صبانا ورعى
فيك ناغينا الهوى في مهده ورضعناه فكنت المرضعا
وعلى سفحك عشنا زمنًا ورعينا غنم الأهل معا
وحدونا الشمس في مغربها وبكرنا فسبقنا المطلعا
هذه الربوة كانت ملعبًا لشبابينا وكانت مرتعا
كم بنينا من حصاها أربعًا وانثنينا فمحونا الأربُعا
وخططنا في نقا الرمل فلم تحفظ الريح ولا الرمل وعى
لم تزل ليلى بعيني طفلةً لم تزد عن أمس إلا إصبعا
ما لأحجارك صُمًّا كلما هاج بي الشوق أبت أن تسمعا
كلما جئتك راجعتُ الصبا فأبت أيامه أن ترجعا
قد يهون العمر إلا ساعةً وتهون الأرض إلا موضعا

غيل باوزير

22 أكتوبر 2020

فصل من مشوار الشعر والنثر والسفر

بقلم : الشاعر محمد الجلواح

دأبْتُ . بحرص واهتمام . على تدوين الأحداث، والمشاهد (بالتاريخ بالهجري، ثم الميلادي) في كل كتاباتي

مدخل:

– كنت العاشر بعد الخمسمائة، والخمسمائة هي عدد الشهور التي كانت تفصلني عن أول حمل لوالدتي من زوجها الثاني، أبي.

– كانت الوالدة – يرحمها الله – تحمل أول مولود لها من زوجها الثاني، ... في الخمسينات الهجرية، وأواخر الثلاثينات الميلادية من القرن الماضي، فينتشر السرور في قطبَيْ الأسرة، ويجتاز المولود شهوره فيخرج للدنيا، فتوليه الوالدة كامل رعايتها.

يبدأ الطفل ينمو حتى الثانية من عمره، وسط فرحة غامرة من الوالدين، وفجأة يموت في هذا العمر!

– تستسلم الوالدة لقضاء الله، وتنتظر حوالي العامين لتحبل، وتجتاز الشهور التسعة فتلد طفلة بيضاء جميلة، تبقى تدب وتحبو في صورة حيوية لمدة عام ونصف، ثم تموت فجأة، ... فتحزن والدتي ثانية، ولكنها تحتسبها عند ربها، ... وتنتظر حوالي عام ونصف آخر لتحبل بالثالث، ... ويبقى عامين فيموت، ... وتنتظر عامين فتحمل بالرابعة، .. وعام ونصف ثم تموت، ... فالخامسة لعامين، فالسادس لعام ونصف، فالسابع لعامين، فالثامن لعامين، فالتاسع لعام ونصف، ثم يموت.

– تحبل بي، وقد وصَلتَ إلى حافة الجنون الفعلي بعد هذه السنوات والولادات والأطفال والموت.

– يكون الحبل في شهر جمادى الأولى، ويقترب شهر محرم، موعد الولادة، ... التي ستتأرجح بين الحياة والموت لهذا القادم.

– تذهب والدتي في إحدى ليالي شهر رمضان المبارك وهي في شهرها الخامس إلى مسجد قريب من المنزل، وذلك في منتصف السبعينات الهجرية، والخمسينات الميلادية المنصرمة / لا كهرباء، ولا طرق مسفلته، ..لا ..لا، ...

– يستجيب اللطيف الكريم دعاء هذه المؤمنة، وتبدأ في وفاء نذرها عاماً بعد عام، يعيش محمد، ويتجاوز سن الموت الذي حصد تسعة إخوة قبله، ويُرزق ابنها الذرية، والشهرة والنجاح على الصُّعد كلها، ولله الحمد، بل يزيد الله من فضله عليها وزوجها، وتنجب بعده شقيقه الوحيد (جعفر)، ويتجاوز سن الموت أيضاً، بعد أن نذرت له هو الآخر لبضع سنين، ... في قصة واقعية لهما قد تقترب من الخيال والغرابة، ورحم الله آباءنا وأمهاتنا.

– حملني والدي الحاج الملا طاهر بن حسين الجلواح الذي قضى حياته معلماً للقرآن الكريم والمبادئ الشرعية إلى معلمة أخرى بالقارة لأكون تلميذها، وتعلمت القرآن في وقت قصير، وحين نشرت أول ديوان لي كتبت لها في مقدمته:

للمؤمنة، ... للصابرة، ...

اللي دارها بالنور

دايم عامرة

خلتني في طفولتي

أتعلم القرآن واحضن ديرتي

واتعلم ان الدنيا

ما تصلح بدون

الآخرة، ...

التحقتُ بالتعليم المسائي لمدة عام أو اثنين لا أذكر.. كنت أخطو نحو الثامنة على ما أظن، ثم المدرسة النهارية إلى الصف الثاني مباشرة، ويصاحبني التفوق ولله الحمد مع المركز الأول حتى نهاية المرحلة المتوسطة.

. بدأت أسمع والدي في عشر السنوات الأولى من طفولتي مُترنّماً بكلام جميل، فسألته عنه، فقال هذا يسمى: الشعر، ... ومنذئذ بدأت أصبو من تلك السنوات التي سافرت، وسافرت معها (راحة القلب)، ولن تعود، ... ويحضرني قول تلك البدوية:

علمي بْراحات قلبي يوم ثوبي شبر ويوم راسي امكشف ما عليه اقناع

. بدأت أصبو إلى دواوين الشعر والكتب والمطبوعات الخليجية التي تصل إلى المنطقة، وبخاصة الكويتية، وكنت أقتطع جزءاً من مصروفي لشراء حلواي المفضلة: الكتب والمجلات، وأحاول الدخول للمكتبات الشخصية لبعض أصدقاء الوالد، وأسرق الكتب للاطلاع عليها، وبخاصة الكتيبات الصغيرة التي يمكن (أن تخبأ في الجيب)، ولكن بعد قراءتها أعيدها في المكان نفسه دون أن أخسر مادياً، ولم أكن أعرف شيئاً اسمه الاستعارة، ... ثم نمَتْ العلاقة بالحروف بطرائق مختلفة، ومع الإذاعة المدرسية وحفلات الكشافة والقراءات المتعددة، ...

وكنت أقَسِّمُ مصروفي الأسبوعي، وليس اليومي الذي كان ثلاثة ريالات تقسيماً دقيقاً لشراء المجلات الكويتية واللبنانية التي كان يشدني . ولا يزال . غلافها الأنثوي!

وهنا سأتجاوز محطات وتفاصيل كثيرة جداً في المرحلة المتوسطة والثانوية كان لها تأثير قوي ومباشر في الكثير مما أنا فيه الآن من تواصل وكتابة وحب وقلق وشعر ونثر وسفر وغيره، ...

الشعر:

. لا بد من ذكر الدور الذي لعبته الأمسيات الشعرية السنوية لنادي الجبل بالقارة في التسعينات الهجرية، والسبعينات الميلادية من القرن الماضي، وحتى نهاية 1408هـ/1988م، ... حيث

كانت تشحذ هممنا في كتابة المزيد والجديد والمجيد من القصائد إلى جانب التنافس الإيجابي بين كل شعراء الأحساء المشاركين فيها، ... وقد كتبت القصيدة باللهجة العامية والفصحى معاً، ولكن الجمهور كان يتجاوب مع العامية أكثر فأكثرت منها، وقللت من أمها، لكني لم أتركها.

وبعد مشاركات كثيرة داخل وخارج الأحساء أقدمت على ارتكاب طباعة أول ديوان بالعامية عام 1410هـ، 1990م، وهو (ترانيم قروية).

وتواصل مشوار الشعر، وامتد إلى الصحف والمجلات والمناسبات الدينية والاجتماعية والجلسات الأدبية والمسابقات الرسمية وحفلات جمعية الثقافة والفنون، والمساهمة لمقاطع ونتف منها في المقدمات النثرية للحفلات التي أشارك فيها وغيرها، ... وبالطبع منها الإخوانيات والردود على قصائد التحية والسلام.

وقد تشكّل لدي ما يمكن أن أقدمه للقراء من قصائد، فاخترت مجموعة منها لتكون أول ديوان بالفصحى، وضمن إصدارات النادي الأدبي بالمنطقة الشرقية عام 1424هـ-2003م بعنوان (بَوْح)، وهنا وجدتني أتذبذب حتى الآن في اتخاذ قرار حاسم حول العودة للكتابة بالعامية من عدمها بعد انقطاع عنها دام أكثر من أربعة عشر عاماً، وكانت قصيدة(اجترار الأسئلة) هي آخر الشحنات الشعبية التي كتبتها عام 1411هـ، 1991م:

وينش إنتِ ؟
عَوَّدَتْ كلّ البلابلْ
وانتِ بَعْدِشْ.. ما رجعتي..
مَطْرَت الدنيا .. بْعِشِبْ أخضَرْ
لكلّ الناسْ، وانتِ ما مِطَرتِي..
حاصَرَ تْنِي كُلْ حَمَامَاتِ الرسايلْ
وانتِ للعنوانْ.. حتى ما تركتي...!
وينـش إنتِ ؟

. في مشوار الشعر كتبت الأناشيد الوطنية والدينية والموشحات وقصائد الأطفال والمقطوعات، وقمت بتلحينها وتدريب الفتيان عليها، وكتبت (اللطميات الحسينية) أيضاً، وكذلك أشعار بعض المسرحيات التاريخية والغنائية، وكتبت ملحمة شعبيه ثنائية الأبيات عدد أبياتها 226 بيتاً تتناول حياتنا في القارة والقرى المجاورة قبيل البترول.

النثر:

أجدني في الواقع العملي والإنجازي ناثراً أكثر مني شاعراً، ... ربما لأن بريق الصحافة مازال يستهويني، ويشدني أكثر من بريق الشعر، أو لأنني استسهلت الكتابة النثرية واستمرأتها عن الشعر، كما أن سهولة النثر لها دورها أيضاً، إلى جانب ملاحقة الأحداث والمتغيرات والحضور الصحفي في المحاور والتحقيقات والقضايا والأعمدة بشكل منتظم وما يكون متوافراً فيه أكثر منه في القصيدة التي تكون في أجواء خاصة منذ لحظة ولادتها حتى نومها على الورق المنشور.

أقول ربما، ... وربما هناك تبريرات وحجج أخرى لا أتذكرها الآن، ... لكنه البريق الصحفي، ورحم الله شوقي قائلاً:

لكل زمان مضى آية وآية هذا الزمان الصحف

صحيح أن لبريق القصيدة خلوداً مميزاً وطعماً مميزاً واحتفاء مميزاً ووهجاً مميزاً، لكنه في نظري – في أغلب الأحيان – أبطأ شهرة من بريق الصحافة والنثر، ولهذا ثار الشاعر في داخلي ذات صباح، وصحوت من سرير النوم وأنا أترنم:

سماحاً أيّها الشِّعرْ
فأنت النبضُ في الصّدرْ
وأنت النومُ والمسرى
وأنت الكرّ والفرّ
وأنت الصّحوُ حين الوعي
يشكُو صَولَة الجوْر ..!

سماحاً أيها الشعر
فأنت الحرف والفكر
وأنت السر والجهر
وأنت الطفل
في الأشياء
تنسابُ مع الحبر

سماحاً إن طغى النثر ..!
وإنْ طالت لياليه ..
وإن كَهربني منه بريقٌ ..
لا أداريه ..
لُجَينٌ خطفَ القلبَ ..
وأقصاه عن النّبْر ..!

– أول الكتابات النثرية كانت دفتر التعبير والإنشاء وموضوعاتها حين كان المعلم يقرأ هذه الموضوعات، ويكتب تحتها عبارة (لله درك)، ومن خلال هذه العبارة الساحرة وغيرها تولّد عندي تقديس المعلم وحبي له، ومحاولة بقاء التواصل معه حتى بعد الفراق وفي هذا أقمت بشكل شخصي حفلاً تكريمياً خاصاً لأبرز أربعة معلمين أثروا في حياتي من مختلف المراحل الدراسية، وقد مكثت أبحث عنهم لأكثر من شهرين داخل الأحساء وخارجها حتى وجدتهم وقد انقضى أكثر من 40 عاماً على لقائي بهم بعد التخرج فحرصت على البحث عنهم وجمعهم في أمسية تكريمية جرت فيها دموع الشوق والذكريات، وكتبت لهم قصيدة قرأتها عليهم في أمسية التكريم، وذلك في مساء الجمعة 6 شعبان 1437هـ – 13 مايو 2016 م ولا أزال احتفظ ببعض كراسات التعبير في المراحل الدراسية جديدة ونظيفة ومرتبة.

وبعد ذلك جاء دور الدخول في مسابقات ثقافية وتاريخية مكتوبة، ثم كتابة الأبحاث والكلمات المطولة، ثم الدخول في بحور الكتابة للصحف والمجلات فينجم عن ذلك كتابة مئات الموضوعات المختلفة في أكثر من 80 مطبوعة عربية على مدى أكثر من 45 عاماً تخللتها كتابة زوايا وصفحات ثابتة عديدة لسنوات متتالية.

ولعل من الطرافة أن أذكر أن أول رسالة كتبتها إلى مجلة كانت لمجلة النهضة الكويتية عام 1391هـ، 1971 م، إلى صفحة بريد الفن، أسأل فيها عن ديانة كل من: سميرة توفيق، وأبو بكر سالم بلفقيه، وفهد بلان، وهيلاسي لاسي، وصباح، وهل كل من سميرة توفيق وليلى طاهر وليلى مراد متزوجات أم لا؟؟

ومن بداية هذه الرسالة الساذجة المراهقة البسيطة يمتد مشوار الكتابة النثرية والتراسل، وتتعدد الأغراض والموضوعات حتى تصل إلى مراسلة أحد رموز الحرية في العالم في القرن العشرين الرئيس الأفريقي نيلسون مانديلا الذي رد على رسالتي، ورحب بزيارتي لبلاده وذلك في أثناء مراسلتي له عام 1421هـ، 2000 م.

ورغم طغيان الكتابة النثرية كانت القصيدة دائمة الحضور بقوة وبصورة متوازية مع النثر لم تغب أبداً، وكنت أحتفل ذاتياً حين أنجز مقالاً وقصيدة في وقتين متقاربين، وهنا لا أستطيع أن أعيش حالة انفصام بين هذين اللونيين أبداً، فالأشياء والإنجازات تحققت للشعر مثلما تحققت للنثر بصورة متوازية، ولعل من أهم المحطات النثرية أو الصحفية بالأحرى هي هواية جمع العدد الأول من المجلات التي ولدت قديمة معي، وأحتفظ بالمجلات في عددها الأول والثاني والثالث، ولدي حتى الآن أكثر من 60 مجلة في عددها الأول أذكر منها مجلة العربي والفيصل، ...

وأذكر أن العديد من المجلات والجرائد السعودية والخليجية نشرت لي مقالات لمرات عديدة في الصفحة الأخيرة منها، وهذه لها دلالاتها المعنوية في العرف الصحفي، ومن تلك المجلات: العربي، الحرس الوطني، الكويت، القبس وغيرها، ...

وقد تعددت ألوان الكتابة النثرية والشعرية فطرقت باب المراسلات كما ذكرت، وبدأت من أصدقاء الدراسة، فزملاء العمل وصفحات التعارف في المجلات، وبخاصة الأسماء الناعمة من سورية ولبنان ومصر والعراق والمغرب ودول الخليج، ثم زملاء العمل والأدباء والقادة ورجال الأعمال

والوجهاء ورجال الدين والفنانين وغيرهم، وبالطبع تدخل في المراسلات تاء التأنيث، ... فلدي كتابات ورسائل متبادلة كثيرة منهن وإليهن، وبخاصة ممن أراها جميلة في الشكل والفكر معاً، وكنت قد كتبت رسالة باللغة الإنجليزية التي أجيدها أيضاً كتابة وحديثاً ونقاشاً وترجمة بحكم عملي في الاتصالات فَنياً في صيانةٍ وتشغيل للمقاسم، ... إلى مذيعتين جميلتين في محطة CNN بل إلى ثلاث، ... ورددن علي، وأرسلن لي صورهن وتوقيعاتهن وشكرهن، ...

كما أن هناك مراسلات من معجبات كثيرات بعضهن معروفات في الساحة محلياً وعربياً وبعضهن تلاشى لأن ولي أمرها أو زوجها قد وأدها إبداعياً وتراسلاً خوفاً عليها من أشكالي، أو خوفا منها أيضاً..!!

وفي النثر أيضا سأتجاوز العديد والكثير من المحطات والمواقف والإنجازات، ... رغم كل ما ذكرته على امتداد أكثر من أربعة عقود ونيف لنصل إلى المحطة الأخيرة، وهي مشوار السفر الذي أكشف فيه عن الكثير من جوانبه للمرة الأولى، ...

ولكن قبل ذلك نسيت أن أشير إلى أنني حاولت أن أرصد شيئاً من الكتابة النثرية في كتاب (مسارات) الصادر عام 1414هـ، 1993م، ولقد صدر بعد كتاب (مسارات) كتاب (فضاءات) بجزأيه الأول والثاني، وهو كتاب مماثل لكتاب (مسارات) يرصد مجموعة أولى من المقالات النثرية، وتلتهما الإصدارات الأخرى في الشعر والنثر بحسب ما هو مرصود في صفحة السيرة التعريفية الذاتية.

السفر:

أود التأكيد على حقيقة دامغة، وأنا أصل إلى الجزء الأخير من قراءة أوراق المشوار إلى أن كل نشاط وعمل وسفر وغيره هو في الأساس بحث عن النافع والمفيد قبل أن يكون بحثاً عن غير ذلك، وهذه المقدمة الاستهلاكية هي إحدى نقاط الضلع الثالث من أضلاع عنوان الموضوع، وجزء لا يتجزأ منه، على غرار ما يكتب في مقدمات الاتفاقيات.

بدأت أول خطوة تجاه السفر عام 1391هـ، 1971م حين سافرت إلى البحرين "باللنج" –المركب– من فرضة وميناء مدينة الخُبَر المطلة على الخليج العربي في الجزء الشرقي من المملكة لزيارة

أقاربي في المحرق، وقد كان "اللنج" لحمل البضائع، وكانت البضاعة ثمرة (البوبر) وكنت أنقلها من أسفل "اللنج" إلى فرضة المحرق لقاء نقلي إلى البحرين مجاناً.

. ولم تهدأ تلك الخطوة حتى هذه اللحظة، وفي المفكرة سفر قادم إلى عدد من الدول كأرمينيا واليونان وماليزيا وطاجيكستان، وبين الخطوة الأولى في البحر والبحرين وآخر خطوة عشرات الدول والموانئ والمطارات والمدن والفنادق والرجال والنساء والحقائب والأرقام والأوراق والشقق المفروشة وصالات المطارات والقصائد والأوراق والموضوعات والكتب والمواقف والمفارقات والغرائب والشجار والحب العاثر والحب المحلق والريالات والعملات والشعوب والعادات وغيرها، ...

لكن يبقى لبعض الدول والسفرات طابعها الخاص وتأثيرها، فقد كتبت عن معظم المدن والدول التي سافرت لها، ولا أشك أبداً أن كثيراً من القُراء قد سافر إلى دول ومدن أكثر بكثير مما سافرته ولعدة مرات.

ولكن لأن مفردة السفر هي الورقة الأخيرة هنا كما قلت، فقد لزم الأمر أن نذكر ذلك، ...

سافرت ـ حتى الآن ـ الى كل دول الخليج لأكثر من مرة، وإلى العراق ومصر ولبنان وتونس والجزائر والمغرب والسودان، والهند وسوريا وإيران وتركيا وتايلاند وإسبانيا وألمانيا وأمريكا، وسأقف بسرعة عند عدد محدود جداً من بعض الدول بصورة غير انتقائية.

في كل دولة أبادر بالذهاب إلى المتاحف والسوق، وألتصق بالناس، وأركب سيارات النقل العام، كما أذهب إلى الفنادق والأماكن الراقية، وأرتاد المكتبات، وأحرص على لقاء أي مسؤول في الإعلام، وقبل ذلك أكون قد حصلت على بعض المعلومات أو الكتيبات من السفارة، وأحرص على تسجيل جوازي في السفارة السعودية في كل دولة، وفي كل مرة.

أحاول أن ألتقى رجالات الفكر والأدب والإعلام والاقتصاد ومن لديهم القدرة على الشعور بوجودي، ...

إلى جانب محاولة معرفة بعض مفردات اللغة للبلد الذي أزوره، فإذا عرفت البلد وعبارات التحية والتسوق وغيره قمت بتوسيع البرنامج.

في البحرين، وقبل قيام الجسر كنت أُهَرّب دواوين نزار قباني في صفطات الفوالين في كل مرة، وكنت أشتري الحلوى في علب كبيرة، وتحتها الكتب الممنوعة، ... ومن له حيلة فعليه أن يحتال! وفي البحرين أيضاً خفق القلب لها ذات مرة، ولكنها أرسلت لي رسالة لاتزال ترنّ، وتجنّ، وتطنّ في أذني وهي جملة من أغنية عراقية قديمة:

بيني وبينك بحر...
وش عبَرّك لِيّه ...

فأوصد هذا الباب إلى الأبد.

– في قطر أطللت من التلفزيون لأول مرة عام1400 هـ– 1990 م في لقاء عابر، وتبعه فيها وهْمَان عاثران كنت أظنهما حبّين.
وعلى ذكر دولة قطر فقد التقيت بالقاهرة بالشاعر القطري/الفلسطيني الراحل الأستاذ: معروف رفيق، وهو من أصل فلسطيني، ... التقيته عام 1422هـ، 2001م في أمسية شعرية كنا نقيمها هناك، وما إن قدمت له نفسي إليه حتى عانقني، وقال لي: أشعر أنني أعرفك منذ زمن طويل، وما كان منه إلا أن أخذ قصاصة ورق وكتب عليها:

يا أيها الجلواح طاب لقاؤنا إني أراك مُحَلِّقَ الإنشادِ
مهما تباعَدَت البلاد فإننا كبلابل في (دوحة) الإنشاد

ففوجئت بهذه الورقة، ورددت عليه بعد حين محاولاً توظيف معنى اسميه: (معروف)، و(رفيق)، وقلت:

أسديتَ (معروفاً) بشعرك مخلصاً وورثت نُبْلَكَ عن كريم أيادِ
في (دوحة) الإنشاد أو (أحسائنا) يبقى البيان (رفيقَنا) والنادي

– وفي الإمارات كانت الصعلكة النافعة وغير النافعة إحدى الخطوات، لكنني ختمتها بزيارة مركز جمعة الماجد التراثي، ثم لقاء الشاعر الراحل سلطان العويس صاحب إحدى الجوائز الإبداعية العربية.

– وفي العراق تبقى في الذاكرة منها محطات هامة وكثيرة، يصعب حصرها، منها الوصول والتعرف إلى عائلة الجلواح في مدينة البصرة بعد حديث متكرر عنها من الوالد، ووجدت أنها أسرة كبيرة تحمل اسم الجلواح، قدم أجدادهم من الأحساء قبل أكثر من200 عام بحسب وثائقهم، وأظن أنهم هاجروا إلى العراق ضمن عشرات العوائل الأحسائية التي هاجرت إلى مدينة البصرة إبان تلك الفترة وبعدها، وقد كتب الباحث الأحسائي الشيخ محمد بن علي الحرز كتاباً أسماه: (أحسائيون مهاجرون)، فيه تفاصيل هامة عن تلك الهجرات.

– وفي الهند وجدت طفلاً متسولاً خلط قراءة سورة الفاتحة مع أغنية سعودية معروفة وكلمات هندوسية، ويقول بعد قراءة الفاتحة:

واساري سرى الليل

حبيبي وين الهيل

عطونا الله يعطيكم

بيت مكة يوديكم،

يا حبيبي أنت وياي

وأنا وياي

ييه زمان هيلكيا..

مي ديل كاديوانا...

ييه بابا غريب مسكين

ورأسه يميل كالزنبرك من الجهتين،....

وفيها دخلت معبداً سيخياً، وأخبرني الكاهن أن الكتاب المقدس لديهم لابد أن يكون مفتوحاً طوال الدهر، وإلا ستخسف الأرض بمن عليها بمجرد أن يغلق الكتاب، ولهذا فإن سبب بقاء الأرض سالمة هو استمرار فتح الكتاب بحسب اعتقادهم.

. وفي إيران أكلت علقة من سيدة أربعينية؛ لأنني قلت لها جملة فيها غزل لم أكن أعرفها، ... وكان الإيراني الأهوازي الذي علمني إياها أنها تحية، وعبارة، ومعناه: كيف الحال؟.... وإذا هي: أنت جميلة جداً، ...

. وفي أمريكا دعتني سيدة جميلة لتناول وجبة إفطار الساعة الرابعة والنصف فجراً في مطعم خاص لعمال المناجم وصناعة الفحم وعمال الأنفاق والجسور على أطراف مدينة "بيتسبرغ" في ولاية "بنسلفانيا"، ... وحين ذهبت وجدت المطعم أبيض، وكل شي فيه أبيض، والعمال سود من الأمريكان الإفريقيين، ... ووجبة الإفطار كانت "آيس كريم أبيض"، ...

. وفي مصر فتنتني نساء القاهرة والإسكندرية، فوجدت من خلالهن أن كل شي فيها جميلاً، حتى فصل الحرامي الذي سرقني في القطار من القاهرة للإسكندرية.

وفي بعض السفر التقيت مع بعض الزعماء ورجال الفكر وصانعي الأحداث، وأذكر منهم: الرئيس الجزائري السابق عبد العزيز بو تفليقه، وأم الشهيد محمد الدرة، والرئيس السوداني الأسبق عبد الرحمن سوار الذهب – رحمه الله– وولي العهد المغربي الأمير رشيد، والسيدة سوزان مبارك زوجة الرئيس المصري الراحل، وفاروق شوشة، والسيد مصطفى جمال الدين – رحمه الله – وغيرهم الكثير، ...

تراب قرطبة:

وأختم فصل السفر بمقطع من الحديث عن السفر إلى قرطبة في شهر شعبان 1425هـ، أكتوبر 2004 م.

المسافة بين مدريد العاصمة التي اسمها تحريف من كلمة (مجريط)، وأصلها مع اختلاف الروايات والتفسيرات: (مجرى ياط)، ومعناها: مجرى النهر لوادي (ياط) وهو واد صغير كانت تقوم على سفح نهره الذي جف الآن، ... قرية صغيرة جداً قليلة الشأن اسمها قرية(وادي ياط)،

ولأنها تقع على مجرى نهر ياط، سميت "مجرى ياط"، ... فتحرفت بالتخفيف والتصحيف والزمن إلى: مجريط، ... ولأنها لم تكن مزدحمة فقد نمت مع مرور الوقت، وأصبحت مدينة كبيرة، حتى آل الأمر لها أن تكون العاصمة، ... هذا ما عرفناه من المختصين بالشؤون الأندلسية، ومنهم العلامة المعاصر الأستاذ الدكتور المصري "محمود مكي" – رحمه الله– وبعض المستشرقين الأسبان الذي كانوا معنا في دورة ابن زيدون بقرطبة.

أقول المسافة بين مدريد وقرطبة تأخذ نحو ساعتين بالقطار إلى الجنوب الغربي، وربما لن أضيف شيئاً عما يعرفه القراء الذين (تذوقوا) متعة السفر في قطارات أوروبا والغرب، ... فقد عرفناها في ألمانيا وأمريكا، ... وعرفها غيرنا في بلدان أوروبية وغربية أخرى.

ويمكنني أن أقول مطمئناً: إن السائح لن يشعر بندم لو كانت (هجرته) فقط ليسافر في إحدى قطارات أوروبا أو أمريكا، فالحديث عنها طويل وذو شجون جميلة.

في القطار كانت المشاعر تشتعل، وتضطرب، وتتموج كأنها الطوفان، ... وقبيل الوصول تفتقت الفكرة المجنونة الساذجة الطريفة المؤثرة الجميلة الحزينة المؤلمة الشاعرة الحالمة، ولم أتردد في تنفيذها رغم اضطراب المشاعر وعدم سكونها، ...

وصلنا مدينة قرطبة، وازداد خفقان القلب، ... تماماً كأنني أقابل حبيبة مُتَمَنِّعَةً للمرة الأولى، ... أو أنتظرها لتأتي في موعد جميل أخذ من الصبر والأعصاب والقلق وتطويع الوقت للظروف الشيء الكثير!!

نزلنا في محطة قرطبة للقطارات، وكانت الحافلات التي أعدّتها لنا مؤسسة البابطين ـ مشكورة ـ والتي ستقلنا إلى الفنادق المقررة لنا، تنتظرنا في المحطة.

بدأ الأحبة الضيوف يأخذون أمتعتهم الخفيفة من القطار معهم إلى الحافلات حسب الترتيبات القائمة من المؤسسة، أما الأمتعة الثقيلة فقد سبقتنا إلى غرفنا في الفنادق، .. كل باسمه وبغرفته، ...

أخذ الأخوة في الدخول إلى الحافلات، ... ولكني لم أدخل؟

لاحت أمامي قرب (الباص) ساحة رملية، فوقفتُ على الرصيف، ونزعت حذائي (الجوتي) ـ أعزكم الله ـ والجوارب (الشرّابات)، وفي الأحساء نسميها (الدّلاَغات) ومشيت إلى المكان الرملي حافياً، وذلك حتى أقنع نفسي أنني وطأتُ بقدميَّ مباشرة تراب قرطبة!

والغريب أنني لم أصدق قدمي، بل رجعت القهقرى قليلاً؛ لأرى بعيوني (أثر) القدمين على الرمل!!

حينها، شعرت بارتياح وفرح وحزن وحب وضيق وقلق وكراهية وحنان وغضب ومشاعر نفسية وروحية أخرى غير قابلة للتفسير الدقيق.

لبست (الدلاغات) والحذاء، وهرعت للحافلة التي اكتملت بالركاب المقررين لها سواي، وزميلنا في المؤسسة الأستاذ "عادل عزت" الذي لديه قائمة الأسماء يصيح: الأستاذ محمد الجلواح.. الأستاذ: محمد الجلواح.. «هو فين؟»، فكان وجهه يقابل الركاب، ويداه تحملان أوراقاً وبطاقات وغيرها؛ للتأكد من وجودي في مقعدي، وفجأة أدخل بحركة سريعة وخاطفة، وأربت على ظهره، وأقول له:

. إيه الدوشة دي يا أستاذ؟!!

فيفزع مني، ويقول: كنت فين يا أستاذ؟ فقلت له: كنت على التراب!!

بعضهم ممن رآني في الموقف الرملي المذكور بدأ يتندر، وينقل الصورة إلى بقية الأصدقاء والضيوف، و(اشتغلت) التعليقات و(القفشات)، والتف حولي في الأيام المقبلة عدد من ضيوف المهرجان حتى من الغربيين المدعوين، وكثير من النساء العربيات والأسبانيات الجميلات، وغير الجميلات أيضاً، يسألونني عن الرمل! ... وقد سمّاني أحد الإخوة المصريين الظرفاء: (آدم قرطبة) على اعتبار أن أبينا آدم قد خُلِقَ من تراب!

مِنْ سيرةٍ ذاتيّةٍ للشّاعرِ الدّكتورِ أكرم جميل قُنْبُس

بقلم: د. أكرم جميل قنبس

د (أكرم بن جميل بن عبد النّبي بن عبد الحميد بن عُثمان بن حسين بن قُنبس بن علي المنصور العطيفي من ذري من ولد علي بني وهب من ضنا مسلم من قبيلة عنزة (بني وائل) وهي من قبائل العرب الكُبرى. (وينحدر من عنزة: ضنا بشر، وضنا مسلم).

(الفصل الأوّل)

في سهل حوران الخَصيبِ إلى الجنوبِ الغَربيّ من مدينة دمشق بما يُقارِبُ خَمسة وسبعين كيلومِتراً، وإلى الشَّرق من مدينة القُنيطرة، تقع قرية"الحارَّةِ" – وهي اليومَ مَدينةٌ – تتربعُ على أعلى مُرتفعٍ في تلك المنطقة الإستراتيجيّة، وفي بيتٍ مَبنيّ من الحجارة البازلتيّة والطّين، وصباح يومٍ شَتَويّ هو الرّابِعُ من شهر كانون الثّاني/يناير/لعامِ 1957م كانت ولادة الطفل الثّالث "أكرم" في أُسرته بعد أَخويهِ: غازي، وفوزي.

وتلك الفترة من فصل الشّتاء تكون قاسية البرودة حيث موسِمُ "المَربعانية" التي تمتدّ أربعين يوماً، كما تكون الأمطار والثّلوج أكثر غزارة فتفيض الينابيع الطّبيعيّة وعيون الأرض ماءً زُلالاً، وتتدفّق الوديان، وتمتلئ البِرَكُ والآبارُ مياهاً يستثمرها الفلّاحون وأهل القرية في احتياجات حياتهم وسقي مواشيهم وبعض مزروعاتهم الصّيفية.

وفي فصل الرّبيع تكتسي المنطقة كلّها بساطاً أخضر مزداناً بألوان كثيرة من الأزهار التي تصدح رائحتها مع الطيور في كُلّ مكان واتّجاه، فتنشرح النّفوس والقلوب، ويعيش الأهل في رغد من العيش، ويأمنون على حياتهم وحياة مواشيهم ومزروعاتهم، فيا لروعة المنظر، ويا لعظمة الخالق على هندسة الطبيعة السّاحرة، وعلى نِعَمِهِ الكثيرة! وكم كان صوت ثُغاء الغنم والماعز،

وجئير الأبقار، وصهيل الخيل يملأ المكان حين تنطلق الحياة إلى بَسط صباحها إلى يوم عمل ورعي في السهول المُمتدّة.

وفي مطلع فصل الصّيف تكون زراعة المزروعات الصّيفيّة كالبطّيخ والقثّاء والباميا‌ء والذّرة الصّفراء والحُمّص والبندورة واليقطين والفاصولياء، والكوسا، والخيار، ... كما يكون موسم حصاد المزروعات كالقمح والشّعير والكرسنّة والبيقياء والعدس، ...

في هذه الطّبيعة الجميلة والحياة الرّيفيّة المتواضعة والدافئة، وفي بيتٍ كان له تاريخٌ عريقٌ بالنّسبة إلى أهل القرية في مجال التّعليم، حيث لم تكن هناك مدرسة للتّعليم النّظامي إلا في منتصف القرن العشرين، كانت الكتاتيب هي الوسيلة الوحيدة للتعلّم، وكان جدي لوالدي الشّيخ "عبدالنبي" – رحمه الله– هو شيخ وإمام ووكيل قرية الحارّة – وذلك كما يقول الختم الخاصّ به، وكما يُثبِتُ ذلك قيدُ النّفوس الّذي تابعت معلوماته في مدينة الصّنمين عام 1988م– وهو مُعَلِّم أبناء القرية كافّة، وبالتّالي فإنهم جميعاً يعلمون مكانته بينهم، وما قام به من جهود تعليميّة امتدّت من عام 1850 إلى عام 1950 حيث كانت وفاته– رحمه الله– وذلك قبل ولادتي بسبع سنوات، وقد حفظ والدي – رحمه الله– القُرآن الكريم على يدي والده، وتولّى بعده تعليم الكتاتيب الشيخ أحمد الخوالدة "أبو عايد" – رحمه الله.

عندما كنت أجلسُ مع كبار السِّنِّ ممن تعلّموا القراءة والكتابة، وحفظوا القُرآن أوْ شيئاً منه على يدي جدّي كانوا يُحدّثونني عن أيّام دراستهم، وعن جدّي، ويذكرونه بأخلاقه العالية، وتفانيه في تعليمهم، وقد اكتسب والدي وعمّي "علي" منه هذه الخصال الحميدة التي يعرفها أهل قريتي عن هذه الأسرة.

رضع الطّفل الثّالث في الأُسرة من أُمِّه رضاعة طبيعيّة تامّة، وكان يكبر شيئاً فشيئاً، وقد حرص والداه على تعليمه في المدرسة الابتدائيّة الجديدة التي كان مَبناها مؤلّفاً من ثلاث غُرَفٍ مبنيّة من

الحجارة البازلتية، وتمتدّ أمامها مساحة واسعة من الأرض كُنّا نلعب فيها بارتياح، ومن كان يُريد إكمال دراسة الشّهادة الابتدائيّة وما بعدها فعليه أن يذهب إلى مدينة الصّنمين حيث تُعدّ مركزاً مهمّاً لكثير من إجراءات قيد النفوس والتعليم والتجارة.

أمّا المُعلّمون الّذين قاموا بتعليمنا في تلك الأيّام فعليهم أن يُقيموا في قريتنا طوال الفصل الأوّل، والفصل الثاني، ولا يذهبون إلى أهلهم إلا في عطلة منتصف العام الدراسي– عُطلة الرّبيع كما كانوا يُسمّونها، وهي لمدّة أسبوعين– وفي نهاية العام؛ وذلك لقلّة سيّارات النقل، ولصعوبتها، ولرغبتهم في العيش بين أهل القرية الذين كانوا يُقدّمون إليهم كل عونٍ وتقدير واحترام، حتى الطّعام والماء مجّاناً.

كان أهل قريتنا يُحبّون بعضهم كثيراً، ومازالوا، ولذلك لن تجد بينهم شيئاً من البغضاء والعداوة، بل يغلب عليهم طبع السماحة والأمانة والأخلاق العالية، والنجدة، وإكرام الضّيف، وإغاثة الملهوف، والتّعاون والإيثار، بالإضافة إلى طبيعة منطقتهم الجميلة، مما انعكس ذلك كلّه على سلوكهم وحياة أبنائهم وأجيالهم.

كان أكرم يُحبّ التّعليم، ويحرص عليه، ويُشجّعه على ذلك أبواه، ممّا جعله ناجحاً في مسيرته، وفي الوقت ذاته بدا مشغوفاً بجمال الطّبيعة السّاحرة من حوله، بكل فصولها، كما كان مُصغياً برهافة إحساسه إلى زقزقات الطّيور، وخرير جداول الماء، وتدفّق الينابيع، ومُتفاعلاً مع الأهل في حصاد مواسمهم من القمح وغيره، وكان يُشارك في الحصاد، وفي نقل الغِلال إلى البيادر على ظُهور الجِمال، ومن ثَمَّ تكون مرحلة دَرس القشّ من خلال لوحٍ خَشبي مدقوق في أسفله الحصا البازلتي القوي، ويجرّه حصان أو فَرس، وكانت الأغاني والهجيني والأناشيد الشّعبية تنتشر على امتداد هذه البيادر والحقول حسب المواسم.

وقد ذاق الفتى مع أبناء وطنه مرارة هزيمة حرب حُزيران عام 1967م، وعاشها بكل أحداثها، من احتلال إلى الجولان، وتهجير لأهله، وقد كانت جدّته "يُمنة"- والدة أُمِّه- تملك بيتاً في مدينة القُنيطرة، ففقدته على إثر ذلك، وهدم الاحتلال المدينة، فعاشت في قرية الحارّة حتى وفاتها – رحمها الله-.

في عام 1971م، كان الفتى في الصّف التّاسع، وقد بلغ الرابعة عشرة من عُمره، فولِدَتْ أُولى الدّفقات الشِّعريّة على لسانه، وكان يومها برفقة صديقه الأستاذ "يوسف عبدالله الحوامدة" في الجهة الشّماليّة الشرقية من القرية، بالقُربِ من بُستانٍ يُسَمّى "كَرم الشِّحلاوي"، شَرقيّ تَلِّ الحارّة الكبير، وكان الوقت أوائل شهر "نيسان"، ولم يكن يومها يعرف شيئاً عن أوزان الشِّعر، أوْ عِلْم عَروض الشِّعر، فأكثر ما يعرفه هو أنه كان يحفظ القصائد الشِّعريّة، ولاسيّما التي كانت في المنهاج المدرسي، بالإضافة إلى ما كان يسمعه من جدِّه لوالدته "أحمد محمد قُنبس"، ومن والدته – حمدة- رحمهما الله- فقد كانا يقولان الشِّعر الشَّعبي ارتجالاً وحفظاً، وما يتردّد على ألسنة أهل القرية وشعرائها الشّعبيّين في المُناسبات والأعراس.

أمّا أولى دفقاته الشِّعريّة، فيتذكّرُ منها قَوْلَهُ كما كتبها:

الخَيْرُ في بَلَدي كَثيرْ وَبِدَوْحِهِ روحي تَطيرْ

قلبي يُغازِلُ حُسْنَهُ فَكأنَّهُ قَمَرٌ مُنيرْ

عاش أكرم كغيره من أهل قريته عاشِقاً للطّبيعة، ومُتواصلاً معها، وخبيراً بنباتاتها ومزروعاتها، وأحوالها، وكم كان يذهب مع أصدقائه للبحث عن بعض النّباتات التي يعشق أكلها أهل القرية،

مثل: العكّوب، والهندباء، والقرصعنّة، والخرفيش، والسّنينيرة، والصُّوي، والفرفحينا، والحُمّاض، والرّشاد، والعاصميّة، والمُرّار، والكَلَثون، والحُلبة، والخُبّيزة، ... كما كان يُحِبُّ صيد الطّيور كثيراً، ولاسيّما مع أصدقائه: علي، وعبدو، وطُعمة، وعبدالباسط، وجمال، ونايف، ... مثل طيور "السُّمّان، والطّيطموس، والزّرازير، وعصافير التّين، والبياضيّات، وورد في شعره قوله:

وَأَركُضُ أَركُضُ خَلْفَ الطُّيورِ فَقَد كُنْتُ في صَيْدِها مُشْغَفا

***

في عام 1972م بَنى والده – رحمه الله– بيتاً في منطقة "القَدم" في دمشق، حيث اشترى مساحة من الأرض؛ لكي يُيَسِّر على أبنائه مسيرة تعليمهم، ولذا فقد درس الصّفَّ العاشِرَ في ثانويّة "أبي تمّام" في قرية "جاسم"، وانتقل إلى مدرسة "عبدالرّحمن الكواكبي" الثانوية في منطقة "الميدان" في دمشق في الصّفِّ الحادي عشر، وكانت بساتين "القدم" الجميلة تحتضن الناس بجمالها، وبِالطُّلّاب الّذين ينتشرون للدراسة بين أحضان طبيعتها، ولم تكن تلك البساتين تبخل فيما تجود به أشجارها من ثمار المشمش، والتّين، والتّوت، والجوز، والخوخ، ...

وفي السادس من شهر تشرين الأول/ أكتوبر/ من عام 1973م حدثت حرب تشرين التحريريّة التي قامت بها سورية ومصر؛ لاستعادة الأرض المغتصبة، وتلتها ستة شهور من حرب الاستنزاف على الجبهة السّوريّة، كانت فيها قريته ميداناً لمعارك طاحنة، وقد خسرت أُسرته جُزءاً من بيتها في القرية نتيجة القذائف التي كانت تُلقيها طائرات العدو بشكل عشوائي، وارتحل بيتُ عمّه وخاله إلى دمشق، وشاركوهم في السكن ببيتهم إلى حين من الوقت.

وفي مدرسة "عبدالرّحمن الكواكبي" في دمشق نال الثّانويّة العامّة، والتحق بجامعة دمشق، فسجّل في البداية في كُليّة الحقوق استجابة لرغبة بعض الأهل والأصدقاء الّذين أغروا ذلك به من حيث أنه سيصبح مُحامياً أو قاضياً أوْ ضابطاً في الشّرطة، ولكنّه لم يمض سوى أُسبوع واحد حتّى تمّ تغيير تسجيله إلى كُليّة الآداب، قسم اللّغة العربيّة وآدابها؛ وذلك استجابة لنداء داخليّ مختلف في تقديراته الإنسانيّة بالنّسبة له، وهذا له علاقة بالعدالة والظُّلم وإحقاق الحقّ وإنصاف الناس في حقوقهم، وبذلك بدأت مسيرة تعليمه الجامعي.

***

استقبلت جامعة دمشق هذا الشّابَّ القَرَويَّ الولادة والنّشأة، وكان في إذاعة دمشق برنامج أسبوعيّ عنوانه "أقلام واعدة" يُقدّمه الشّاعر"أحمد الجُندي" – رحمه الله– ويتلقّى ما يُرسِلُه المُستمعون من القصائد، ويقول فيها شيئاً من التّوجيهات، فقام أكرم بإرسال بعض مقطوعاته الشِّعريّة إليه، ومنها قوله:

يا قَلْبُ ما لَكَ في الأَزَلْ بِالحُبِّ مُنْذُ الأَزَلْ

الدَّهْرُ مُعظَمُهُ ضَنى والعُمرُ أَكثَرُهُ فَشَلْ

ومن مقطوعة أُخرى قوله:

سوريا أمضَتْ سِنيناً في الكّفاحِ والنِّضالْ

كيفَ نَنساها وَشَعبي قَد تَبارى في القِتالْ

حَربُ تشرينَ لِواها في ميادين النِّزالْ

وكانَ ممّا قاله له الشّاعر "أحمد الجُندي": "أمّا قصيدتُك الأولى، ففيها تشاؤمٌ لا نُريدُهُ لك، وأمّا الثانية ففيها روحٌ وَطنيّة نُهَنِّئُك عليها، وننصحك بتنمية موهبتك من خلال قراءة الشِّعر، ودراسة النّحو والبلاغة".

شَعَر أكرمُ يومَها بأنّ الشّاعر "الجندي" يشدّ على يديه لإكمال مسيرة الشِّعر، وكذلك كان، وبدأ يقرأ في دواوين الشّعر العربي، ويشارك في أُمسيات شعريّة كثيرة في مُجتمعه، وفي كُليّة الآداب، وفي جامعة دمشق، حتى أصبح طلبتها وأساتذتها يقولون: "أكرم جميل قُنبس" شاعر كُليّة لآداب، ولكن لم يكن وحده، فهناك كثير من الشّعراء الذين كانوا يُشاركون في الأُمسيات، ومنهم: جمال الجيش، وحَمّاد الشَّعراني– رحمه الله– وأحمد مصطفى الحسن، ومها قَنّوت، ... وكان لأكرم شرف المشاركة مع شعراء كبار، منهم: سُليمان العيسى، وشوقي بغدادي، ووليد مشوّح، وحسين حموي، وممدوح عدوان، ويوسف الخطيب، وحسن البُحيري، والدكتور أسعد علي، ونصر الدّين البحرة، ... وذات أمسية قال الدكتور أسعد علي لأكرم: "أنت شاعر مبدع، فإذا ما نويت إصدار ديوان شِعري فسأكتب له مقدّمة، وكذلك كان في مقدمة ديوان "لهيب الانتماء"، كما كان الدكتور "فهد عكّام" أستاذ النّقد الأدبي من المُعجبين جداً بشاعريّة أكرم، والدكتور "موسى باشا" رئيس قسم اللّغة العربيّة آنذاك، والدكتورة "عزيزة مريدن" أستاذة الأدب الحديث، وسواهُم، ... وقد نشر أكرم كثيراً من قصائده في الصحافة والمجلّات الأدبية داخل سورية وخارجها، وشارك في أُمسيات ومهرجانات شعريّة، وتمّت استضافته عدة مرات في إذاعة دمشق، وفي التلفزيون العربي السّوري، وشارك في برنامج "الشِّعر وأجيال الشُّعراء" الذي بثّه التّلفزيون لمدة شهر في عام 1989، ورحّب به الشاعر "مدحت عكّاش" للنّشر في صحيفة ومجلّة الثّقافة اللتين كان يُصدرهما أسبوعيّا وشهريّاً، وغنّت له الفنّانة "أماني الحكيم"– وكانت طالبة في الصف العاشر يومها– قصيدة نالت المركز الأوّل في المهرجان القطري الأوّل للأُغنية الملتزمة، ومن القصيدة قوله:

ليلى زندُ بطولتي

ليلى نبضُ رجولتي

ليلى حرسَتْ أرضَ بلادي

ليلى جمعَتْ شمْسَ ودادي

***

عمل أكرم في أيام الدراسة الجامعيّة مُعلّماً في عدّة مدارس في ريف دمشق منها مدرسة "داريّا المُحدثة"، و"بالا"، و"حمّوريّة" في غوطة دمشق، وفي مدرسة "شُكري القوّتلي" و"قطر النّدى" و"سعد بن أبي وقّاص" بمدينة دمشق، ثُم التحق بخدمة العَلَم في الجيش العربي السّوري لمدّة سنتين ونصف كان وقتها برتبة مُلازم مُجنّد، وخدم مُدرّساً في مدارس أبناء الشّهداء بدمشق، واستطاع وقتها الحصول على دبلوم الدراسات العُليا في التّربية وطرائق التدريس، كما تقدّم لمسابقة انتقاء المُدرّسين، ونجح فيه، وأصبح بعد انتهائه من خدمة العَلم مُدرّساً للغة العربيّة في ثانويّة "أبي تَمّام" في قرية "جاسم" لمدّة شهرٍ واحدٍ، ثم تمّ نقله إلى ثانويّة "معروف الأرناؤوط" في مدينة دمشق، وظلّ فيها إلى حين قدومه إلى دولة الإمارات العربيّة المتّحدة مُدرّساً للّغة العربيّة صباح يوم الإثنين 1991/9/30م.

***

عندما قَدِمَ أكرم جميل قُنْبُس إلى دولة الإمارات العربيّة المتّحدة بدأ يتعرّف إلى الأوساط الثّقافيّة، فاستطاع بعد شهرين من قدومه أن يُشارك في مسابقة شعريّة أعلنت عنها وزارة الإعلام آنذاك، وتمكّن من الحصول على المركز الثّالث على مستوى الدّولة، وتمّ تكريمه في احتفال خاصّ مع الفائزين في مدينة أبوظبي في الثاني من شهر ديسمبر/ كانون الأول 1991م، ثمّ تواصل مع

اتّحاد كُتّاب وأُدباء الإمارات في الشّارقة، وأصبح عُضواً فيه، ويحمل الرّقم (56)، وشارك في أنشطته دون انقطاع، وفي مؤتمراته الثقافية والأدبية، وكان عضواً في لجنته الثقافية لعدّة سنوات، كما استضافه تلفزيون الإمارات العربيّة المتحدة في الشّارقة، وفي دُبي والفجيرة عدّة مرّات، وله لقاءات كثيرة مُسجّلة في قناة الشّارقة الفضائيّة، كما نشر قصائده في الصّحافة الإماراتيّة، وفي مجلّة (المُنتدى) التي كانت تصدر في دُبي، وكذلك في مجلّة (الرّافد) التي تصدر عن دائرة الثّقافة في الشارقة، وفي مجلة (دُبي الثقافيّة)، ... وشارك في أنشطة النادي الثقافي العربي في الشارقة منذ قدومه إلى الدولة، وهو عضو شرفٍ فيه، وعضو في اللجنة الثقافية، كما شارك في افتتاحيّة بيت الشِّعر في الشارقة عام 1997م، وفي أُمسياته الشّعريّة ومهرجاناته كلّها، وكان عضواً في مُنتدى الشُّعراء الذين احتضنهم بيت الشِّعر، كما كان أوّل من تمّ تكليفه بتنفيذ ورشةٍ في فَنِّ العَروض وكتابة الشِّعر في شهر فبراير من عام 1998م بالتعاون مع سعادة الأستاذ عبدالله بن محمد العويس، والأستاذ عبدالكريم سويدان – رحمه الله– وشارك عضواً في جمعيّة حماية اللغة العربيّة التي تمّ تأسيسها في الشارقة في 1999/9/28م، وشارك في أنشطتها المتعددة، واحتفت به أُمسيات الشِّعر ومهرجاناته ومجالسه شاعراً منذ قدومه، ومازالت، ونال جوائز كثيرة، وشهادات تقدير وشكر، ومافَتِئَ صَدّاحاً على دوح الشِّعر، ومتواصلاً مع شُعراء وطنه المُقيمين على أرض دولة الإمارات العربيّة المتّحدة وخارجها، ومُشاركاً في تحكيم جوائز كثيرة.

***

عمل أكرم جميل قنبس بالتّربيّة والتّعليم، فقد عمل مُدرِّساً للّغة العربيّة في مدرسة "الشُّعلة الخاصّة" لمدة أربع سنوات، ثم مدرّساً للغّة العربيّة في مدرسة "معاذ بن جبل الثانويّة" في الشارقة بتاريخ 1995/9/5م، ولمدة اثني عشر عاماً، ثُمّ موجّهاً للّغة العربيّة في دُبي في العام الدراسي

2007– 2008م، ثُمّ موجّهاً للّغة العربيّة في الشّارقة إلى صيف عام 2014م، ثم تمّ نقله إلى إدارة المناهج في وزارة التربية والتعليم ليكون اختصاصيّاً لتأليف مناهج اللغة العربيّة حتى نهاية العام الدراسي 2020م، وقد درس خلال الأعوام 2002–2004 في المعهد العربي للطّبّ النّبوي وعلوم الأعشاب في الشارقة.

(الفصل الثاني)

أنجز ونشر أكرم جميل قُنبس خلال عقود مسيرته السابقة إبداعات كثيرة في مجال الشِّعر والدّراسات الأدبيّة والنّقديّة واللّغوية، وفي طبّ الأعشاب، وهذا ما تتحدّث عنه السّطور الآتية:

– شـاعِرٌ وأديبٌ وباحِثٌ من الجمهوريّة العربيّة السّورية.

– عضو اتحاد الكُتّاب العرب في سورية– عضو جمعية الشعر/1994.

– عضو اتحاد كُتّاب وأدباء الإمارات/1994)، (عضو اللجنة الثقافية لبضع سنوات).

– عضو اللّجنة المُساهمة في إصدار العدد الأوّل من مجلّة (قاف) الصّادرة عن اتحاد كُتّاب وأدباء الإمارات/2011.

– عضو شرف في النّادي الثّقافي العربي في الشّارقة – عضو اللّجنة الثّقافيّة.

– عضو الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب – الأمانة العامة – 1994.

– عضو المجلس العالمي للغة العربية/2009.

– عضو المؤتمر العالمي الخامس للغة العربية(دمشق 29–2008/6/30).

– عضو المؤتمر العالمي السادس للغة العربية(بيروت 8 – 2009/12/10).

– عضو جمعية حماية اللغة العربية في الشارقة(1999).

- عضو مؤتمر الشارقة الدولي الأول للطب البديل (وزارة الصحة) تشرين الأول/أكتوبر/2003.

- عضو مجلس إدارة المعهد العربي للطب النبوي وعلوم الأعشاب/الشارقة/2003-2006.

- عضو الجمعية العربية للطب التكميلي/الكويت/لبنان.

- عضو مجلس توجيه مادة اللغة العربية في منطقة الشارقة التعليمية(2009-2014).

- عضو المؤتمر الدولي الثاني للغة العربية/دبي/مايو 2013.

- عضو المؤتمر الدولي الثالث للغة العربية/دبي/مايو 2014.

- عضو المؤتمر الدولي الرابع للغة العربية/دبي/ مايو 2015.

- عضو المؤتمر الدولي السادس للغة العربية/ دبي/مايو 2017.

- عضو المؤتمر الدولي الرابع للغة العربية/ المركز التّربوي للّغة العربيّة/الشّارقة/يناير 2020.

- عضو لجنة تدريب طلّاب المدرسة الإماراتيّة في دولة الإمارات العربيّة المتّحدة لأداء ملحمة (أسطورة الأب) بإشراف وزارة التّربية والتّعليم/نوفمبر 2018/دبي.

- عضو لجنة إعداد(بنك الأسئلة) لمادة اللّغة العربيّة في وزارة التّربية والتعليم في دولةِ الإماراتِ العربيّةِ المُتَّحدةِ/2012-2014.

- عضو لجنةِ تطويرِ وَتعديلِ منهاجِ اللّغةِ العربيّةِ للصّفّينِ الثّامنِ والتّاسعِ في وزارةِ التّربيةِ والتّعليمِ في دولةِ الإماراتِ العربيّةِ المُتَّحدةِ/2014.

- عضو لجنةِ إعداد دليل منهاجِ اللّغةِ العربيّةِ للصّفّينِ الثّامنِ والتّاسعِ في وزارةِ التّربيةِ والتّعليمِ في دولةِ الإماراتِ العربيّةِ المُتَّحدةِ/2014.

– مُقَرِّرُ وعضو لجنةِ تأليفِ منهاجِ اللّغةِ العربيّةِ للصّفِّ العاشرِ في وزارةِ التّربيةِ والتّعليمِ في دولةِ الإماراتِ العربيّةِ المُتَّحدةِ/2015.

–عضو لجنةِ إعداد دليل منهاجِ اللّغةِ العربيّةِ للصّفِّ العاشرِ في وزارةِ التّربيةِ والتّعليمِ في دولةِ الإماراتِ العربيّةِ المُتَّحدةِ/2015.

– عضو لجنةِ تأليفِ منهاجِ اللّغةِ العربيّةِ للصّفوف(التاسع– العاشر– الحادي عشر) في وزارةِ التّربيةِ والتّعليمِ في دولةِ الإماراتِ العربيّةِ المُتَّحدةِ /2016.

– عضو لجنةِ تأليفِ منهاجِ اللّغةِ العربيّةِ للصّف الثّاني عشر في وزارةِ التّربيةِ والتّعليمِ في دولةِ الإماراتِ العربيّةِ المُتَّحدةِ/2017.

– عضو لجنة مراجعة وتعديل منهاج اللغة العربية للصف العاشر في وزارةِ التّربيةِ والتّعليمِ في دولةِ الإماراتِ العربيّةِ المُتَّحدةِ/2018– 2019.

– عضو لجنة مُقابلة مُعلّمات اللّغة العربيّة ومُعَلّميها المُتَقَدِّمين لوظيفة تدريس اللّغة العَربيّة في وزارة التّربية والتّعليم في دولة الإمارات العَربيّة المتّحدة لِعامَي/2018– 2019.

– عضو موسوعة (جينيس) للأرقام القياسيّة؛ لأكبر توقيع كتاب في العالم من خلال منصّة معرض الشّارقة الدّولي للكتاب/نوفمبر/تشرين الثّاني 2019.

– ديوانه "تجليات عاشق الأبجدية" الصادر عن جمعية حماية اللغة العربية في الشارقة/عام 2014/أول ديوان في تاريخ الشعر العربي يخص اللغة العربية بقصائده.

– نشر أعماله منذ مطلع الثمانينيات من القرن المنصرم، وشارك في مهرجانات ومؤتمرات وندوات ولقاءات، وفي مئات الأمسيات الشعرية، وفي لقاءات مع قنوات فضائية وإذاعية.

– كُتِبَتْ حول شعره دراسات، كتبها أساتذة أكاديميون، منهم: الأستاذ الدكتور "أسعد علي" والأستاذ الدّكتور "خليل الموسى" والأستاذ الدّكتور إسماعيل مروة، والأستاذ الدّكتور صفاء الدين أحمد فاضل، وصدر عنه كتاب بعنوان: مقاربة تداوليّة في ديوان "نداء الضّاد" للشّاعر أكرم جميل قُنبس، بقلم الأستاذ الدكتور سعيد عمّوري، دار المنتهى، الجزائر/ط20016/1.

– نشر عشرات الأبحاث في طب الأعشاب، ولاسيّما في مجلّة "الصحّة والطّب" بالشّارقة.

– تُرجمت بعض قصائده إلى الإنكليزية، وغيرها، ووردت في امتحانات تقييميّة متعددة، منها اختبار اللغة العربيّة للصفّ الثّاني عشر 2009/ و: 2012، في دولة الإمارات العربيّة المتّحدة.

– شارك في تحكيم مسابقات كثيرة، منها:

– عضو لجنة تحكيم مسابقة (كُتّاب الخَمسين)، وزارة التّربيّة والتّعليم في دولة الإمارات العربيّة المتّحدة/2020.

– عضو لجنة الخُبراء الشّرفيين لتحكيم مسابقة (المخزون اللّغوي) التي نفذتها جمعية حماية اللغة العربية في الشارقة على مستوى دولة الإمارات العربية المتحدة لطلاب المراحل الدراسيّة كافّة، وذلك في موسمها الثالث 2020.

– عضو لجنة تحكيم مسابقة تحدّي القراءة العربي على مستوى دولة الإمارات العربيّة المتّحدة/ 2020.

– عضو اللجنة العُليا لتحكيم مسابقة تحدّي القراءة العربي على مستوى دولة الإمارات العربيّة المتّحدة 2019.

– عضو لجنة تحكيم مسابقة (فارس الشِّعر) برعاية هيئة الشّارقة للكتاب والمجلس الأعلى لشؤون الأُسرة في الشّارقة في مهرجان الشّارقة القرائي للطّفل/أبريل 2019.

– عضو لجنة تحكيم مسابقة الخطابة في جائزة سمو الشّيخة لطيفة بنت محمد بن راشد لإبداعات الطّفولة 2019.

– عضو لجنة تحكيم مسابقة "قصّتي" الّتي أطلقتها مؤسّسة "محمد بن راشد آل مكتوم" للمعرفة بالتّعاون مع وزارة التّربية والتّعليم/2019.

– عضو لجنة تحكيم مسابقة (فارس الشِّعر) برعاية هيئة الشّارقة للكتاب والمجلس الأعلى لشؤون الأُسرة في الشّارقة في مهرجان الشّارقة القرائي للطّفل/أبريل 2018.

– عضو لجنة تحكيم مسابقة (المخزون اللّغوي) التي نفذتها جمعية حماية اللغة العربية في الشارقة على مستوى دولة الإمارات العربية المتحدة لطلاب المراحل الدراسيّة كافّة، وذلك خلال شهري فبراير/ مارس 2018.

– عضو فريق وزارة التربية والتعليم في دولة الإمارات العربيّة المتّحدة لتحكيم مسابقة (رادار القراءة) بالتّعاون مع المجلس الوطني للإعلام/2017.

– عضو فريق وزارة التّربية والتعليم لتدقيق ومراجعة وترجمة ملفّات المتقدّمين لجائزة "محمد بن راشد آل مكتوم" للأداء الحكومي المتميّز، الدّورة الرّابعة/2016.

– عضو لجنة تحكيم مسابقة "القصّة القصيرة" الّتي أطلقتها مؤسّسة "محمد بن راشد آل مكتوم" للمعرفة بالتّعاون مع وزارة التّربية والتّعليم/2016.

– عضو لجنة تحكيم مسابقة "تحدّي القراءة" في دولة الإمارات العربيّة المتّحدة/ مايو 2016.

– عضو اللّجنة المشرفة في وزارة التربية والتعليم في دولة الإمارات العربيّة المتّحدة على مُبادرة "أقدر للكتابة" الإبداعيّة في برنامج خليفة لتمكين الطلاب/2016.

– عضو لجان تحكيم مسابقة الإبداع الأدبي (الشّعر، والخطابة) في جائزة سمو الشّيخة لطيفة بنت محمد لإبداعات الطّفولة 2003– 2012.

– عضو لجان تحكيم مسابقة (الشّاعر الواعد) في وزارة التربية والتعليم بدولة الإمارات العربية المتحدة 2008– 2014.

– عضو لجان تحكيم مسابقة الإبداع الأدبي (الشّعر)– الدّورة السّادسة/ 2009، المجلس الأعلى لشؤون الأسرة/الشّارقة.

– عضو لجان تحكيم تحكيم مسابقة "نجوم العلم" على مستوى دولة الإمارات العربية المتحدة لطلاب المرحلة الثانوية للعام 2013 في وزارة التربية والتعليم، والتي تمّ تسجيلها وبثّها حلقاتها من تلفزيون دُبي.

– عضو لجان تحكيم مسابقة "أشبال الضّاد الشّعريّة" في منطقة الشّارقة التعليمية 2009– 2014.

– عضو لجان تحكيم مسابقة الشّعر في دائرة الثّقافة والإعلام في الشّارقة بمناسبة اختيار الشّارقة عاصمة للثقافة الإسلامية 2014.

– عضو تحكيم مسابقة (الشعر) في جمعية المعلمين في الإمارات 2004 – 2007.

– تقديم محاضرة وقصائد شعرية في الإدارة العامة للإقامة وشؤون الأجانب في مدينة "أبو ظبي" بمناسبة إعلان نتائج مسابقة (لُغتي عزّتي) احتفاءً باليوم العالمي للغة العربية، وذلك يوم الثلاثاء 2014/12/23.

* المؤهّلات العلمية:

– إجازة جامعية في اللغة العربية وآدابها.(جامعة دمشق).

– دبلوم دراسات عُليا في التّربية وطرائق التدريس.

– دبلوم في الطب النبوي وعلوم الأعشاب.

– دكتوراه في العلوم الصحية والطب البديل.

* من الدواوين الشعرية الصادرة:

1– صلاة على روح امرأة، صدر بالتعاون مع اتحاد الكُتّاب العرب في دمشق 1992.

2– إليك يا حبيبتي، منشورات اتحاد الكتّاب العرب في دمشق 1993.

3– لهيب الانتماء/دمشق 1996.

4– أبابيل الأقصى/مؤسسة علوم القرآن/الشارقة 2001.

5– طائر الأمنيات/مؤسّسة علوم القرآن/الشارقة 2007.

6– نِداء الضّاد/مؤسّسة علوم القرآن في الشارقة 2008.

7– رسول التوحيد/دار الصدى في دبي2009.

8– ليل جيكور/دائرة الثقافة/الشارقة/ط2010/1.

9– قمر الحجر/اتحاد كُتّاب وأدباء الإمارات/ط2011/1.

10– قنديل لمدينة مُتعبة/دائرة الثقافة بالشارقة/ط1(كتاب مجلة الرافد/نوفمبر 2011).

11– طائر الفينيق/دائرة الثقافة والإعلام في الشارقة/ط2014/1.

12– ترانيم على ضِفافِ الشّارقة/منطقة الشارقة التعليمية– ط1 2014.

13– تَجلّياتُ عاشقِ الأبجديّةِ/جمعيّة حمايةِ اللّغةِ العربيّةِ/الشّارقة/ ط2014/1م/ ط2/وزارة التّربية والتّعليم في دولة الإمارات العربيّة المتّحدة 2019.

14- أسفار عاشق- وزارة الثقافة/دولة الإمارات العربيّة المتّحدة/2017.

15- أُنثى تُغنّي- 2018 (مسار للطباعة/ دُبي).

16- أغاريدُ قلب- دائرة الثقافة/الشارقة/ ط1/2019.

17- للإمارات نشيد القلب- وزارة التّربية والتّعليم في دولة الإمارات العربيّة المتّحدة 2019.

18- بلابِلُ الأبجديّة- وزارة التّربية والتّعليم في دولة الإمارات العربيّة المتّحدة 2019.

19- وَفاءً لِأُمّي- وزارة التّربية والتّعليم في دولة الإمارات العربيّة المتّحدة 2019.

20- حكايات شعريّة- وزارة التّربية والتّعليم في دولة الإمارات العربيّة المتّحدة 2019.

* من الجوائز التي حصل عليها:

- جائزة الشعر الثالثة في دولة الإمارات العربية المتحدة/وزارة الإعلام 1991.

- جائزة أفضل قصيدة في مسابقة جمعية المعلمين في الإمارات 1995.

- جائزة يوم المستقبل الثاني عشر 1997/وزارة التربية والتعليم والشباب في الإمارات.

- جائزة الشعر الأولى/مسابقة أسبوع الأسرة، رواق "عوشة بنت حسين" الثقافي/دبي 1999.

- جائزة الشعر الأولى في مسابقة (عطاء القلم)/منطقة الشارقة التعليمية 2003.

* صدر له في مجال الدراسات:

- بدوي الجبل شاعر العربية والعرب/دار المعرفة/دمشق 1990.

- معجم الإملاء العربي/ دار الوسام_ الشارقة – بيروت/ط1، 1994/ط2، 1998.

- عبد القدوس الأنصاري من روّاد الأدب والفكر العربي والإسلامي/دار الفرائد/ دمشق 1996.

- التربية الوقائية والسلوك التعليمي/دار عالم الكتب/بيروت 2005.

– ديوان الإمام الشافعي/هيئة المعرفة والتنمية البشريّة/دبي/ط2009/1.

– خير الدين الزِّركلي شاعر الوطن/وزارة الثقافة/ الهيئة العامة السورية للكتاب/دمشق/ط2011/1.

– طائر الشِّعر الجميل/دراسة في شعر الدكتور شهاب غانم/وزارة الثقافة/أبو ظبي 2015.

– الرّؤى العسجديّة في شعر الدّكتور عارف الشّيخ/وزارة التّربية والتّعليم في دولة الإمارات العربيّة المتّحدة 2019.

– الرّؤى العسجديّة في شعر الدّكتور عارف الشّيخ/دبي/ط2020/2.

* صدر له في مجال الطب الطبيعي:

– المنهاج في الطب الطبيعي وعلوم الأعشاب/دار عالم الكتب/بيروت 2005.

– مجرّبات الحكماء في علاج مرض السكر/دار عالم الكتب/بيروت 2005.

– علاجات الشفاء ببركات السماء/دار عالم الكتب/بيروت 2005.

– مستشار الإنسان في الغذاء والدواء/دار البشائر/دمشق 2007.

* وردت عنه ترجمات في:

– معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين/الكويت 1996.

– موسوعة أدباء وشعراء العرب/د. محمد حمود، ج2/دار الفكر اللبناني/بيروت2001.

– كما عرفتهم: فصول من سيرة ذاتية/د. إسماعيل مروة/دار البشائر/دمشق 2003.

– معجم الشعراء منذ عصر النهضة/د. إميل بديع يعقوب، ج2، دار صادر/بيروت.

– سفراء الخيال/أصواتٌ شعرية في الإمارات/عزت عمر/وزارة الثقافة/الإمارات/ط2009/1.

* صدر له بالمشاركة:

– القدس في عيون الشعراء/صدر في الإمارات 2010.

(الفصل الثالث)

مِمّا قيل في أكرم جميل قُنبس

– أكرم جميل قُنبس، شابٌّ لَديهِ مَوهِبَةٌ شِعريّةٌ واعِدَةٌ، وَعاطِفَةٌ وَطنيّةٌ جيّاشَةٌ نُهَنِّئهُ عليها.(الشّاعر أحمد الجُندي1979).

– الشّاعرُ أكرم جميل قُنبس يتقدّمُ اليومَ الصّفوفَ في خدمة القصيدة المُلتزمةِ، ويوفّر فيها أمثلةً متنوّعةً على درجةٍ عاليةٍ من الجودةِ في السَّبْكِ، والدّقّة في التّعبيرِ، والصِّدقِ في المُكاشَفَةِ، والضّبطِ للأحداثِ، والتّغنّي بالقيمِ، ممّا سَيَذكرُهُ التّاريخُ الأَدبيُّ بِإِجلالٍ. (أ. عدنان بن ذريل 1990).

– شعر أكرم جميل قُنبس يُعيدُ لي ثقتي بالشِّعر العربي.(أ. د. سمر روحي الفيصل/1991).

– هذا الشّاعرُ – أكرم جميل قُنبس – صوتٌ سَمِعتُهُ في جامعةِ دمشق، وأقولُ: إنَّ هذا الصّوتَ أَصالَةٌ تُقاوِمُ الإطفاءَ، وَدَعوةٌ تُرنّمُ لِمَلكوتِ الكلماتِ، ... وقصيدة "انقسامات الحجر" هي ثامنةُ أناشيدِ ديوانِهِ "لَهيب الانتماء" وهذه القصيدة الأصيلةُ تحتاجُ من النّقّادِ مثل العناية الّتي منحوها "أُنشودةَ المطر".(أ. د. أسعد علي/ جامعة دمشق/ مقدّمةِ ديواني: لَهيب الانتماء/ط1/1996).

– أكرم جميل قُنبس، شاعِرٌ طاوَعَتْهُ القوافي، وهو جَبَلٌ مِنْ جِبالِ الشّامِ. (د. عبدالكريم حسين/جامعة دمشق).

– أكرم جميل قُنبس، شاعِرٌ نَفخرُ بهِ في التّربيةِ وَالتّعليمِ في دولة الإماراتِ العَربيّةِ المُتّحدةِ، وهو خَليفةُ الشّاعرِ "أبو تَمّام" في عَصرِنا، وإلى مَدرستِهِ يَنتمي إبداعاً وَمَنهجاً وَأَصالةً وَمَوْلِداً. (سعادة الدّكتور "حمد محمّد اليحيائي" وكيل وزارة التّربية والتّعليم المُساعد لِقِطاعِ المناهجِ والتّقييم في دولةِ الإماراتِ العربيّةِ المُتّحدةِ/2018.

– الشاعرُ الدّكتور أكرم جميل قُنبس، من سادة البَيانِ والبَديعِ في عَصرنا. (أ. د. عمر عبدالعزيز).

– الشاعرُ أكرم جميل قُنبس يُسجّلُ الأحداث تسجيلاً دقيقاً، وهو ذو عاطفةٍ فيّاضةٍ، وطائر الوطن الجميل الّذي يفرشُ أجنحةَ الوفاءِ أينما كان. (د. الأديب إسماعيل مروة).

– الشّاعر أكرم جميل قُنبس "شاعرُ العَربيّة وعاشقُها وحارسُها".(د. غازي مُختار طُلَيمات).

– أكرم جميل قُنبس "شاعرُ البَيانِ العَربي.(أ. د. رشاد سالم/ مدير الجامعة القاسميّة في الشّارقة/2016).

– الشّاعر أكرم جميل قُنبس"عَندليب اللّغة العَربيّة".(د. عبدالله الدّنّان).

– الشّاعر والنّاقد الدّكتور أكرم جميل قُنبس رَمْزٌ مِنْ رموزِ الثّقافةِ العَربيّةِ السّوريّةِ.(الشّاعر الدّكتور "أحمد أسعد الحارة"/2018.

– أكرم جميل قُنبس مِنْ فُحولِ الشُّعَراءِ الكِبار، وهو سُلطانُهم بحقٍّ في زَمنِنا، وهنيئاً للّغة العربيّة الّتي أنجبَتْ شاعراً مُثقّفاً عالِماً.(أ. د. علي القاسمي، أديبٌ، وَعضوٌ في عِدّةِ مجامع للّغة العربيّة).

– أكرم جميل قُنبس جَميلٌ شاعِرٌ مُبدِعٌ في زَمنٍ غاب فيه الشِّعرُ الجميلُ.

(د. هنادا طه/خبيرةٌ في اللّغة العربيّة ومناهجها).

– أكرم جميل قُنبس مِنْ كِبارِ الشُّعراءِ العَربِ في القَرنِ الحادي والعِشرين.(سعادة الدّكتور أحمد بن ناصر الرّيسيّ).

– أكرم جميل قُنبس فَحلٌ من فحول الشِّعر العربي في عصرنا.(الشّاعر الدّكتور عارف الشّيخ).

– أكرم جميل قُنبس أميرُ الشِّعر والشُّعراء بكلّ جدارةٍ. (د. جاسم عبدالكريم آل علي).

– الشّاعر الدّكتور أكرم جميل قُنبس عَميدُ الشِّعرِ العَموديّ، وَمَلِكُ الشِّعرِ الأَصيلِ، وَشاعِرُ القيمِ والجَمالِ، ورائِدُ القَريضِ والإبداعِ المُتألِّقِ الّذي قَلَّ نَظيرُهُ.(د. أحمد بوغنبو).

– الشّاعر أكرم جميل قُنبس مِنْ أَقوى الشُّعَراءِ المُعاصِرينَ ديباجَةً، ويندر أمثالُه في زمننا.(د. رائد الحاج).

– أكرم جميل قُنبس يُعَدُّ مِنْ شُعراء القصيدة العربيّة الأصيلة بامتياز، وهو أوّل شاعرٍ يُصدِر ديواناً تنبضُ قصائدُهُ كلّها بِحُبّ اللّغة العربيّة، فَلَهُ الرّيادةُ وقَصب السّبق في هذا الإبداع المتميّز.(أ. د. رضوان الدّبسي).

– الشّاعر أكرم جميل قُنبس مُبدعٌ وَمُجَدِّدٌ في شِعرِنا العربي، وأنحني إجلالاً لخطابه الشِّعريّ.(د. هشام عبدالعزيز).

– أكرم جميل قُنبس قامةٌ شِعريّة سامقةٌ، لا تقلّ شاعريّةً عن شُعراء العربيّة الكبار.(د. محمّد عيادات).

– بِكُلِّ أَمانَةِ، أَجِدُ في شِعْرِ الدّكتور الشّاعر أكرم جميل قُنبس بَلاغَةَ اللّغةِ العَربيّةِ، وَجَمالَ الوَصْفِ، والإحساسَ العَربيَّ والإسلاميَّ والإنسانيَّ.(الشّاعرة صالحة غابش/ المُستشار الثّقافي في المجلس الأعلى لشؤون الأُسرة في الشّارقة).

– أكرم جميل قُنبس شاعِرٌ مُبدِعٌ، وَهو أَشْعَرُ الشَّبابِ، ومن أهمّ الشُّعراء الّذين قابلتُهم.(أ. د. خلدون الصُّبح/ جامعة دمشق).

– الشّاعر أكرم جميل قُنبس من رُتبةِ أبي تَمّام، والمُتنبّي، وبدوي الجبل، والجواهري، ...(د. أحمد العقيلي).

– أكرم جميل قُنبس إنسانٌ، وَشاعِرٌ أصيل، وهو عَميدُ الشِّعر العَربيّ في القَرنِ الحادي والعِشرين، وتجربتُهُ ثَرّة وذات مُستوىً فَنّيّ عالٍ.(الأديب"محمّد محيي الدّين مينو).

– أكرم جميل قُنبس شاعر يمتلك براعة في الوصف والتّصوير، وإنَّ مَجدَ الشِّعرِ يليقُ به شاعراً كبيراً.(الشّاعرة ساجدة الموسوي).

– الشّاعرُ الدّكتور أكرم جميل قُنبس هو سُلطانُ الشِّعرِ وأميرُ البيان العربي.(الشاعر عدنان صبحي شحادة).

– أكرم جميل قُنبس شاعِرُ العَربِ الكبيرُ بِلا مُنازِعٍ، بَلْ هو شاعِرُ الأُمّةِ، وأَميرُ شُعَراءِ العصرِ الحديثِ.(د. إبراهيم الوحش).

– الشّاعر الدّكتور أكرم جميل قُنبس هو أميرُ الشِّعر العَربي المُعاصِر.(د. فوزي محمّد وليد العك).

– أكرم جميل قُنبس شاعرٌ أتعبَ الشُّعَراءَ في إنجازِهِ الشِّعريِّ الرّائعِ.(الشّاعر رعد أمان).

– الشّاعر الدّكتور أكرم جميل قُنبس هو سُلطانُ الشِّعرِ، وشاعِرُ الحِكمةِ والحكايةِ الشِّعريّة بأسلوبه الرّصين، وهو رَمْزٌ منْ رموزِ شِعرنا الأصيل وفُحولِهم، كالمُتَنبّي، وأبي تمّام.(الشّاعر حمد النّعماني).

بقلم: أ.د. محمد أبو الفضل بدران

- وقال لي: مَن أنا؟

"أنا" رجلٌ يبيع الحلمَ بالكلماتِ،
يقرأُ آيةَ الكرسي
أنا الأمويُّ، عَشَّاقٌ لفاطمة، وسُنّيٌّ مع الفاروق/
أنا أبتاعُ وَهْمَ حقيقة الدنيا
وأشربُ من مياه النيل أغنيتي
وأسكبُ دمعةَ الأحزانِ في نهرٍ لدجلةَ يا حُسَيْن/
أنا أوطاني امتدتْ لقرطبةٍ
وعادت خطوتيْن/
أنا وَهمٌ،
وليت الوهمَ كان حقيقةً
فدفَنْتُ أشلائي على باب البقيع
ورحتُ أركع ركعتيْن/
أنا العباسُ والفرناسُ والقرطاسُ، كُرديٌّ مع الأكراد، صوفيٌّ مع الزُّهَّاد، خمّارٌ مع الأوراد، أبحرني بحار الشوقِ، أسكرني مع العُبّاد، أبحرني بلا شطٍّ، وأنزلني جبالَ القافِ، أسكرني بأشعارٍ، وأيقظني بحفّارٍ على باب القبورِ، يبيعُ أكفانَ الهوى، والناس مجتمعونَ حولَ المؤردِ القدسيّ،
إذْ أُسريتُ في بيدِ الوصولْ/
وصلتُ، صرتُ الواصلَ الموصولْ/
كنتُ القاتلَ المقتولْ

لا بحر الهوى بحري
وروحُ الروحِ رسمُ دخولْ/
"أنا" ما عاد لي منها سوى ألفٍ تميلْ/
لعلّها اتكأتْ على "نونٍ"
غَدتْ كفراشةٍ طارتْ على عُش الهوى
غَنَّتْ على "أَلِفٍ" ومازالتْ تقولْ!!

- أول يوم دراسة:

كانت ليلة أول يوم في الدراسة تعد عيداً لنا، حيث قَبْلها يأخذنا أبي – رحمه الله– لشراء ملابس المدرسة من شركة بيع المصنوعات المصرية التي تحولت للزوم التطوير والعصرنة إلى شركة بيانكو!

ونشتري الأحذية من شركة (باتا) التي اختفت بفعل الزمن، لتحل محلها الأحذية الصيني والتركي، وكأننا لا نستطيع أن نصنع شباشبنا وأحذيتنا، فمتى نثق في منتجاتنا المحلية؟ وتعود صناعة الجلود المصرية إلى سابق مجدها؟

وكان طابور الصباح متعة فنستمع إلى توجيهات ناظر مدرستنا الأستاذ رمضان الطويل – رحمه الله– الذي كان رفيقاً في خشية، وشديداً في رحمة، ونستمع إلى نصائح الأستاذ عبدالفتاح آدم متعه الله بالصحة وهو يتحدث في بلاغة لسان وفصاحة بيان شارحاً ومُربياً، ثم يُلقي الطلاب الشعر والحِكم والقصص، ثم الموسيقى والرياضة، ونمضي إلى فصولنا في حب للعلم والمدرسة.

وكم أتعجب كثيراً عندما أتذكر كيف كان مُدرّسونا يعطوننا حصصاً إضافية قبل طابور الصباح وبعد الانصراف دون مقابل مادي!

لكن كان مرتب المدرس يكفيه لحياة كريمة ودور مجتمعي رائد.

- الحصاد في قريتي العويضات

ذكّرني موسم الحصاد بأيام الطفولة، حيث كان مصدر بهجة وفرحة للأطفال، كان العمال يحصدون القمح بمناجل في أيديهم النحيلة ثم يكوّمونه في "جُرْن" كبير وتتجاور "الجرون"، كل قبيلة لها جرونها في أرضها، كانت جرون القمح وبجوارها جرون الفول وجرون الحِلبة تبدو مثل الأهرامات المتجاورة، لاسيما أننا كنا أطفالاً صغاراً نجري حولها، ونختبئ في لعبة "الاستغماية" وراء القش، لكن أجمل خطوة مفرحة هي النورج، وهى دوائر حديدية في قِطَع خشبية تجرها الأبقار والعجول لفًّا فوق القش كي تدرسه، أي تقطع القش إرباً إرباً حتى تُفصل البذور عن الأعواد لكنها ما تزال مختلطة بعد، كنا تختلس ركوب النورج وهى تلفّ الهويني فوق الجرن، وأستمتع بحداء سائق النورج، كان الحقل يتحول إلى نوارج متجاورة وحداء جميل، وكم كان الكبار يُبعدوننا عن النورج خوفاً من أن تنزلق أقدامنا تحتها، وتقطع حواف الدوائر الحديدية أجسادنا الصغيرة؛ ومع ذلك كنا نركب فوق كرسي النورج الليفي ونجلس مستمتعين بالدُّورة، وإن أجمل ما كنت أشاهده إخراج الزكاة من الحبوب في الجرون قبل أن نبيع الحَب، وكان أبي يحسبها، ويوزعها، ويأمرنا أن نوصلها إلى بيوت مستحقيها قبل أن نُدخل الغلال إلى الشّوَنِ، وقبل أن تُباع، وكذلك يفعل أعمامي؛ الجميل أن كل الجرون لأعمامنا ماعدا جرناً واحداً لا يمت لعائلتنا بصلة، لكنه كان يجرّن عندنا، ذلك الرجل الذى كان يجمع من حقول الناس بعض الأعواد مقابل أن يُسمعهم مقاطع من السيرة الهلالية، أو أنه كان يعمل حفاراً يحفر قبور موتى القرية، أو كان يحلق شعورهم، لأنه لم تكن المعاملات كلها نقداً، بل كانت بعض الأعمال تُقدم مقابل كيلة أو أكثر من القمح أو الفول، أو أن يأخذ القمح بسنابله، ويكوّم جُرناً له، يستأذن من أبي وأعمامي في أن يكوّم جُرنه عندنا، وكان التكاتف والتراحم من أجمل ما رأيت، فهو ضيف لدينا حتى يذرّي جرنه، ويأخذ حَبَّه وتِبْنه، ويستعير نَوْرَجَنا وأبقارنا مجاناً، ... وبالمناسبة لم يكن أحد يدفع ثمناً لاستعارته الأبقار أو الجِمال أو العجول، بل كانت تتم هذه الإعارة مجاناً، ومن العيب قبول أجر مقابلها، والأجمل أن التعاون يبدأ عند حصاد المحصول، فالمستحقون يمرون على الحقول، وكلّ صاحب حقل يعطيهم سواء أكانوا يصطادون الأفاعي، أو شعراء سيرة هلالية، أو شحاذين لا نعرفهم من قبل، ولا يُرد طالب صدقة أبداً، بل ينتقون له أطيب الأعواد المحمّلة بالقمح أو الفول ويعطونها له عن طيب خاطر، وكان عازف الربابة أحبّ هؤلاء

لنا نحن– الأطفال– لأنه يمثل أبا زيد الهلالي، وينغّم بصوته كي يتحول إلى ممثل مسرحي يأخذ دور أبي زيد أو الزناتي خليفة، مع عزف مؤثر على الربابة، وكأن طبول الحروب الحزينة تدق في الحقول، ... كان يسحر العمالَ الذين يستمعون له في إنصات، وبعد أن تنتهي النورج من دراس الجرن يأتي دور "الْمُدَرّى" الذى يأتي بالمدراة والأصح "المِذْراة"، وهي "اسم آلة من ذرا: أداة من خشب ذات أصابع يذر بها الحَبّ في الهواء ليُنَقّى مما علق به" (معجم المعاني)، ونحن نقلب الذال دالاً وهى أشبه بشوكة كبيرة طولها يزيد عن متر ونصف، وينتظر المُذَرّي هبوب الرياح ليكبش من الحَب المختلط بالتِبن ثم يرفعه مترين في الهواء ليسقط الحَبُّ تحت أقدامه، ويحمل الهواءُ التبن بعيداً عنه، ويستمر هذا العمل المضني "على حسب الريح"، وعندما ينتهى يكون قد فصل التبن عن الحَب، وهنا يبدأ وصول الكيّال الذى يكيل الحَبّ في أجولة تُرفع للبيت، بحيث يأخذ كل بيت ما يكفى قوته طوال العام، وما يكفي تقاوي للعام القادم، ويباع الباقي بعد إخراج زكاة الزروع، وبعد توزيع الهدايا لأصحاب الحقوق علينا من أقارب وجيران، وبعد توزيع الصدقات على مستحقيها. إنني أسعى إلى إنشاء متحف يجمع كل أدوات الزراعة المنقرضة؛ وأتساءل الآن أين ذهبت الجرون؟ لقد اختفت بعد تغوّل الميكنة التي صارت تدرس الجرن في ساعة واحدة، وأين ذهب هؤلاء الشعراء الجّوالون؟ إنه بعدما غابت الجرون غابت معها البركة.

- التصييف بين جيليْن

عندما يطلب أبنائي أن يُصيّفوا في شاطئ هرباً من الحر أتذكر على الفور مصطلحّ "التصييف" حينما كنا أطفالاً، حيث كان له معنى آخر تماماً، عندما كانت الجِمال تحمل القش المملوء بسنابل القمح وأعواد الفول متجهة إلى مكان "الجرون" تمشي الهُوينى، ويتساقط في الحقول بعض حَبّات الفول، كان أطفال القرية "يصيّفون" أي يحمل كل منهم حقيبة قماش ليجمعوا ما استطاعوا من حبات الفول المتساقط المتناثر في الحقول وعلى الطرقات، وكلٌ يصيّف لنفسه، كان منظر الأطفال مُبهجاً، يغنّون وهم يجمعون، ويتحول الأمر إلى منافسة بينهم حيث ما تجمعه لن يشاركك فيه أحد، بل تبيعه لنفسك، ولم يكن أحد من أصحاب الحقول يمنع طفلاً من ذلك الحصاد بل كان أبي – رحمه الله– يشجّعهم، ويمنحهم فولاً فوق ما جمعوا، وكانت الجِمال تسير قوافل، والأطفال يتبعون إثرها في لوحة مدهشة، لاسيما أن لنا أرضاً في قرى متجاورة فالمسافة

طويلة بين الحقول ومكان الجرون، وكلما طالت المسافة سقط الحَبّ فتلتقط الطيور والأطفال الحَبّ في تنافس جميل؟ "فالتصييف زمان" اعتماد على النفس، واستقلال ذمة مالية للطفل منذ الصغر، وجَمْع مال، بينما التصييف المعاصر إنفاق أموال الآباء على الشواطئ؛ "الزمان اختلف" على رأي شاعرنا الكبير محمد إبراهيم أبو سنة.

- القرية بين عَصريْن

كان كل بيت يخزّن ما يكفيه طوال العام من القمح والفول والحِلبة، حيث كانت المشروب التالي بعد الشاي والقِرفة، فكانوا يصحنون الحلبة، وينقعونها في الماء لنشربها مشروباً بارداً أراه من أجمل المشروبات التي شربتُها، وأما في الشتاء فالحلبة هي المشروب الساخن الصحي، وكانوا يضعونها في أكلة "المَدِيَدة" الشهية، وهي دقيق معجون بالماء والسمن البلدي والحلبة تُشرب ساخنة صباحاً، ويضعونها في "العَصِيدة" المصنوعة من دقيق القمح أيضاً، ولاسيما للنُّفساء، وبها السمن البلدي والبلح المغلي والعسل، تأكلها النفساء، ويأكل معها كل أفراد البيت لقيمات العجين ممزوجاً بالبلح والعسل، وهي أكلة مصرية الأصل منذ عهد الفراعنة، وحبذا لو سُجلت باسم مصر قبل أن تسطو عليها دويلات متربصة. وقد حكى لي صيدلاني أن القرفة والحلبة مكونان أساسيان في أدوية كثيرة؛ كانت القرية منتجة غذاءها ومشروباتها، ومحتفظة بما يكفيها كل العام، واضعين في الاعتبار الضيوف طوال العام أيضاً، ونجني البلح من نخيلنا، ويخُزن في جِرار، وهى طريقة فرعونية، تُملأ بالبلح حتى رأسها، وتُوضع طبقة صغيرة من سمن بلدي في قمتها ثم تُقفل بليف النخيل والطمي لتمكث حتى الشتاء، فنفتحها، وكأن التمر جُنيَ بالأمس، وتقطف النساء الملوخية، وينشفنها، ويحفظنها طبيخاً للعام، وأما حقائب أولادها للكتاتيب والمشتريات فالنساء تحوكها بيدها من القطن وصوف الغنم في ألوان مبهجة، حيث لم يكن أحد يعرف البلاستيك ولا البوليستر في الملابس، فإما تلبس قطناً أو صوفاً، ولا مادة ثالثة تصنع منها الملابس والأغطية والملاءات، أي عِشْ في الطبيعة بالطبيعة، ولذلك كانت قوة الرجال والنساء عالية في لياقة رياضية واضحة، فقَلّ أن تشكو سيدة من "رُكَبِهَا"، أو يشكو أحد من مِعدته، وأما اللحوم فهي "قَسّامة" أي يجتمع الرجال في سوق القرية، ويشترون خروفاً ويقسمون لحمه بينهم بالقُرعة، وتتم كل مراحل الذبح والسلخ والتقسيم أمام عينيك، ومن القِسمة أُطلق

عليها "اللحمة القسّامة"؛ والماء من الّزير والقلل القناوي التي كنا نشتريها من قرية شهيرة غرب النيل تفنّن بعض رجالها في فن أشكال القلل والطواجن من أجود الطمي، حيث تقع أول ثنية النيل بها فتضرب الماء في أول الثنية لينتج أجود طمي تُصنع منه الزيار والقلل التي كانت ترسّب أملاح الماء وتجعله بارداً في أيام الصيف ولياليه، وقد أهديتُ لأصدقائي الألمان طواجن من قنا، وما يزالون يشكرونني عليها، ويقولون: إن مذاق الأكل أشهى وأجمل في الطواجن. البصل والثوم والجرجير في الحقول، وكل واحد يزرع حوضين لبيته، وما يفيض يوزع على الأقارب والجيران في تكافل مشهود، وبرحابة صدر، وعدم ركض في الوقت، فالوقت طويل، به متسع للعمل والسمر ليلاً، لاسيما المدفأة؛ ومن لديه بقرة حلوب يوزع اللبن على جيرانه وأقاربه صباح مساء. القرية كانت تمد المدينة بكل شيء؛ الدقيق واللبن والجبن والخضروات والفواكه. إن ما يحدث اليوم جريمة، القرى تشترى "الثوم الصيني"، واللحوم المجمّدة، والمشروبات الغازية، وأكياس البلاستيك، والفول الصيني؛ وكم هالني أن أرى سائق (توك توك) يلف على بيوت القرية، ويضع أمام كل بيت كيس خبز من المدينة، فسألته عن ذلك فقال لي: إنه يلف عليهم كل صباح؛ أين القرية المنتجة؟ وأين فُرن البيت؟ كان زمان!

- سوق "التلات" بقفط و"الراين" ببون

ارتبط السوق بمخيلة الطفل الذي كنتُه بالفُرجة والزحام، يقع السوق في منطقة "الدفادف" وهي منطقة بها آثار فرعونية ورومانية، السّير فيها مُخيف؛ لأنها فضاء لا تلمح فيه سوى بقايا أعمدة فرعونية منقوشة، وبقايا جدران رومانية، أذهب إلى سوق " التلات بصحبة أبي أو أحد إخوتي، لفت نظري بائع الصّور، ... خطّاط وفنّان اشتريت صوراً منه علّقناها في المضيفة "المندرة"، الصورة التي علِقت في ذهني صورة سيدنا إبراهيم – عليه السلام– وهو يهمّ بذبح ابنه إسماعيل – عليه السلام– بينما نرى في خلفية الصورة جبريل – عليه السلام – وهو يسبح في الفضاء ممسكًا كبشًا "خروفًا" فداء لسيدنا إسماعيل– عليه السلام– ... كيف كانت نظرات الأب؟ وكيف كان امتثال الابن والفداء العظيم؟ لقد أراد الفنان الشعبي أن ينقل الآية الكريمة من قوله تعالى في سورة (الصّافات): ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾، كما رأيت لوحة خيالية للمعراج، والبراق يهيم في السماء، وعليه النور المحمدي، وصورة أخرى خيالية لسيدنا موسى – عليه السلام– والسحرة

أمامه وهو يرمي بعصاه، صور كثيرة خيالية ظهر فيها الأنبياء، ولم نسمع بتحريم أحد لهذا التصوير أو تحليله، كان الذهن الجمعي يعرف أن هذه الصور تخييل وتقريب تجسيدي فني للأحداث المقدسة، كانت أوراقاً عادية ملوّنة تعارف الناس فيما بينهم على أنها رموز فنية، لا تهز قداسة شخصياتها، امتلأت بها جدران بيتنا، مع آيات قرآنية مخطوطة بخط وزخارف مُبهرة. كان الرجل البائع يستند إلى حائط كرم نخيل، ويبدأ في فتح محابره السوداء والحمراء والزرقاء والخضراء، أحبار صنعها من الزَّعفران وقَرضِ السُّنط، وهو شجر يُستخرج منه الصمغ، ومنتشر في الصعيد، كيف كان يلوّن هذه الأحبار، لا أدري.

يتجمع حوله نفرٌ يودون أن يكتب لهم آيات قرآنية وأحاديث نبوية وحِكَمًا يحفظونها، ... يبدأ في زركشة حواف الورقة وتلوينها، ثم يكتب المطلوب، أحياناً، كانوا يودّون كتابة أسمائهم، ... لم يكن يخيّرهم في نوع الخط لأنه يرى أنه حق أصيل للخطّاط حسب حروف وشكل الكلمات وتشكيل الحروف، كم كان فناناً مُبهراً للطفل الذي كنتُه، ... كنت أرقبه وهو يضع الريشة في المحبرة خاطًّا الحروف وكأنه يقفز بينها راقصاً.

سُوقنا يُقام كلّ ثلاثاء، ... يتجمع الرجال في سوق الغنم، ... يشترى أربعة رجال خروفاً يُسلمونهُ للجزار الذي يذبحه، ويقسّمه بينهم، ولم يكن لدى الجزار ميزان لكنه يلقي كلّ رُبع فى جهة، ثم يُجري القُرعة بينهم، كان سوق (أبنود) يقام يوم الأربعاء أسبوعياً، ويهتم أكثر بالعجول والأبقار.

في مدينة (بون) بألمانيا بحثتُ عن السوق الذي كان يُقام في الأسبوع الأخير من كل شهر في منطقة تُسمى "راين أوَا"، كان هذا السوق يجمع كل الأشياء التي يرغب أصحابها في التخلص منها، ويبيعونها بثمن زهيد يصل إلى ما يساوي "قرش صاغ" واحد.

تجد الكتب التي قرأها مالكوها، ويودّون أن ينتفع غيرهم بها، يعرضونها، ولك أن تُقلّب وتشتري " ببلاش" الكتابَ الذي تُحبّه. هنا تجد أدوات الزراعة للحدائق، وأدوات الزينة، وأدوات "العِدّة"من شواكيش ومفكّات، كما تجد صوراً قديمة لألمانيا قبل الحرب العالمية، ... صور أبيض وأسود منظر الرّسام الألماني في السوق راسماً من يتوقف أمامه يشيع البهجة لدى الناس، جلست فتاة أمامه وبدأ في رسم ملامحها، وهنا تذكرت فنان اللوحات بسوق التلات، أتجول في السوق في (بون) وعقلي يبحث عن سوق "التلات".

- حدث في ألمانيا:

استأجرتُ في ألمانيا شقة صغيرة في الطابق الثاني عندما كنت أُدرّس بجامعة بون، وكنت أحوّل الإيجار عبر البنك، ولفت نظري بنود العقد الطويلة، وراح صاحب البيت يشرح لي بنداً بنداً، عليك أن ترفع الثلج بالشارع جهة بيتنا يوماً واحداً في الأسبوع إذا زاد ارتفاعه عن سنتيمتر، وإذا كنتَ مشغولاً فبإمكانك أن تستأجر شركة تقوم نيابة عنك بهذا الأمر نظير مبلغ يُحدد بمساحة ما يطل به منزلك على الشارع، وأنه لابد من ذلك؛ لأنه لو انزلقت قدم مار بالطريق فكُسرت فتكاليف العلاج وتعويض أيام إجازته ستكون على نفقة مالك البيت ومستأجريه، فبحثتُ عن شركة أوَكلتُ إليها الأمر، ولفت نظري خطاب من المالك يرجو مني ألا أفتح الشُّرفات (البلكونات) لمدة أسبوعين حدّدهما، لأنه سيقوم بطلاء واجهة المبنى في هذه المدة، فاستغربت لأنه يرسل إليّ خطاباً بذلك وأنا نادراً ما أجلس في الشُّرفة.

في نهاية العام فوجئتُ بشيك يرسله المالك إليّ مُرجِعاً إلي إيجار نصف شهر وخطاب اعتذار لأني لم أستخدم الشُّرفات في فترة طلاء المبنى، وتذكرتُ مقولة تُنسب للإمام محمد عبده عندما زار أوروبا "وجدتُ مسلمين بلا إسلام، وهنا وجدت"، ...

- مطرب الماء:

عندما تقرر أن تزور معبد فيلة بأسوان أو تبحر نحو جزيرة النباتات في قارب ستفاجأ بمنظر لم تره في حياتك من قبل، مجموعة من الصبية يسبحون حول القارب، وقد تعرت صدورهم، ولا يلبسون سوى شورت قصير، يبحرون على لوح صغير من الخشب، يضعه الطفل تحت صدره ليعينه سابحاً حول القارب، وممسكين بحواف القارب، ويبدأ كل منهم في الغناء بصوت نقي رائع وابتسامة حزينة، يغني ومعظم جسده يغوص بالماء، ويستمع المبحرون في القارب للأصوات واحداً تلو الآخر، فإن أعجبهم صوت دعَوْا صاحبه ليصعد القارب معهم، ويشدو لهم طوال الرحلة، ويجمعون له مالاً قليلاً يرضى به فرحاً، ويربط النقود في صرة صغيرة على ساعده

النحيل، ويرمي بجسده في الماء مرة أخرى باحثاً عن قارب ليعرض على مُبحريه صوته علَّ أن يعجبهم.
عشرات الأطفال يمتلكون حناجر ذهبية في وضع بائس، ومعرضون للبلهارسيا وأمراض الصدر والحمى، هل نكتشف من بينهم مطرباً، أو منشداً جديداً؟ هل فكرت إحدى القنوات التلفزيونية مصاحبة هؤلاء في الماء، ومحاورتهم وتقديم أصواتهم للجمهور؟ هل لديهم غطاء تأميني صحي، اقتصادي، هل يذهبون للمدارس؟
لقد أطلقت عليهم "مطرب الماء" لعل أحداً ينتبه إليهم، لعل وعسى.

- درسٌ من طفلة:

في طريقي للجامعة أسير في طريق قنا/ سفاجا، وقد لمحت طفلة دون العاشرة وهي تغربل الرمل على جانبي الطريق لتظفر بحبيبات قمح ألقاها الهواء من السيارات التي تجيء من ميناء سفاجا محملة بالقمح لتحزينه بالصوامع ومطاحن الدقيق بمحافظات الصعيد، ... تعودت أن أراها في أثناء ذهابي وعودتي، وفي يوم رأيت حادثة على الطريق بين سيارة محملة بالفواكه والخضروات لأحد أصدقائي وأخرى ملاكي، وبعد نقل أحد المتوفين والمصابين للمستشفى، وتناثر أقفاص الفواكه على الطريق لمحت الطفلة ماتزال تغربل الرمال في الشمس، ... ربما لا تستطيع جمع قدح قمح طوال اليوم! دنوتُ منها، وقلت لها: خذي ما تشائين من هذه الأقفاص، فرفضت الطفلة قائلة: لا يا أستاذ، دي حادثة!!!
ولم أعلق.

- الشيخ يوسف أبو طار

اعتزلَ الناس، وعلى قمة جبل شرق أرمنت بنى حجرة صغيرة بالطين دون سقف، عاش هناك زاهداً، لا يتكلم إلا نادراً، وإذا تحدث فأنت أمام فصيح من فصحاء العرب القدامى، سمعت عن بلاغته وهو الأمّي ما أدهشني، يخافه الناس؛ لأنه يقول لهم الحق في وجوههم دون مجاملة

ودون لف أو دوران، سمعت عنه كثيراً، وددت أن أراه، ولكن الناس جميعهم نصحني بعدم الذهاب إليه، فهو حاد الطباع، ويطرد الناس ممن لا يود الحديث معهم، ... قبل سنوات كانت القطارات متوقفة، ذهبت إليه بصحبة الصديقين مطاوع فكري، و:علم عبدالوهاب اللذيْن اشترطا عليّ أن أصعد إليه أنا أولاً، فإن سمح لي بالجلوس استشرته في استدعائهما، ... وصلنا في منتصف الليل، وسرنا بالسيارة نحو الجبل، كان القمر مشرقاً، ولكن لا حياة لأي شيء، المكان مقفر، على ضوء السيارة لمحنا حائطاً صغيراً فوق قمة جبل، فنصحني أحدهما أن أطفئ أنوار السيارة، وسرنا في ظلام لا يحوطه إلا ضوء القمر الشاحب، حتى وصلنا إلى قاع الجبل، وقالا معاً: هل تتذكر الشرط؟

نزلتُ صاعداً الجبل بمفردي حتى وصلت، فهالني ما رأيت: شيخ يجلس متربعاً مستنداً إلى جدار، ... وسلمتُ عليه، فردّ السلام بصوت خفيض، ودعاني للجلوس سائلاً عني فانتسبت فرحَّب بي، وأذن لهما بالصعود فجاءا، ... جلسنا على الرمال بجواره، وكانت هناك أصوات ذئاب وثعالب وجسوم تتحرك في الظلام لم أستبنها، سألته عن مصر قال: مصر محروسة، ... القطارات ستتحرك وتعود، وهناك دماء في الشوارع، وتعب وغلاء، ثم تنجلي الغمة، ... ثم أنشد قصائد لا أتذكر سوى أبيات منها:

كَثُرَ البلاءُ وأَفْتَتِ الدهماءُ/

والجهلُ فينا والعلومُ سواءُ/

يا مِصرُ ما لَكِ عندما يأتي الردي/

تتقاتلون، ويظفر الأعداءُ /

والفجرُ طفلٌ في عيونك مشرقٌ/

وغداً ترون، وتصدق الأنباءُ/

ومن عجب أن كل ما قاله حدث، هل هي الكرامات؟

قبل عام كنت في مؤتمر بالإمارات، وسمعت نبأ رحيل الشيخ يوسف أبو طار – رحمه الله–...

- من حكايا جدتي

قالت جدتي فاطمة سليمان طه: عندما كنتُ طفلةً جلستُ في يوم مشرق أمام بيتنا، وسرعان ما تجمعت الغيوم وجاءت الرياح التي اقتلعت النخيل لشدتها، فخرج الناس يجْرون بعيداً عن البيوت، وتجمعوا في الدفادف، وهي منطقة أثرية مساحتها تربو على مائة فدان، لا هي معابد تُزار، ولا أرض بور للعمار، وإثر تدافع الناس احتموا بمظلة سلخانة تُذبح فيها العجول والنياق، وفجأة سمعوا صوتاً صاح "أَلآف"، وتطلع الناس نحو أفعى سوداء منقطة طولها لا يستطيعون قياسه، وسمكها عظيم، وجرى الناس من السلخانة، وتحركت الأفعى نحو عِجل سمين فالتهمته والناس ينظرون ويبتهلون: يا ألله، يا ألله!... وهم خائفون أن تتجه نحو بيوتهم، فتعالت الصيحات: يا ألله، يا ألله!... فبدأت الأفعى في لف ذيلها وبقية جسمها في حلقة محكمة دقيقة، وإذ بطائر عملاق لم يروه من قبل، فارداً جناحيه حتى كادا أن يُخفيا قرص الشمس، وأخذ في الهبوط تدريجياً، وعيون الناس مقسّمة بين الأفعى والطائر الذي دنا، فدنا حتى أنزل قدميه على الأرض في وسط دائرة الأفعى التي بدأت دائرة جسمها تضيق حول الساقين، وما هي إلا برهة حتى طار بالأفعى، واختفى بين السحاب، ...

- في النهايات تتجلى البدايات

يا ربّ ما قدّمتُ خيراً يُرْتجى
لكنّ عفوكَ ما لهُ من مُنتهى

لمحات من تجربتي مع أدب "علي أحمد باكثير"

بقلم: د. عبد الحكيم عبد الله الزبيدي

بداية تعرفي إلى أدب باكثير:

كانت رواية (وا إسلاماه) هي المفتاح الذي ولجت منه إلى أدب علي أحمد باكثير، فقد كانت مقررة علينا ضمن منهج اللغة العربية للصف الثاني الثانوي، ولأني كنت حين درست رواية (وا إسلاماه) في مطلع الشباب، حيث يكون الإنسان متطرفاً في عواطفه، فقد شغفت بأسلوب باكثير شغفاً كبيراً، وأعدت قراءة الرواية عدة مرات، حتى إني حفظت مقاطع منها عن ظهر قلب، وقد أدى بي هذا الشغف إلى البحث عن أعمال أخرى للكاتب، وإلى محاولة معرفة شيء عن سيرته الأدبية والشخصية، ولكني- مع الأسف- لم أظفر بطائل؛ لقلة ما كان يكتب عنه آنذاك، ولعدم توفر مؤلفاته في المكتبات، وقد تطلب مني الأمر أن أكلّف بعض الأصدقاء الذين كانوا يقضون إجازاتهم الصيفية في مصر أن يحضروا لي ما يجدونه من مؤلفات باكثير في المكتبات المصرية.

وقد استطعت خلال ما يقارب خمسة عشر عاماً جمع عدد صالح من أعمال باكثير، ومنها مطولته المسرحية (ملحمة عمر) التي حصلت عليها من صديق في الكويت، حيث طُبعت هناك طبعتها الأولى عام 1969م، وهو العام الذي توفي فيه باكثير، وذلك قبل صدورها بحوالي شهر، كما استطعت الحصول على بعض المعلومات اليسيرة عن باكثير من خلال المقالات القليلة التي كُتبت عنه في المجلات.

ثم قُدِّر لي أن ألتقي بالدكتور محمد أبوبكر حميد في عام 1993م في مدينة الرياض التي مكثت فيها خمسة أسابيع التحقت خلالها بدورة في معهد الإدارة العامة في الرياض، وكنت ألتقي

بالدكتور حميد في نهاية كل أسبوع، حيث يستضيفني في بيته، ويطلعني على ما تجمع لديه من كنور باكثير الأدبية، ولم يبخل عليَّ الدكتور حميد– جزاه الله خيراً– بشيء مما لديه، وسمح لي بأخذ نسخ عن كثير مما كتب عن باكثير، من كتب وأطروحات ومقالات، بالإضافة إلى بعض التسجيلات المرئية والمسموعة والصور النادرة.

وحين عدت إلى الإمارات أحسستُ أن عليَّ واجباً تجاه الأديب باكثير، وأن عليّ أن أوصل ما لدي من الكنوز الأدبية إلى الباحثين والدارسين؛ ليكتبوا عنها، ويضمنوها أبحاثهم، ولم أكن أدري ما الطريقة المثلى لذلك، وقد بدأت بكتابة مقالة في الملحق الثقافي لصحيفة (الاتحاد) في فبراير 1994م، استعرضت فيها ما لديّ ولدى الدكتور حميد من كنوز مخطوطة ومطبوعة تتعلق بتراث باكثير الأدبي، ووجهت نداءً للباحثين المهتمين للاستفادة من هذه الكنوز من خلال التواصل معي أو مع الدكتور حميد، ولكنه لم يتواصل معي أحد.

فكرة إنشاء موقع باكثير على "الإنترنت"

وحين ظهر "الإنترنت" في النصف الثاني من تسعينيات القرن العشرين كانت الإمارات من الدول السباقة إلى استخدامه، وعندما تعرفت إلى هذه التقنية الجبارة، ورأيت مدى إمكاناتها الهائلة، وأنها تصل إلى دول العالم كافة، قلت لنفسي: لقد وجدت المكان المناسب الذي أضع فيه هذه الكنوز التي لديّ لتصل إلى أيدي الباحثين والدارسين في أنحاء المعمورة كلها، وهكذا ظهرت فكرة موقع باكثير على "الإنترنت"، وقد أفضيت بالفكرة إلى الدكتور حميد في إحدى زياراته إلى الإمارات في عام 1999م فشجعني كثيراً على المضيّ في هذا الأمر، ووعد بأن يزودني بالمزيد مما لديه من النفائس عن باكثير، وقد فعل ذلك في زياراته التالية.

وهكذا شرعتُ في تنفيذ الفكرة، وكان أن بدأت في أخذ دورة تدريبية في تعلّم كيفية تصميم المواقع على "الإنترنت"، وبدأت أصمم الموقع، وكانت الصعوبة التي واجهتني أنه لم يكن لديّ كتاب

جامع أنقل عنه، وإنما كنت كأنما أؤلف كتاباً أو أكتب بحثاً، فمثلاً: سيرة حياة باكثير لم تكن مجموعة في كتاب واحد، فأخذت أجمعها من عدة مراجع، وكذلك قائمة مؤلفاته، وقائمة الكتب التي كتبت عنه، والأطروحات التي تناولت أدبه، إلى آخر ذلك، وقد اقتضى مني تصميم الموقع وإدخال المعلومات فيه عاماً كاملاً، كنت أعمل فيه في أوقات فراغي بعد عودتي من العمل، وحتى وقت متأخر من الليل.

وأذكر من الطرائف التي مرت بي في تلك الفترة، أن ابني محمداً، الذي كان وقتها في الصف السادس الابتدائي، وكان يراني منهمكاً في تصميم الموقع، وكتابة محتوياته، وكان يعرف أنني أصمم موقعاً عن باكثير، ويعرف مدى اهتمامي به من خلال كُتب باكثير التي لدي، ومن خلال صور باكثير المعلقة على جدران المنزل، فقال لي، وهو يراني مشغولاً في تصميم الموقع، ما معناه: "يا أبي لو أن باكثير أنجب ابناً من صلبه، لما عمل له ما تعمله أنت له الآن"، وقد أضحكتني هذه الكلمة في البداية، ولكنني حين تأملت فيها، أحسستُ أن الله تعالى قد أنطقه بها، وأنها أكبر من سنه، وأخذت أسأل نفسي: لماذا أُجْهِدُ جهدُ هذا الإجهاد كُلَّهُ من أجل باكثير؟ وما الفائدة التي تعود عليّ من ذلك؟ إنني أنفق من وقتي وراحتي ومالي من أجل خدمة تراث باكثير، فلماذا هذا العناء كله؟ وما علاقتي أنا به؟ وفجأة لمعت في ذهني الإجابة عن هذا السؤال، فقلت له: "يا بني، لقد كان باكثير صادقاً مع ربه، ومخلصاً في أدبه، يبتغي به رضا الله، وخدمة أمته، فسخَّر الله له بعد وفاته من يخدم تراثه، وينشره بين النّاس، وهو مستريح في قبره، لقد قيَّض اللهُ لباكثير "محمد أبوبكر حميد"، و"أحمد السومحي"، و"عبد الحكيم الزبيدي" وغيرهم؛ لينشروا تراثه وأدبه، وهكذا فإنَّ مَن أخلص لله سخَّر الله له من يخدمه".

الهدف من إنشاء موقع باكثير على "الإنترنت"

تم إطلاق موقع باكثير على "الإنترنت" في منتصف عام 2001م، ويعد بهذا من أوائل المواقع الأدبية العربية على "الإنترنت"، ولعله أول موقع باللغة العربية لأديب عربي بعد وفاته، وقد بدأ الموقع تحت مظلة المواقع المجانية، حتى استأجرت له النطاق الخاص بتاريخ (2001/10/30).

وقد هدفتُ من وراء إنشاء الموقع إلى هدفين: أحدهما عامٌّ، والآخر خاص، أما الهدف العام فهو التعريف بباكثير ومؤلفاته ودوره الريادي في الشعر والرواية والمسرح بفرعيه الشعري والنثري، أي تعريفٌ عام لغير المتخصصين، وأما الهدف الخاص فهو التعريف بما كُتب عن باكثير من دراسات وأطروحات أكاديمية ليكون ذلك عوناً للدارسين والباحثين الذين يرغبون في إعداد الدراسات والأطروحات العلمية.

استقبال الباحثين للموقع:

استُقبِل الموقع استقبالاً حسنًا من قبل الباحثين، وكانت أول رسالة تصل للموقع من طالبة ماليزية تعد رسالة ماجستير عن باكثير في الجامعة الإسلامية في ماليزيا (2002م). ثم وصلت إلى الموقع رسالة من طالب باكستاني يحضر رسالة ماجستير عن باكثير (2003)، ثم تلتها رسالة من طالب أردني يرغب في إعداد رسالة ماجستير عن روايات باكثير (2003)، وذكر أنه لم يجد في مكتبة الجامعة الأردنية من روايات باكثير إلا رواية (وا إسلاماه)، وقد أرسلتُ إليه نسخًا من الروايات وما يحتاجه من مراجع، ثم توالت الرسائل بعد ذلك من مختلف البلدان، ومن بينها رسالة من طالب إيراني يعد رسالة دكتوراه عن باكثير في جامعة طهران (2006) وطالب سوري يعد رسالة ماجستير عن باكثير بالألمانية (2008)، ومعظم هؤلاء أرسلوا لي نسخاً من أبحاثهم بعد إنجازها، وسمحوا بنشرها في الموقع، ووجهوا الشكر للموقع ومؤسسه في المقدمة، وبعضها طُبعت في كتاب بعد ذلك، وأرسلت إليّ نسخ منها، وقد كنت في البداية أرسل إليهم ما يحتاجونه

من المراجع بالبريد الجوي، ثم بعد ذلك عمدت إلى المسح الضوئي وإرسالها عبر البريد الإلكتروني.

وقد استطاع الموقع بفضل الله تعالى أن يقدم العون والمساعدة لثمانية وعشرين باحثًا أعدوا أطروحات ماجستير ودكتوراه عن باكثير، خلال حوالي عشرين عامًا منذ تأسيسه حتى اليوم، أي بمعدل أكثر من أطروحة في العام، وهذا في رأيي إنجاز عظيم للموقع، يدل على أثره الكبير، عِلماً أن هذه الأرقام هي فقط للباحثين الذين تواصلوا مباشرة مع مؤسس الموقع، وتم إرسال المراجع إليهم، على أن هناك كثيراً من الباحثين قد استفادوا مباشرة من محتويات الموقع، دون أن يتواصلوا مع مؤسس الموقع، وهؤلاء يصعب حصرهم.

ونظرة على عدد الأطروحات التي صدرت عن باكثير قبل إطلاق الموقع وبعده تدل على مدى زيادة معدل الأطروحات التي كتبت عن باكثير بعد ظهور الموقع، فقد أحصيت (20) أطروحة صدرت خلال (40) عاماً منذ أقدم أطروحة عن باكثير حسب علمي (عام 1959م) حتى عام 2000م، بينما أحصيت (43) أطروحة صدرت خلال (20) عاماً منذ عام 2001م حتى 2020م، علمًا أن إحصائية الأطروحات التي تتناول باكثير غير دقيقة؛ لأنها نتاج بحث فردي، وربما هناك غيرها كثير مما لم يصل إلى علمي.

استقبال الموقع في الصحافة:

حظي موقع باكثير منذ إطلاقه بحفاوة الاستقبال في وسائل الإعلام، وكتبت عنه بعض الصحف العربية، والمواقع الإلكترونية، فكتبت عنه مجلة (إنترنت العالم العربي) في ديسمبر 2001م، وكُتبت مقالة عنه في الملحق الثقافي لصحيفة (الثورة) اليمنية في 21 يناير 2002م، وكتبت عنه صحيفة (الاتحاد) الإماراتية بتاريخ 26 يناير 2002م، وكتب عنه الأستاذ محمد حنفي في صحيفة القبس الكويتية، بتاريخ 2002/6/29م، علماً أن هؤلاء جميعهم قد فعلوا ذلك دون

طلب مني، ودون أن أعرفهم، وتفاجأت بكتاباتهم عن الموقع من خلال البحث في "الإنترنت"، ثم اتصلت بي الأستاذة دلال جويد من صحيفة (الخليج) الإماراتية، وطلبت إجراء حوار معي حول الموقع، وقد نشر في ملحق "الشباب" في مارس 2003م.

كتاباتي عن باكثير

لم يكن يخطر في بالي أنني سوف أكون من بين النقاد الذين يكتبون، ويحاضرون عن باكثير، إذ لم يكن في نيتي الكتابة النقدية عنه، وإنما اقتصر اهتمامي على جمع كل ما كتب عنه لوضعه بين أيدي الباحثين والدارسين، وكنت أرى أنني أقل شأناً من أن أتناول قامة أدبية كبيرة مثل باكثير بالكتابة عنه، خاصة أنني غير متخصص في الأدب، فقد كانت دراستي الجامعية في مجال إدارة الخدمات الصحية التي درستها في الولايات المتحدة الأمريكية، وتخرجت عام 1991م، وإن كنت بعد التحاقي بالعمل في المجال الصحي قد التحقت بجامعة الإمارات في الفترة المسائية، وحصلت على البكالوريوس في اللغة العربية عام 1999م، ثم حصلت على الماجستير في اللغة العربية من جامعة الشارقة عام 2011م.

غير أني اضطررت لخوض مجال الكتابة عن باكثير مبكرًا لتصحيح بعض الأحكام النقدية غير الدقيقة عنه، وَأَقْدَمُ ما نُشر لي عن باكثير هو مقالة في صحيفة (الاتحاد) الإماراتية عام 1983م رداً على مقالة نُشرت في الملحق الثقافي للصحيفة نفسها، ينسب كاتبه ريادة الشعر الحر للشاعر الأردني عرار، كذلك كتبتُ مقالة رددتُ بها على مقالة للدكتور غازي مختار طليمات نشرها في صحيفة (البيان) عام 2002م ينسب فيها ريادة الشعر الحر للسيّاب، وتم نشر ردّي في الصحيفة نفسها. وفي عام 1992م نشر الأستاذ حسيب كيالي مقالة في صحيفة (الاتحاد) عن مسرحية باكثير الكوميدية (أبو دلامة) يتهم باكثير فيها بأنه كتبها بهدف الإضحاك فقط دون أن يكون له هدف أخلاقي، وقد كتبت رداً عليه، ولكني تأخرت في نشره حتى فاتت المناسبة.

وفي أثناء دراستي لتخصص اللغة العربية في (جامعة الإمارات) كتبت بحثًا عن باكثير قدمته لأستاذي البروفيسور إبراهيم السّعافين في أحد المساقات التي درّسها لي، وقد علّق على البحث بقوله (بحث ممتاز)، فكانت أول شهادة من ناقد كبير أحصل عليها، مما شجعني على نشر ذلك البحث في كتاب إلكتروني عام 2002م، ثم طبعته في كتاب عام 2009م فكان أول كتاب يصدر لي عن باكثير، وتوالت مقالاتي النقدية عن أعمال باكثير، وكنت أنشرها في الصحف ومواقع "الإنترنت"، ثم جمعت معظمها في كتاب صدر عن مجلة (الرافد) الإماراتية عام 2010م بمناسبة الاحتفال بمرور مائة عام على مولد باكثير.

ثم حصلت على الماجستير في اللغة العربية عام 2011م عن رسالة بعنوان (النكوص الإبداعي في أدب علي أحمد باكثير) وكان المشرف على رسالتي الأستاذ الدكتور حسن الأمراني، وقد طُبعت الرسالة في كتاب صدر عن (ندوة الثقافة والعلوم) بدبي عام 2013م.

مصادفات أم تدبير ربّاني؟

حين نشر الأستاذ حسيب كيّالي مقالته عن مسرحية باكثير الكوميدية (أبو دلامة) يتهمه فيها بأنه كتبها بهدف الإضحاك فقط، وأنه ليس للمسرحية هدف أخلاقي استفزتني هذه المقالة، وجعلتني أقول لنفسي: من المستحيل ألا يكون لباكثير هدف آخر غير الإضحاك، فليست هذه عادته، ولا أسلوبه. ورغم أنني قرأت مسرحية (أبو دلامة) قبل ذلك عدة مرات، واستمتعت بها إلا أنني لم أكلف نفسي عناء البحث عن هدف أخلاقي فيها، فأعدت قراءة المسرحية باحثاً عن هذا الهدف، فتكشّف لي بسرعة، وكتبت مقالة رداً على كيّالي، ولكني مع الأسف تأخرت في إرسالها للصحيفة حتى فاتت المناسبة، ثم ضمّنتها في كتابي (علي أحمد باكثير بمناسبة مرور قرن على ميلاده).

وقد وجدت أن هذه المسرحية شغلت كثيرًا من النقّاد الذين رأوا فيها ما رآه الأستاذ كيّالي، وهو أن باكثير هدف من ورائها إلى الإضحاك فقط دون أن يكون له هدف أخلاقي كما هي عادته، وممن ذكر ذلك الباحثة مديحة عواد سلامة في رسالتها للماجستير، وكذلك الناقد الأستاذ عبدالله الطنطاوي، في كتابه عن باكثير، وقد جعلني هذا أعجب كيف لم يفطنوا للهدف الذي فطنت أنا إليه بسهولة. وقد تكرر معي هذا حين وجدت نفسي أفطن لأمر آخر لم يفطن له الناقد الكبير عصام بهي – رحمه الله– حين وجه نقدًا لإحدى مسرحيات باكثير في أطروحته الرائعة (الشخصية الشّريرة في الأدب المسرحي) رغم إشادته المتكررة بباكثير وشدة إعجابه به، حتى إنه أعلن في خاتمة رسالته عن نيته في كتابة بحث مستقل عن باكثير، وهذا ما وفى به عندما كتب عنه كتاب (مسرح باكثير الاجتماعي) إلا أنه لم يفطن لما فطنتُ أنا له، ورددتُ به على نقده ذاك لمسرحية باكثير.

وقد أفضيتُ بذلك للدكتور أحمد السومحي –حفظه الله– في أثناء تعرّفي إليه في الإمارات حيث عمل أستاذاً في جامعة عجمان فرع العين لمدة خمس سنوات وكنت ألتقي به أسبوعيًا على الأقل وأسعد بصحبته وكان مدار حديثنا في الغالب عن باكثير. وقد أفضيت للدكتور السومحي بالأمر وقلت له: "إنني أعجب من نفسي حين أجد أنني أفطن لأشياء ودقائق في أدب باكثير لم يفطن لها كبار النقاد الذين درسوا أدبه على قلة بضاعتي في الأدب والنقد مقارنة بهم"، فرد عليّ برد لم يكن يخطر لي على بال، حيث فَسّر لي هذا الأمر فقال: "إن الإنسان إذا أخلص لقضية أو لأمر ما فإن الله تعالى يفتح عليه بفتوحات لا يفتحها على أحد غيره"، وإنني لأرجو فعلاً أن أكون ممن يصدق فيهم ذلك القول. ومما جعلني أقتنع بكلام الدكتور السومحي هو أن هناك بعض الأمور التي حدثت معي مما قد يبدو للوهلة الأولى أنه من قبيل المصادفات، إلا أنني أحسب أنه من تدبير الله تعالى. من ذلك أنني كنت أبحث ذات مرة من عام 2005م في "الإنترنت" عما نشر عن باكثير باللغة الإنجليزية فوقعت على اسم البروفيسور الأمريكي (مارفن كارلسون)

الذي كان يدرّس الأدب العربي في جامعة نيويورك، ووجدت اسم باكثير من ضمن أسماء الأدباء العرب الذين يدرّس أدبهم، فكان أن تواصلت معه، وأخبرته عن اهتمامي بباكثير، وسألته إن كانت أعمال باكثير التي يدرّسها لطلابه مترجمة إلى الإنجليزية أم لا؟ فرد علي أنها باللغة العربية، ولكنه أخبرني أنه ترجم مسرحية باكثير (مأساة أوديب) إلى الإنجليزية بمساعدة طالبة دراسات عليا عربية، وأنها ستنشر في كتاب تحت الطبع، يحوي أربع مسرحيات تناولت أسطورة أوديب لكتّاب عرب من بينهم باكثير، وطلب مني عنواني ليرسل لي نسخة منه حال صدوره، فزوّدته بعنواني، وبعد بضعة أسابيع وصلني الكتاب، فهل يمكن أن يكون ذلك محض مصادفة؟

ومما أعتز به من جهودي في خدمة تراث باكثير أنني استطعت إقناع الدكتورة مديحة عواد أن تطبع بحثها الرائع عن باكثير الذي هو رسالة ماجستير بإشراف الدكتورة سهير القلماوي، وكنت قد حصلت على نسخة من هذه الرسالة من الدكتور حميد مطبوعة على الآلة الكاتبة، ومسحوبة على (الاستنسيل)، وهذه ألفاظ ومصطلحات يجهلها جيل اليوم، وهي رسالة رائعة بذلت الباحثة فيها جهدًا كبيرًا، وقابلت مجموعة من الأدباء الذين عاصروا باكثير وعرفوه عن قرب، ومن بينهم الروائي الكبير نجيب محفوظ، وزارت منزل أسرة باكثير، والتقت بزوجته وربيبته، واطلعت على أعماله المخطوطة، وكتبت دراسة رائعة بعنوان (مسرح علي أحمد باكثير)، وقد حصلتُ على رقم هاتفها من الدكتور حميد، واتصلت بها في أثناء إحدى زياراتي للقاهرة، وزرتها، وتحدثت معها عن رسالتها، وسألتها: لماذا لم تطبعها؟ فذكرت أنها تنوي مراجعتها والتعديل عليها؛ لأنها قديمة، وربما تكون بعض المعلومات فيها بحاجة إلى تحديث، فقلت لها: "انشريها كما هي دون أي تعديل، واكتبي لها مقدمة تذكرين فيها أنها رسالة ماجستير قدمت عام 1980م، وأنها تنشر كما هي"، وقد وضّحتُ لها أهمية رسالتها، وكيف أنها من أهم المراجع عن باكثير، وأنني أرغب في إضافتها إلى الموقع، ولكن طباعتها رديئة وغير واضحة، وتصويرها سيتطلب جهدًا، واقترحتُ عليها أن تعهد أولاً إلى من يقوم بصفّها على "الكمبيوتر"، وأن ترسلها إلي

لأراجعها، وأصححها، ثم بعد ذلك نضع نسخة إلكترونية منها في الموقع، فاقتنعت بالفكرة، ونفذتها، وأرسلت الرسالة إليّ مصفوفة على "الكمبيوتر"، فصححتها وأعدت إرسالها إليها، ثم أخبرتني أنها وجدت دار نشر قبلت أن تطبعها في كتاب، وهكذا طبعت أول وأشمل رسالة ماجستير تناولت مسرح باكثير، بعد ثلاثين عامًا من كتابتها.

المشاركة في المؤتمرات الدولية

لقد جعلني اهتمامي بباكثير أدخل عالم الأدب من أوسع أبوابه، فبعد أن كنت بعيدًا عن الأضواء، أكتب الشعر، ولكني لا أنشره، أصبحت محط الأنظار، فشجّعني ذلك على نشر ديواني الأول عام 2009م عن هيئة أبوظبي للتراث، كما شجّعني على الكتابة النقدية عن باكثير، كذلك شاركت في العديد من المؤتمرات والندوات التي أقيمت عن باكثير في الإمارات، وفي مصر واليمن، والهند وإندونيسيا، بالإضافة إلى مشاركتي في مؤتمرات أدبية أخرى بورقات عمل عن باكثير، وعن غيره في المغرب والأردن وسلطنة عُمان، ولكل مؤتمر من هذه المؤتمرات حكاية جديرة بأن تروى، ولكن لضيق المساحة المخصصة لهذه المقالة سنقتصر على أهم هذه الذكريات.

الندوة الأولى التي نظمها اتحاد كتاب وأدباء الإمارات في مايو عام 2006م من قصتها أنني تعرّفت إلى الشاعر الكبير الدكتور شهاب غانم في معرض الشارقة للكتاب في نوفمبر عام 2005م، وكانت وسيلتي للتعرف إليه أن أخذت رقمه من استعلامات الهاتف، واتصلت به، وعرّفته بنفسي، وأنني مهتم بالأديب باكثير، وأرغب في التعرّف إليه، فوجدته ودوداً في ردّه عليّ، وحدّثني أنه قابل باكثير شخصيّا عام 1968م، واتفقنا على اللقاء في معرض الشارقة للكتاب، وكان ذلك، واستمر التواصل بيننا عبر الهاتف. وفي أحد الأيام اتصل بي، وأخبرني أن الأستاذة أسماء الزرعوني نائب رئيس اتحاد كتاب وأدباء الإمارات حينها قد اتصلت به، وأخبرته عن عزم الاتحاد إقامة ندوة عن الأديب علي أحمد باكثير، وطلبت منه ترشيح أسماء

بعض النقاد داخل وخارج الدولة لتوجيه الدعوة لهم للمشاركة، فكان أن دلّها عليّ، وأعطاها رقم هاتفي، واتصل بي ليخبرني أنها ستتصل بي، وبالفعل تواصلت معي الأستاذة أسماء، وضمت اسمي إلى لجنة المؤتمر، وكانت برئاستها وعضوية الأستاذ إبراهيم مبارك والدكتور عمر عبد العزيز والأستاذ عبد الفتاح صبري، وحضرت اجتماعات اللجنة، وطلب إليَّ ترشيح ثلاثة أسماء من خارج الدولة لتوجيه الدعوة إليهم فاقترحت دعوة كل من: د. محمد أبوبكر حميد من السعودية، والدكتور أحمد السومحي من مصر، والأستاذ عبد الله الطنطاوي من الأردن، ومن الإمارات اقترحت دعوة الدكتور محمد أبو الفضل بدران الأستاذ حينها في جامعة الإمارات، وكانت ندوة جميلة عقدت على مدى يومين في الشارقة، وشارك فيها أيضًا الدكتور عمر عبد العزيز والدكتور شهاب غانم، وطُلب إليَّ أن أشارك فاعتذرت؛ لعدم تخصصي، ولأنها أول مرة توجه لي دعوة للمشاركة في ندوة أو مؤتمر، ولم يسبق لي أن ألقيت محاضرة أمام الجمهور، ولكنهم لم يتركوا لي بدًا من المشاركة، وقالوا لي: أنت أولى شخص بالمشاركة. وأمام إلحاحهم قبلت أن أشارك، ولكن بشرط أن أتحدث عن موقع باكثير على "الإنترنت"؛ لأن هذا هو الموضوع الذي أنا متمكن منه، فوافقوا.

وحين أعدوا جدول المحاضرات، وضعوا مشاركتي في ذيل القائمة؛ لأنها ليست ورقة نقدية، وربما لأني كنت أصغر المشاركين سنّا، ولم يكن يسبق اسمي حرف الدال، حينها، غير أن القدر جعل محاضرتي تكون الأولى في الندوة، والوحيدة التي يسجلها التلفزيون؛ ذلك أن اللجنة قررت أن تكون الليلة الأولى في النادي الثقافي العربي بالشارقة للافتتاح فقط، وعرض شريط "فيديو" عن باكثير، وستكون المحاضرات في اليوم التالي على فترتين: فترة صباحية في مدرج يقع بجوار مقر الاتحاد على قناة القصباء، وفترة مسائية في النادي الثقافي العربي، وطلبتُ أنا أن تكون محاضرتي في المدرج لوجود جهاز عرض؛ لأني كنت أعددت (عرضا تقديميًا)، ولأن لدي تسجيلاً لمقطع شعري بصوت باكثير، فقُبل طلبي على أن تكون محاضرتي هي آخر

محاضرة في الفترة الصباحية، وكان عدد المحاضرين سبعة، ثلاثة من خارج الدولة وأربعة من داخل الدولة، وحين حضرنا في الصباح للمدرج تفاجأنا بأن الحاضرين كانوا شخصين اثنين فقط، رجلا وامرأة، غير المحاضرين والمنظمين، وحضر طاقم من تلفزيون الشارقة بكاميراتهم لتسجيل وقائع الجلسات، وكان يوم عقد الندوة مصادفًا لموعد عقد ندوة صحيفة (الخليج) السنوية، فيبدو أن معظم الجمهور ومراسلي الصحف قد ذهبوا إلى هناك، وحار المنظمون وتداولوا الرأي، فقرروا أولاً تأخير موعد البدء لمدة ساعة. ومرت الساعة ولم يزد عدد الحضور إلا واحداً فقط. وبعد نقاش طويل انتهى بهم الرأي إلى تأجيل المحاضرات جميعها إلى الفترة المسائية، وعبثاً حاولت إقناعهم أن الفترة المسائية لن تتسع بحال من الأحوال لسبع محاضرات، لكنهم أصروا، إذ لا يمكن– من وجهة نظرهم– عقد الندوة بهذا العدد الضئيل من الجمهور، فما كان مني إلا أن استأذنتهم أن أعرض أنا ورقتي لأن المدرج فيه جهاز عرض، ولا يمكن عرض ورقتي في النادي الثقافي العربي؛ لعدم جاهزيته لذلك، فوافقوا على أن أقدم أنا فقط ورقتي في الفترة الصباحية، وتؤجل بقية الأوراق إلى المساء، وهكذا أصبحت محاضرتي أول محاضرة في الندوة، وسجلها تلفزيون الشارقة كاملة، وتم عرضها في التلفزيون، وبعد أن انتهيت من تقديم ورقتي، حزم طاقم التلفزيون أجهزتهم، وانصرفوا إذ قيل لهم إن الفترة الصباحية قد انتهت.

وبعد ذلك أخذ المحاضرون والمنظمون فترة استراحة تناولوا فيها المرطبات والشاي، وأخذوا يتناقشون بهدوء، فاقتنعوا بأن الفترة المسائية لن تتسع لست محاضرات، ووجدوا أن محاضرتي قد تم تقديمها بنجاح رغم قلة الجمهور، وصح عزمهم على تقديم محاضرتين أخريين بعد الاستراحة، وهكذا قدم الدكتور شهاب غانم والدكتور عمر عبد العزيز مداخلتيهما في الفترة الصباحية، وأخذا وقتهما كاملا. وفي الفترة المسائية قدمت بقية المحاضرات الأربع، وكان الوقت المخصص لكل متحدث قصيراً جداً، فلم يستطيعوا تقديم محاضراتهم بشكل مناسب، رغم كثرة الجمهور في النادي الثقافي العربي. واختتمت الندوة بأمسية شعرية استعادية من شعر باكثير

قدمها كل من الشاعرين رعد أمان وطلال سالم، وقد نشرت أبحاث الندوة بعد ذلك في عدد خاص من مجلة (الرافد) (يناير 2007م)، بينما نشر بحث الدكتور حميد في مجلة (شؤون أدبية).

المؤتمر الثاني الذي شاركت فيه كان مؤتمر مئوية ميلاد باكثير في القاهرة في يونيو عام 2010م، وقد نظمته في البداية رابطة الأدب الإسلامي، وكنت قد أرسلت لهم بحثًا وتم قبوله، وتقرر عقد المؤتمر في قلعة محمد علي بالقاهرة، وقد تزامن عقد المؤتمر مع موعد عقد مؤتمر اتحاد الكتاب العرب السنوي، وحين أرادوا حجز القلعة قيل لهم إن رابطة الأدب الإسلامي قد حجزته لعقد مؤتمر عن باكثير، فقالوا: ليست الرابطة بأولى منا بباكثير، فكان أن دخل اتحاد الكتاب العرب في تبنّي المؤتمر، ووجهت الدعوة لاتحاد كتاب وأدباء الإمارات للمشاركة، فاتصلت بي الأستاذة أسماء الزرعوني لتخبرني عن المؤتمر، وتسألني إن كنت أرغب في الاشتراك فيه بورقة عمل، فقلت لها: نعم وقد قُبلت ورقتي، فقالت: إذن سنضمك إلى وفد الاتحاد، وقد كان، فسافرت مع وفد الإمارات وكان المدعوون من قبل الاتحاد قد أنزلوهم في فندق راقٍ، وكل ضيف في غرفة مستقلة، بينما أُنزل المدعوون من قبل رابطة الأدب الإسلامي في فندق أقل درجة، وكل اثنين في غرفة، وكان مؤتمراً ناجحًا بكل المقاييس، وهو المؤتمر الوحيد الذي يشترك في تنظيمه رابطة الأدب الإسلامي واتحاد الكتاب العرب، وهذا لا يحدث إلا مع باكثير الذي يجمع على حبه الأدباء العرب كلهم على اختلاف توجهاتهم الفكرية والأيديولوجية، وقد شهد المؤتمر ظاهرة فريدة قل أن تحدث، فكنا نرى شيخًا معمّمًا كثّ اللحية يرقى المنصة فيتحدث عن باكثير بحب وإعجاب، وما إن ينزل حتى يرقى المنصة رجل حليق اللحية فيتحدث عن باكثير بحب وإعجاب، بل لقد ارتقى المنصة قسّيس بلباسه الكنسي، وأخذ يتحدث عن باكثير بحب وإعجاب.

ثم كان المؤتمر الذي نظمته جامعة عدن في ديسمبر عام 2010م، وعُقد في مدينة (سيئون) بحضرموت، على مدى ثلاثة أيام، وكان تظاهرة أدبية رائعة، شارك فيه باحثون من اليمن وخارجها، وتم تكريمي فيه لتأسيسي موقع باكثير على "الإنترنت".

ومن أجمل المؤتمرات التي حضرتها عن باكثير كان مؤتمر الهند، الذي نظمته جامعة كاليكات بولاية كيرالا في أكتوبر عام 2017م، وقد شارك فيه أكثر من ثلاثين باحثاً من مختلف ولايات الهند، بعضهم جاء في القطار في رحلة استغرقت عشرين ساعة، وشارك فيه من خارج الهند بالإضافة إليّ الدكتور عمر عبد العزيز والدكتور عبد الرحيم إيدي من جامعة أم القرى بمكة المكرمة، وكان من المقرر أن يشارك أيضاً الدكتور محمد أبوبكر حميد، ولكن تأخر إجراءات "الفيزا" لم يمكّنه من الحضور، كذلك وجهت الدعوة للدكتور شهاب غانم، ولكنه اعتذر لاعتلال صحته، وتم تسجيل مداخلته "بالفيديو"، وعرضت خلال جلسات المؤتمر الذي استمر ثلاثة أيام.

وفي العام نفسه شاركت في مؤتمر في جاكرتا عن (دور الحضارم في إندونيسيا) بورقة عن (إندونيسيا في أدب باكثير)، وبعده سافرت مع وفد اليمن إلى (سورابايا) حيث عقدت ندوة عن باكثير شاركت فيها مع أحد أعضاء وفد اليمن، وقد التقيت للمرة الأولى بأقارب باكثير في إندونيسيا وهم أبناء شقيقيه أبي بكر وحسن. وفي العام التالي 2018م وجهت لي الدعوة لحضور ثلاث ندوات عن باكثير في إندونيسيا؛ لتدشين إطلاق الترجمة الإندونيسية لمسرحية باكثير (عودة الفردوس) التي تؤرخ لاستقلال إندونيسيا، وقد ترجم فيها باكثير السلام الوطني الإندونيسي إلى اللغة العربية على لحن السلام الوطني نفسه باللغة الإندونيسية، وكانت أولى الندوات في مدينة (سورابايا) مسقط رأس باكثير، وحضرها عدد من أقاربه، وهم أبناء أشقائه وشقيقاته، وكانت ندوة جميلة ألقيت فيها المحاضرات باللغة الإندونيسية، وألقيت أنا محاضرتي باللغة العربية مع

الترجمة الفورية إلى الإندونيسية، ثم دعتنا أسرة باكثير إلى مقر إقامتهم في مدينة (جمبر) التي تبعد عن (سورابايا) مسيرة أربع ساعات بالسيارة، وقد قضينا ثلاثة أيام جميلة هناك في ضيافتهم، وزرنا منزل خال باكثير في قرية (منقلي) الذي يقع إلى جوار مصنع للأرز كان مُلكًا له، وبجواره نهر، جف الآن إلا قليلا، قيل لنا إن باكثير كان يقضي الساعات على ضفافه في أثناء زيارته لإندونيسيا، وقد أقيم لنا فيه حفل عشاء حضرته أسرة باكثير برجالها ونسائها وأطفالها، وألقيتُ فيهم كلمة قصيرة، عن شعر باكثير في (سورابايا)، ومنه قصيدته التي يذكر فيها أسماء قرى ومدن إندونيسية، ومنها قوله متغزلاً بفتاة من جزيرة (مدورا):

(مدوريةٌ) عطلٌ من الحلي جيدها كفتها ثناياها عن اللؤلؤ الرطبِ

تذكّرتها في (سورابايا) وأهلها بقرية (منقلي) بين (جمبر) إلى (رِمبي)

ولما ترجمها لهم المترجم ضحكوا وانبسطوا، ثم فُتح باب الأسئلة فطرحوا عليّ أسئلتهم، وكان أوّلَها سؤال طرحته إحدى السيدات: ما سر اهتمامك بباكثير؟ وهو السؤال الذي أواجَه به في كل مكان؟ وقد تبسّطت في الإجابة عنه ملخّصًا لهم أهم المزايا التي تفرّد بها باكثير بين معاصريه، والتي حبّبته إلى نفسي، وقد أقيمت ندوة ثانية في مدينة (جمبر)، ثم عدنا إلى (سورابايا)، وسافرنا في اليوم التالي بالطائرة إلى (جاكرتا) العاصمة، وفيها عقدت الندوة الثالثة في جامعة شريف هداية الله.

الحديث عن باكثير يطول، ولكني أكتفي بهذا القدر التزاماً بالمساحة المحددة.

أنا والشِّعر.. حكاية لم تنتهِ!

بقلم: الشاعر رعد أمان

قُدِّر لتلك النبتة الطرية أن توضع في أجمل أصيص احتوى على زهور وورود من كل شكل ولون .. أصيص كلُّه فن وأدب .. كلُّه شعر . كان كل من يمر بالبستان (الأماني) أو يلقي نظرةً عليه يمتلىء قلبه وفكره بكبير الاحترام وعظيم الإعجاب بأهله الذين امتاز الكثيرون منهم بخصائص الإبداع في أسمى وأجمل تجلياته من شعر ورسم وتشكيل وخط وموسيقى وصحافة وإعلام، وكل ما له علاقة بالثقافة والآداب والفنون . لذلك فقد نمت تلك النبتة وتندَّتْ بأجواء بيئة كانت على الدوام محمّلة بأنفاس الكلمة العذبة ونسائم الأنغام الشجية، وتتقافز في مداها رسوم الإلهام وأخيلته والوحي والإبداع الحقيقي الباحث عن قيم الأخلاق والمحبة، ومفاهيم الجمال وصوره في الحياة والطبيعة والنفس البشرية .

كانت لذلك الطفل وهو يجتاز سنته العاشرة نظراتٌ حائرةٌ تائهة، ولفتاتٌ إلى أضواء بدأت تبزغ في سماء مخيلته وترفُّ هنا وهناك.. في أفق ما، وراء ركام من ضباب شفاف، لم يكن بعدُ يستطيع أن يتبيّن ماهية تلك الأضواء ولا مصادر انبعاثها، ولا حتى لماذا يراها هو دون غيره من إخوته وأترابه، فكلما حاول أن يوجِّه أنظارهم إليها أنكروا عليه ذلك إذ لم يكونوا يرون ما يرى هو، لكنه كان يراها وكانت تملأ نفسه بدفق غريب دفَّع الرغبة لديه في تلك السنِّ الغضة إلى ارتياد مساحات من الاطلاع والمعرفة واستكناه الأشياء والظواهر من حوله، وإذا بيده تتسلل إلى مكتبة والده الشاعر والصحفي الزاخرة بدواوين الشعر وكتب الأدب والتاريخ والسِّيَر والمسرح والمجلات المتنوعة، وما زال إلى اليوم يتذكر منها مجلتي (الهلال) و (العربي) المشهورتين. هنا بدأت تتفتح مداركه، وبدأ يتفتق على عوالم الكلمة الشاعرة والصور الآسرة وهي تموج بالسحر والجمال.. بدأ يقرأ ويقرأ، كان المهم عنده أن يقرأ حتى وإن لم يكن يفهم كثيراً مما يقرأ، إلا أن تلك القراءات شكلت بداية مسيرة سترسم ملامح مستقبله في قادم الأيام والسنين.. مسيرةٍ باركت أولى خطواته في رحابها بمجرد أن مدَّ يده إلى الكتاب.. ويتذكر من بين الكتب التي أثّرت في نفسه الشاعرة بطبيعتها واستهوت أحلامه وتطلعاته وزرعت في روحه حُبَّ الشعر والأدب كتاب

(دمعة وابتسامة) لجبران خليل جبران، وديوان (إشراقة) للتيجاني يوسف بشير، وكتاب (أنا) لعباس محمود العقاد، وديوان (الجداول) لإيليا أبي ماضي، والشوقيات وبعض المسرحيات الشعرية لعلي أحمد باكثير، يذكر منها (همام أو في بلاد الأحقاف) ورواية (الأم) لمكسيم غوركي، وترجمة لقصائد شاعر الهند العظيم طاغور، وديوان (بقايا نغم) للطفي جعفر أمان، الذي تربطه به صلة قرابة لصيقة من ناحيتي الأب والأم معاً، إذ كان –رحمه الله– عمَّ والِدَيْه، والذي حفر أثره عميقاً في نفسه بما كان يمتلك من مواهب متعددة في الكتابة الشعرية والرسم والخط والموسيقى والنقد والمسرح والتمثيل والإلقاء.. باختصار كان فناناً شاملاً، بل كان كتلة إبداعية تمشي على الأرض عزّ نظيرها ولا تشبه إلا نفسها.. وبعد وفاته في أوج شبابه (كان يومها في الثانية والأربعين) رثاه بكثير من أبيات الشعر، لا يتذكرها للأسف، ولكنه يتذكر مثلاً قوله فيه:

بحثتُ أمسِ وإني أبحثُ الآنا
فلم أجدْ مثله في الناس فنانا
ولا أرى غيرَه بدراً. ولا أحدٌ
في الفنِّ يُشبهه لحناً وأوزانا
(لطفي) ومن مثلُ لطفي في تفرده
حاشا، فمثلهْ لا يأتي ولا كانا

هذا ما يتذكره اليوم عن بداية العلاقة التي نشأت بينه وبين الكتاب، ويتذكر حتى أغلفة تلك الكتب وأوراقها وربما رائحتها أيضاً، والمفارقة أنه لم يعد يتذكر في المقابل الكثير من الكتب التي كانت تحتويها مكتبة والده تلك واستقى منها ما طاب له وروَّى ظمأه إلى الأدب والشعر والمعرفة، فقد زالت من ذاكرته وبهتت ملامحها مع الزمان.

من بين كل أنواع الأدب كان يشدُّه نحو الشعر هاتفٌ خفيّ يهمس في كيانه، ويحرك أوتار روحه ووجدانه، فيسمع لها نغمات تسري رخيمة وناعمة مع كل خفقة من قلبه وكل نَفَس من نَفْسه، كان يصغي إلى ذلك الهاتف الغريب الساحر بكل جوارحه في كل وقت وحين، حتى في لحظات تحضير الواجبات المدرسية في المنزل، أو حتى داخل الفصل الدراسي نفسه.. بدأ ذلك الهاتف

يتملك عليه كل جوانب فكره واهتماماته، وبدأ يقرأ في فن الشعر وعن الشعر.. عن ماهيته وخصائصه وقوانينه وضوابطه وقواعده وأسسه وتعريفاته أيضاً (مع أنه أدرك فيما بعد أنه لا يوجد تعريف محدد للشعر).. بدأ يقرأ، فإذا به يتفتح على دُنىً رحيبة وأمداء مديدة وعوالم ساحرة تموج بالجمال والبهاء، وإذا بعواطفه تهتز وبمشاعره تتحرك، وبشعلة الرغبة في الكتابة تتقد في كل جارحة من جوارحه تنبض بالحياة، أما دخانُها فقد بدأ يتصاعد وبدأ يشتمُّ شذا عطره يملأ آفاق آماله وأمنياته.

وفي لحظة لايعرف إلى اليوم كيف انفلتت من سماء الدهشة فجأة لمع بارقٌ عجيبٌ على جبين شفق أزرق تجلى في أفق خياله، وانسكب إلهاماً حلواً في كأس روحه، وانتشى أيَّ انتشاء وهو يُفرغه على صفحة بيضاء كلماتٍ نابضة فتتشكل من تلقاء نفسها أبياتاً أحس أنها موزونة.. هو لايتذكرها الآن، لكنه يتذكر كيف طار فرحاً بتلك الأبيات قبل أن يُسلم رأسه للنوم متفكراً ملياً فيما كتب في تلك الليلة العجيبة التي لم تشبه في ملامح صورتها لياليه السابقات.

"هذا شعر!"، هكذا قال له صديقه الأقرب إليه بعد أن عرض عليه ما كتب صباح اليوم التالي.

"حقاً؟ هل هذا شعر؟ هل من المعقول أن أكون كتبت شعراً؟ الشعر أكبر مني، وما كتبته لا يعدو أن يكون تعبيراً عادياً وفيه ضعف وركاكة".. هكذا بدأ يحدث نفسه وهو جالس على صخرة كبيرة أمام البحر يتأمل في اللانهاية. "الله.. ما أجمل وأعظم أن أكون شاعراً مثل جدي (لطفي)، ولكن أين أنا منه؟ شتان بين الثرى والثريا.. هو قمة الأدب والشعر والإبداع.. هو قصيدة تمشي على الأرض، وأشهر من نار على علم، أما أنا فلا أزال أضع خطوةً أولى في طريق هذا العالم الواسع الفسيح، أنا لست شيئاً بعد".. وإذا بهاتف في أعماقه يوقظه من شروده، فيعود إلى نفسه.. يعود إلى كتبه وأوراقه يكتب ويكتب، ويشطب ثم يكتب، ويَعرض ما يكتبه على أصدقائه ومعلميه؛ ومن حسن حظه أن قيضت له الأقدار معلماً للغة العربية عرف كيف يوجهه الوجهات الصحيحة ويكون له عوناً على شرح جوانب من علم العروض وانتقاء الكتب الصالحة له لقراءتها والاستفادة منها في اكتساب المعرفة وتنمية المدارك، فلكي تكون كاتباً جيداً عليك أولاً أن تكون قارئاً جيداً، ثم إن موهبة الشاعر لا تنمو ولا تتنفس إلا بالقراءة، لأن هذه الموهبة إنْ لم تُصقل

بممارسة القراءة لا يكون الشاعر شاعراً ولا يصل إلى الشاعرية، وبالتالي تجف ينابيع الموهبة فيه وربما تموت.. هكذا كان يردد معلمه على مسمعه دائماً.

كان كل ذلك لمعةً من بدايات نُسي جُلُّها وبقيَ أقلُّها نواقيسَ ترنُّ في بعض الأحايين بخفوت في أغوار نفسه.

ويمضي الزمان، ويشبُّ ذلك الطفل ويكبر ويقوى عودُه، ويمتلك الجرأة في نشر ما يكتب من شعر وهو في السابعة عشرة من عمره، كما كان في المدرسة يكتب الأناشيد لتُقَدّم في مختلف المناسبات المدرسية والوطنية واحتفالاتها، وكان يقف أمام الطلبة في الطابور الصباحي ليلقي كلمة الصباح والتي يضمِّنها أبياتاً من الشعر، وكانت عادة ماتنال إعجاب زملائه الطلبة معلميه واستحسانهم، وربما من هنا بدأت علاقته مع الإعلام ومع الإذاعة بالذات، حيث أصبح مشاركاً ومُسهماً نشِطاً في برامج الإذاعة المدرسية خلال المرحلة الثانوية يقدم عبرها أحاديث أدبية وبرامج وقراءات شعرية متنوعة مما ينتقيه أو يؤلفه هو، وهذا ما أعطاه دافعاً لطرق أبواب الإذاعة المركزية في بلاده بعد تخرجه من الثانوية العامة للإسهام فيها وتقديم البرامج، ما شجعه في مرحلة لاحقة على اختيار مجال الإعلام للدراسة الجامعية . وسافر بعيداً لينهل العلم من جامعة روسيا البيضاء، وهناك تفتحت شاعريته على سحر الطبيعة وجمالها، فكان ينهل من نبعين .. نبع العلم ونبع الجمال .

هناك كانت لشاعريته انطلاقات كثيرة في فضاءات رحيبة غامرة بالطريف من المواقف والوضيء من المعارف التي هدته إلى سبل متعددة نحو الإبداع الشعري ما كان له أن يهتدي إليها لولا معرفته وإلمامه زمانئذٍ باللغة الروسية، فقد ساعداه ومكَّناه من قراءة الأدب الروسي العظيم، والاطلاع على بعض النماذج والإشراقات الأدبية والشعرية، فكان يقرأ قصائد ألكسندر بوشكين، بل ويحفظها عن ظهر قلب، وكانت معلمته الروسية تتباهى به أمام الطلبة والمعلمين في حفظ وإلقاء أشعار بوشكين، كما كانت تنتقي له القصائد ليحفظها بل وتشرح له معاني مفرداتها وتبيّن جمالياتها التعبيرية والأسلوبية وغير ذلك من فنيات الكتابة الشعرية عند بوشكين، فأحبَّ اللغة الروسية والشعر الروسي وبدأ يقرؤه بكثرة، وأحبَّ بوشكين الذي كان لاسمه وقع عجيب عليه، فكان كلما سمع أو قرأ اسمه يستعيد شيئاً من شعره بينه وبين نفسه. ولا يمكن له أن ينسى تلك

اللحظة الأثيرة من لحظات حياته في يوم ربيعي زاهر والتي وقف فيها طويلاً أمام تمثال بوشكين في موسكو متأملاً ملامحه البراقة الموحية، وحوله المئات من الروس من أعمار مختلفة لكن غالبيتهم كانوا من الشباب بينهم فتيات كلهن حسناوات وفتيان عاشقون، هذا يغازل هذه، وتلك في حضن ذاك .. عالم من الجمال الآسر والبهاء الساحر يموج بالمحبين وأحلامهم وفتنة منظر ألهمه قصيدة طويلة ضمَّنها إعجابه ببوشكين واحترامه لشعب يقيم التماثيل والأنصاب لعظمائه ومبدعيه في الشوارع والحدائق والساحات والميادين العامة تمجيداً وتخليداً لهم في الأجيال واعترافاً بعطاءاتهم وبما قدموا لوطنهم وللثقافة والأدب الإنساني، وهي القصيدة التي نشرها في باكورة مجموعاته الشعرية (من أغوار الأمس) ويقول فيها :

أكبرتُ شعباً يُكبِرُ السّامينا
بجلالِ نصبٍ يبهرُ الرائينا

مَن ذا الذي بالفخر شِيدَ بناؤهُ
فزها به صدرُ الوجود وزِينا؟

هذي تناجيهِ وتلكَ تضمُّهُ
وذِهِ تبثُّه في الغرام شجونا

ومنها :

ما أنتَ تمثالٌ ولكنْ مزهرٌ
الخلدُ داعبه فبثَّ لحونا

(روسيا) تباهي باسمِكَ الدنيا

وقد أرسَت بيانَكَ للقرائحِ دِينا!

وكان يقرأ لعدد من الشعراء والأدباء الروس الكبار، ومنهم ميخائيل ليرمنتوف ونيقولا غوغول وفيودور دستويفسكي وليو تولستوي وأنطون تيشخوف ومكسيم جوركي وآخرون، كان يقرأ لهؤلاء الأفذاذ بلغتهم التي كتبوا بها وأبدعوا أعظم الأعمال الأدبية الخالدة . ويذكر أنه كان يرتاد المكتبات العامة في مدينة (مينسك) عاصمة روسيا البيضاء ويصرف فيها الساعات الطوال أحياناً في القراءة، وكان يخصص جزءاً من معاشه كطالب لشراء الصحف اليومية والمجلات، وحتى الكتب التي كان يقتني كمية منها في غرفته بالسكن الطلابي. وكم كان يفرح حينما ينتهي من اجتياز فترة الامتحانات ليتفرغ لقراءة القصص والروايات ودواوين الشعر الروسي التي أثرت فيه وانعكس أثرها على شخصيته ومسيره في دروب الشعر، وإذا به يحفظ قصائد لشعراء الحقبة السوفييتية ومنهم الشاعر يفجيني يفتوشينكو الذي كان يقرأ قصائده في صحيفة (البرافدا) الشهيرة، وهذا الشاعر بالذات لا يمكن له أن ينساه لأن ذكره يعيده إلى موقف طريف ملتصق في جدار ذاكرته، فقد حدث أن أخفق ذات يوم في أداء امتحان مادة المنطق، وكان عليه أن يعيد الامتحان بعد أسبوع في فرصة ثانية لتعويض إخفاقه الأول، وحين وقف للمرة الثانية أمام مدرِّسة المادة ذات الملامح الصارمة أخبرها بكل جرأة أنه يحفظ الكثير من الشعر باللغة الروسية طالباً منها أن تأذن له بإلقاء إحدى قصائد الشاعر يفجيني يفتوشينكو قبل أداء الامتحان، والغريب أن المعلمة لم ترفض بل على العكس وافقت على الفور وبدأت سمات الانبساط والارتياح ترتسم على وجهها مع تلاشي علامات الصرامة شيئاً فشيئاً، وإذا بها تجلس على كرسيها مصغية . وراح يلقي قصيدة للشاعر يفتوشينكو كان يحفظها، والحق أنه لم يكن يرى معلمته وهو يلقي الشعر بلغة سليمة – هكذا خيل إليه – بل كان يرى فيضاً من شعاع أبيض يتدفق ليملأ فضاء القاعة . استمهلته المعلمة قليلاً، ثم خرجت من القاعة وعادت بصحبة معلمتين أخريين، وطلبت منه أن يعيد إلقاء القصيدة من البداية فأعاد إلقاءها كأحسن ما يكون الإلقاء عنده، وفي نهايتها سمع دوي تصفيق وعبارات استحسان من المعلمات، ولم تجد معلمته بداً لحظتها من أن تضع له علامة كاملة في مادة المنطق من غير امتحان، لأن هذا – كما قالت له – هو المنطق بعينه .

وبعد سنوات من الغربة والدراسة عاد إلى بلاده وهو يحمل شهادة الماجستير في الإعلام الدولي متخصصاً في فنون الإذاعة والتلفزيون.

إن ذلك الطفل الذي أحدثكم عنه والذي أصبح متخرجاً في الجامعة لم يكن سواي، فقد كنتُه أنا.. نعم هو أنا، فلقد كنت في كل ما ذكرت أتحدث عن نفسي، أنا المولود في مدينة عدن مدينة الثقافة والفن والتاريخ الأصيل والحضارة العريقة فجر أحد أيام شهر نوفمبر من العام 1962.

في أحد الأيام جاءني صديق أعتز بصداقته – وهذه حكاية أرغب في سردها لما لها من أثر في ذاكرتي وعلى تجربتي – عرفتُ عن صديقي هذا تمتعه بمستوى رفيع من الثقافة والاستقامة، جاءني والحيرة يغلفها الحزن تملأ عينيه، وعندما سألته عما به قطّب جبينه وحاجبيه ونظر إليَّ في ريبة وتكدُّر، وألقى بسؤال استفزني حقاً .. قال : "هل نحن في حاجة إلى الشعر؟!"

رمقتُه بحدَّة شابها برود متكلَّف، وسرحت بي الذاكرة بعيداً وأضنيت تفكيري في هذا السؤال (الاستفزازي) فلم أذكر أين ومتى سمعته أو قرأته، لكن وبعد أن حاولت دون فائدة إقناع صديقي بحاجتنا إلى الشعر مضى غير مقتنع . وفي لحظة حوار داخلي مع النفس، في وقت كانت الكآبة والهموم تعشش في رأسي من هول ما آلت إليه مطالب واحتياجات الناس، في تلك اللحظة العصيبة وجدتُني أتساءل مثل صديقي، وذهبت إليه، قلت له على الفور : نعم، نحن في حاجة إلى الشعر . نهض بقوة ولكن هذه المرة في صراخ مكتوم قال : "قل لي بربك متى كانت القوافي للجائعين طعاماً؟ متى كانت (البحور) للظماء شراباً؟ ومتى كانت الأوزان للعراة لباساً؟ ثم قل لي أيها الشاعر متى كانت (الأبيات) للمطرودين واللاجئين والمشردين ديار ًا وملاذاً وملجأً؟ أبعد كل هذا نكون في حاجة إلى الشعر؟"

لمحت في بعض ما قاله بعض الحقيقة، لكني لا أستطيع أن أتخلى عن شعور حقيقي يكتنفني، عن إحساس جياش يتملكني، عن عاطفة سامية تتحرك في كياني .. عن إلهام .. عن خيال .. عن وحي .. عن ملاك يسافر في أعماق روحي ويسكنها .. ملاكٍ اسمُه الشعر .

ورغم ذلك لم أمنع نفسي من التفكير فيما ذهب إليه صديقي .. تُرى في هذا الزمن السيء الرديء، الزمن الذي كثر فيه فساد الأخلاق وبيع الذمم وشراء الضمائر، الزمن الذي تكدرت فيه أمواه الإنسانية العذبة فلم تبقَ على الأرض فيه إلا بركٌ راكدات آسنات تنبعث منها روائح عفنة نتنة

هي روائح الظلم والقهر والاستبداد والاستعباد .. روائح الخنا والفساد .. الدمار والموت، الزمن الذي حجب عن أعين البشر جمال الوجود وسحره وبهاءه، وحرَمهم حتى من الشعور بالأمن والاطمئنان والسعادة .. الزمن الذي ما زال مصدوراً يتنفس البارود وينفث سمومه في الآفاق دخاناً أسود يخنق به السماء .. في زمن كهذا هل نحن حقاً في حاجة إلى الشعر؟! كنت أدرك أن هذا السؤال غريب ويثير الحيرة ويبعث على الاستغراب لدى البعض، وربما ينتزع من البعض الآخر تعليقات ساخرة وغير مكترثة، لكنني كنت أدرك تماماً أنه سؤال مشروع وسيظل قائماً، مع إيماني الأكيد بأننا في أشد الحاجة إليه أكثر من أي وقت مضى .

حكاياتي مع الشعر تترى في ذاكرتي، ومن الصعب أن أختار وأنتقي منها ما ترك أثراً في نفسي، فكلها أمدَّتني بما أفادني في حياتي . من تلك الذكريات أنني أحببتُ في بداية تفاعلي مع الحراك الأدبي والشعري في عدن شاعراً رقيقاً وفناناً أنيقاً اسمه عبدالله الدويلة – رحمه الله – أحببت في هذا الشاعر شفافية روحه وجمال حديثه وصدق منطقه، وحرصه على قيم ومفاهيم الفن ومثله العليا . لقد حزنت على فراقه حزناً شديداً وبكيت متألماً يوم ساق الناعي نبأ وفاته ورحيله عن الدنيا، ذلك لأنه استطاع أن يحتل مكاناً عزيزاً في أحناء فؤادي، ولأنني كنت أرى فيه قدوة وشهاباً أستضيء بنوره في دروب الفن والإبداع، وخاصة الشعر .

يوم أتمَّ الشاعر عبدالله الدويلة عامه الستين، احتُفي به في مقر اتحاد الأدباء بعدن يوم الخميس 12 نوفمبر 1992م، وكان يبدو شاباً مرحاً ومبتسماً، وقد هنّأته في ذلك الاحتفال بقصيدة قلت فيها :

مَنْ مُبلغي الستين حتى أطربا
مَنْ مُبلغي الستين يا شيخاً صَبا
رفَّتْ بجنبيه الحياةُ صبيّةً
كحلى تنازعُه المُدامَ فما أبى!

ومازالت ضحكتُه التي أطلقها مرسومةً في خاطري، وصداها يرنُّ في خلَدي إلى اليوم، حين توجهت إليه متسائلاً في تعجب:

كيف انتزعتَ من الزمان شبابَهُ

فعفا الزمانُ وأنت في أوج الصِّبا؟!

وكان حاضراً بعض من مناصري ما يسمى بقصيدة النثر الذين لم يَرُقْ لهم أن يسمعوا مني قصيدةً نسجتُها على منوال الأقدمين، فعابوا عليَّ ذلك جهرةً، وليتهم عابوا على أنفسهم عدمَ ترسُّمهم خطى الأوائل في ميادين الأصالة والبلاغة والبيان .

أقول –رحمه الله–، فقد توجه إليَّ بعد الاحتفال ناصحاً، وعلى مسمع من الحاضرين قال لي : "يا رعد يا ابني، لا تُصغِ إلى هؤلاء الذين يطالبونك بالتخلي عن عمود الشعر، واستمر في هذا الطريق ما دمتَ ارتضيته لنفسك، وصدقني هم يقولون لك ذلك لأنهم لا يستطيعون كتابتَه مثلك" . وأذكر أنه دارت معركة قلمية على صفحة إحدى الصحف الرسمية حول هذه الحادثة لأيام .. ومازلت أحتفظ بنسخ من تلك الصحيفة.

المهم أن هذه الكلمات الناصحة النيرة التي انبعثت من قلب إنسان شاعر فنان مازلت أذكرها ومحال أن أنساها، ولا أخفي شعوري في تلك اللحظة، فقد استبدَّ بي الخجل وأطرقتُ صامتاً ولم أنبس ببنت شَفة.. وبصراحة، انبعث في داخلي إحساس غريب بشيء اسمه (الغرور) لم أدرِ مصدره، لكنني حرصتُ أمام أستاذي الجليل على أن أكتمه وأدفنه تحت ركام الخجل والتواضع لئلا يخيبَ ظنُّه فيَّ، وفلحتُ في ذلك، ومن يومها لم يراودني ذلك الاحساس الغريب أبداً .

هكذا أنا .. لا أكتب القصيدة البيتية بل هي التي تكتبني، ولا أزال إلى اليوم أحدث نفسي وأسألها : "لماذا عليَّ أن أنجرَّ وراء ما لا أرضاه ولست مقتنعاً به وأكتب مثل الآخرين (قصيدة النثر)؟ لماذا لا يكتبون هم مثلي؟" ولا يخرجني وينقذني دائماً من دوامة هذه التساؤلات إلا نصيحة أستاذي الجليل – رحمه الله – فأشعر بالراحة والاطمئنان، وتسكن روحي .

وتمضي الأعوام، وتتوسع دوائر الاهتمام الأدبي والثقافي في المجال الإعلامي الذي زاد من تجاربي وأثرى خبرتي العملية كونه أصبح التربة الخصبة التي بدأت أغرس فيها أولى البذور الفكرية والإبداعية.

وشاءت الظروف وشاء القدر أن أنتقل من عدن إلى الشارقة، وفي الشارقة وجدتُ بيئة خصبة ألهمتني الكثير والأجمل من الالتماعات الشعرية والأدبية التي شعَّتْ مني، سواء من خلال البرامج الإذاعية والتلفزيونية التي ظللت أقدمها بحكم الوظيفة، أو من خلال المناشط والمهرجانات

الثقافية المختلفة والتي لا تنقطع في الشارقة مشاركاً فيها ومقدماً لها. نعم في الشارقة يومض الشعراء وفيها تومض إلهاماتهم ويومض الوحي فيهم ومنهم، وتبسمُ لآلئ دواخلهم فتغري وتبهر عيون الزمان .

وأتذكر الآن مقولة لجبران، ذلك المبدع العبقريّ، الشاعر الإنسان والمصور الفنان، فقد كتب يقول : "الشعر وميض برقٍ والنثر ترتيب كلام، فليس إذاً من الغريب أن يرغب الناسُ في الترتيب وهو في مرتبتهم دون الوميض وهو في الفضاء" .

ولعمري فإن الشاعر في الشارقة يجد نفسه يرتقي، يجول بين الكواكب اللامعة والنجوم الساطعة، ينهل من سنائها ويغتسل بضيائها، أبداً يحسُّ في نفسه نزوعاً إلى الفضاء، وإذا به يرسل العيون إلى هناك كي تكتحل بالوميض وهو ينسكب من أثداء النجوم .. عيونِ السماء .

أتذكر .. في ليلة من ليالي الشعر المخملية – وما أكثرها في الشارقة وأنورها وأعطرها – وضمن ملتقى الشارقة للشعر العربي في إحدى دوراته، وبينما كنت أستعد لتقديم ثلاثة من خيرة الشعراء العرب، وقفت أمام الشعراء والحضور حائراً بين أمرين اثنين، ووجدتُني في وضع لا أُحسد عليه مرَّةً، وربما حُسدتُ عليه مرات .. أما الأمر الأول فهو اقترابي من أولئك الشعراء .. من تلك القصور المنيفة التي شيدت على روابٍ مرتفعة، ولكم أن تتخيلوا ما أصابني حينما دنوتُ منها.. لقد رفعت بصري فإذا ببواباتها تتعالى في السماء. وأما الأمر الثاني فهو ذلك الشرف الذي أسبغته عليَّ دائرة الثقافة والإعلام في الشارقة وكللتني به يوم اختارتني وعهدت إليَّ تقديم شعراء كلُّهم شامخ راسخ وسامق باذخ، فللأمر الأول التمستُ لنفسي العذر، وللثاني – لا أخفيكم – شعرتُ بالفخر.

في تلك الفسحة الزمنية التي جادت بها الشارقة على الشعراء وعشاق الشعر، وفي ذلك الحيز المكاني الذي مازالت إلى اليوم تتنفس في فضائه وزواياه أخيلة الماضي العريق، وترتسم على جدرانه صورُ المجد العتيد والتاريخ الأصيل، هناك حطت بعد السفر الركاب، ومن هناك انطلقت الرحلة نحو السحاب، والشعر لو تعلمون رحلة .. رحلة النفس إلى النفس، منها يشع وفيها يغيب فيضيؤها ويضيء الحياة من حولها، ولا ينطفيء بانطفائها .. أبداً، بل يبقى خالداً خلود الأبدية .

استشهدتُ وأنا أقدم الشعراء في تلك الليلة ببيتين من قصيدة قلتها ذات يوم من ذلك العهد البعيد، وفيهما أفلسف أمر خلود الشاعر بعد الرحيل، وألقيت:

ذلك الشاعرُ باقٍ في المدى
يتحدَّى كالخلود الحقبا
هو كالنجم مُشعٌّ كلما
أقبلَ الليل وأرخى الحُجُبا

حقاً .. لقد انتشى الليل ليلتها، وتوثبت الخيالات وتوقدت المشاعر، وحلق الشعراء في سماوات ذهبية من الفن والإبداع، وصبُّوا خمرةً عجَباً عُصرتْ من نبتٍ سحريٍّ عجيب لا ينمو إلا في وادي عبقر، فأثملوا بها عشاقَ الكلم الوضّاء، وهم الذين لا تذهب كلماتهم ولا حياتهم هباء، لأنهم الظافرون بالبقاء .

وانقضت تلك الليلة بكل ما فيها من سحر وروعة، وذهب الشعراء وآوَوا إلى مضاجعهم لينامواويحلموا، أما أنا فلم أنم ليلتها، بل شددتُ جفنيَّ بنجم في السماء وسهرتُ حتى الفجر وأنا أردد في سري مع شاعر فنان، كان فلتةً في الزمان، هو جدي – رحمه الله – لطفي أمان :

لا تسلني كيف أجتازُ السنينْ
بخطىً أثقَلها قيدُ الوَهَنْ
لستُ مثلَ الناس من ماءٍ وطينْ
أنا روحٌ ليس يفنيها الزمنْ

أيامي التي عشتها في الشارقة كانت كلها شعراً وأدباً وثقافة.. كانت أجمل أيام العمر، وما زادها جمالاً وائتلاقاً وظيفتي التي قضيتها في مجال الإعلام المرئي والمسموع في مدرسة قناة الشارقة الفضائية وإذاعتها الأثيرة، ففيهما وفي رحابهما أعطيت كل ما عندي من إمكانات وقدرات إبداعية في إعداد وتقديم البرامج، ساعدني ذلك النهج الذي يسير عليه هذا الجهاز الإعلامي الأصيل والرصين الذي يرفع شعار الثقافة مسترشداً برؤى وتوجيهات مؤسس الشارقة الحديثة وحاكمها وباني نهضتها المباركة صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، ولذلك فقد

قدَّمت على مدى سنوات طويلة ما شاء لي من البرامج ذات الطابع الأدبي والشعري على وجه الخصوص، وأتيح لي أن ألتقي وأتعرف على الكثير من المثقفين والمبدعين والمفكرين العرب سواء من الذين يزورون الشارقة لحضور المهرجانات والمناسبات الثقافية المختلفة، أو أولئك الذين ألتقيهم في سفرياتي ورحلاتي العملية إلى أماكن كثيرة من العالم .

من كتاب ذكريات الشارقة الذهبي الضخم والفخم الذي له أول وليس له آخر ماذا أختار وماذا أنتقي يا تُرى؟ حكايات كثيرة وقصص أثيرة، وكلها عزيزة عليَّ، لكنني أختار صفحة واحدة ناصعة بنور فريد، خُطت بأنامل وقلم حاكم الشارقة سلطان الثقافة والإبداع، فقد كنت شاهداً على ميلاد مبادرة نادرة في هذا العصر لهذا الحاكم الاستثنائي الذي عزَّ نظيره، وهي مبادرة تأسيس وافتتاح بيوت للشعر في الأقطار العربية لتكون منابر تنشر شعاع الثقافة والإبداع وتعيد الاعتبار للشعر والشعراء وتدعمهم مادياً ومعنوياً وتحتفي بهم وبإبداعات الشباب منهم وتصدر لهم دواوين وتقدمهم كأصوات جديدة إلى المشاهد الشعرية العربية .

كنت أول من يوفده تلفاز الشارقة لمرافقة وفد دائرة الثقافة في الشارقة التي تتولى تنفيذ توجيهات صاحب السمو حاكم الشارقة بإنشاء بيوت الشعر وافتتاحها، فكان لي الشرف أن حضرت ونقلت بالصوت والصورة اللحظات التاريخية البهيجة لافتتاح بيوت الشعر العربية والتي كان أولها في مدينة المفرق بالمملكة الأردنية الهاشمية، ثم في مدينة الأقصر بجمهورية مصر العربية وبعدها في نواكشوط بموريتانيا، ثم في القيروان بتونس، والخرطوم بالسودان، وتطوان بالمغرب، لكني لم أتمكن من حضور ونقل حفل افتتاح دار الشعر في المدينة الحمراء مراكش المغربية . وكم كانت فرحتي تكبر وتعلو وتعانق السماء حين كنت أشارك في حضور ونقل المهرجانات السنوية التي تنظمها تلك البيوت .

وقبل أن أبرح واحة الشارقة الظليلة إلى واحة أخيرة في هذه الإطلالة التذكارية على جزء من عالم تجربتي المتواضعة أرسل للشارقة باقة حب ووفاء شكراً لها واعترافاً بأفضالها، ففي الشارقة ومن بوابة دائرة الثقافة والإعلام خرجت إلى النور جميع دواويني الشعرية التي نشرتها حتى الآن، وهي :

(من أغوار الأمس، دفقة من حياض العطر، غداً أول العمر، الأنفاس العابقة في حب عدن والشارقة، وديوان تغريدة) .

وبعد هذا كله ينبري سائل ويسأل: ما هو الشعر؟ ما هو الشعر؟ حقاً لا أدري، لأن هذا السؤال بالذات توجهت به ذات يوم إلى أحد أعلام النقد الأدبي العرب، والشعر على وجه الخصوص، فأجابني ببساطة قائلاً " لا أدري! " .. ثم إنني بقيت بعد إجابته تلك أفكر في ماهية الشعر، هل الشعر نارٌ أم الشعر نور، أم هو مزيجٌ من نار ونور؟ ماهو الشعر؟

اسمعوا يا إخوتي ..

إذا كان الشعر ناراً فهو يحرق، وإنْ كان نوراً فإنه يضيء .. وفي هذا لا أفصل أنا ولا أنتم، ولا حتى مَن ينقدون الشعر، العارفون بأسراره وخباياه، إذاً مَن؟

إنه الشاعر .. نعم إنه الشاعر ولا أحدٌ سواه، هو وحده يعرف ما يعنيه ويقصده وما يرمي إليه، ولا أخفيكم سراً إذا قلت إنه أحياناً لا يعرف، وهنا تكمن إشكالية جدوى الشعر، والفرق بينه وبين اللاشعر، وفحوى أمر الغموض والفهم الأجوف الذي يطلب من الشاعر أن يتخذ من المنطق سُلَّماً إلى العقول، بدل أن يتخذ من الإيحاء والإحساس مسلكاً إلى المشاعر والعواطف والأرواح .

إن الحديث عن الشعر لا يستقيم دون الحديث عن شياطين الشعر، ويقولون إن لكل شاعر شيطاناً يوافيه من وادي عبقر في أوقات وأحايين محددة يلقنه الشعر، وهو في الأصل يقوله ولكن بلسان الشاعر . وإذا التبس المعنى على الأفهام وعزَّها إدراكه، إذا بهم يقولون : المعنى في بطن الشاعر . وبطن الشاعر منه – لو يعلمون – خاوية، لاهي أدركته ولا هو ملأها، فقد قالها الشاعر بإيحاء من شيطان شعره .. وكفى!

إن مسألة شياطين الشعر هذه عميقة ومتشعبة، وإذا حاولنا الاقتراب منها فإنه سيلزمنا الكثير من الوقت والبحث، لذلك فسوف أرجئه إلى فسحة زمنية أخرى، وحتى تحين سأكتفي بتوجيه أنظاركم إليها من بعيد بين الفينة وأختها، علَّكم ترون شياطين الشعر وهي تتقافز حاملة مخيلات الشعراء التي لولاها لما حلَّقت بنا في فضاءات فِساح وسموات عِراض وآفاق رحبة مديدة .

ويسألني صديقي: "ولكنك لم تجبني ما هو الشعر؟"

الشعر؟! ما هو الشعر؟ اسمعوا .. الشعر رؤىً منسابة في دلال عجيب، مزدانة بأنفاس ملونة تصعد باردة من رئات جِنان ساحرة، وتظلُّ تتغنج على بساط الأفق النشوان من عطرها الفواح، تنشره في كل أرجاء الدنيا، فتسكر منه القلوب والأرواح، وهي ماكانت لتسكر لولا الموهبة الحقيقية والعبقرية الفذة .. وكذا الشاعر الحقُّ الأصيل، إنْ أنشد أطرب، وإنْ قال أجاد وصار ذكرى سائرة، وتلك غاية الشعر .. أنْ يحيا في النفوس والوجدان عبر الأجيال والأزمان أبديَّ النبض سرمديَّ الضياء، هناك.. في كنف الخلود . هكذا يصبح الشعر مركباً يمخر عباب خضمٍ طامٍ أحياناً، ويتهادى على صفحة بحيرة وديعة هادئة أحياناً أخرى.. وهكذا تهتزُّ المشاعر وتطرب في انتشاء غامر وقد لامستها قوافٍ رِقاقٌ عِذاب زفَّتها إيقاعاتٌ وأنغام، وهكذا تثور ويهتاجها من الشعر بيتٌ، ويلهبها منه شواظٌ وجمر .

الشعر يا إخوتي هو هذا وذاك، فلا يقولنَّ أحدٌ منكم إن الشعراء يعيشون في أبراج عاجية، ويتقلبون على فُرُش من الدمقس والحرير، ويلتحفون سحباً مخملية .. لا، لا يقولنَّ أحدٌ ذلك، فكم من شاعر عُذِّب وتألم، وكم من شاعر نُفي من أرضه وحُرم من العيش في وطنه، وكم من شاعر عاش غريباً في دياره وبين أهله، وكم من شاعر دفع حياته ثمناً لموقف أو مبدأ آمن به أو بيت قاله، ولا شيء لدى الإنسان أعز من روحه.

في دنيا الشعر – يا إخوتي – انتصار وانكسار، ومن الشعراء من يعانق النجوم، ومنهم من يتمرَّغ في التراب، وفي كل الأحوال تأتي لحظة يرحل فيها الشاعر ويموت لأنه مخلوق زائل، وتبقى الكلمة .. لأن الكلمة لاتموت .. يبقى الشعر، لأن الشعر خالدٌ لايزول .

وبعد .. فلم يكن كل هذا غير التماعة واحدة من شهاب يضيء سماء حياتي وينير دياجي عمري .. شهابٍ اسمُه (الشعر) .. وما هذه الالتماعة إلا لحظة واحدة من حكاية طويلة ومستمرة مع الشعر، فحكايتي مع الشعر لم تنتهِ .

سيرة شادية شقروش

بقلم: أ. د. شادية شقروش

شادية شقروش من مواليد قرية مرسط ولاية تبسة في20 جوان 1962، تلقيت تعليمي الابتدائي والمتوسط في قرية مرسط حيث اجتهد والدي الطاهر شقروش رحمه الله وسعى إلى فتح متوسطة في القرية حيث رفع انشغاله و أهل القرية إلى الرئيس الراحل هواري بومدين رحمه الله، الذي استجاب للنداء وأرسل لنا أساتذة من مصر وسوريا والعراق. فكنا أول دفعة في قريتنا اختارت أن تكون معرّبة، كان ذلك سنة1975، لأننا في الابتدائي درسنا العربية كلغة فقط في حين كنا ندرس الحساب والتاريخ والجغرافيا والعلوم باللغة الفرنسية، وفي تلك الفترة (في سبعينات القرن العشرين) كانت الدولة في مرحلة الخروج من مخلفات الاستعمار الفرنسي، حيث بدأ الرئيس بتعريب الدواوين تدريجيا وتهيئة المدارس والجامعات للتدريس بالعربية، لذلك كان التعليم في تلك المراحل مزدوجا واختياريا ؛فمن رغب أن يدرس بالفرنسية له ذلك، ومن اختار أن يدرس بالعربية له ذلك.

ثم انتقلت إلى المرحلة الثانوية وكنت الأولى على دفعتي وزاولت تعليمي في ثانوية مالك بن نبي بمدينة تبسة تخصص رياضيات؛ وهذا التخصص لا يحصل عليه إلا من كان لديه أعلى معدل في كل المواد.

شاركت في النشاطات الثقافية وكتبت في مجلة الثانوية خواطر ومقالات، كنا نجتمع طلبة وطالبات لنحل مسائل الرياضيات بعد أن نترجمها من الفرنسية ؛ ففي تلك الفترة من النادر أن نجد دليلا لحل مسائل الرياضيات والفيزياء، ولعل روح العمل بالفريق أدت إلى نجاح 23طالبا من قسم الرياضيات المعربة.

تُوّجت دراستي بشهادة الباكالوريا "دورة جوان "1981في وقت كان من النادر جدا أن تنجح فتاة، وتذهب إلى الجامعة بحكم الأعراف والتقاليد، فكنت أول فتاة تنجح في البكالوريا في قريتنا، بعدها انتقلت إلى مدينة عنابة لأدرس الطبّ في الجامعة، على الرغم من نظرة المجتمع الرافضة

لتدريس المرأة بعيدا عن أهلها، إلاّأن والدي كان متفتحا، بل شجّع كثير من الآباء لتدريس بناتهم في الجامعات .

بدخولي للجامعة توسعت رؤيتي للنظر إلى الأشياء ودخلت في المنظمات الطلابية فترة الصحوة الإسلامية، فاقنعوني بالقرار في البيت، وفي الحقيقة اكتسبت هذه القناعة لأنني أريد أن أرضي الله فقط وكنت أخشى أن يكون الله غاضبا عني خاصة وأنا أعيش في إقامة جامعية مختلطة وأرى التيارات المختلفة ؛هذا من تيار اليمين وهذا من تيار اليسار، وهذا إسلامي وهذا شيوعي، المهم كنت بين مدّ وجزر، والدولة بدأت تعتقل الطلبة أصحاب التيارات الفكرية، فكرهت هذه الأجواء التي اتعبتني وشوشت فكري عن الدراسة وشاءت الأقدار أن أتزوج سنة1983وانقطع عن الدراسة الجامعية، لأنني اكتسبت قناعات في تلك الفترة بأن القرار في البيت هو الأمثل:

أنجبت ستة أولاد (أربعة ذكور وبنتين)، وتحولت إلى امرأة بيت مهتمة بأبنائي وبيتي لا أخرج ولا أخالط، أزور والديَّ فقط .وبعد غياب دام 12سنة عن الجامعة ؛مررت فيها بظروف صعبة جدًا؛ عُدت إلى الجامعة لأدرس بعد تغيير التخصص إلى دراسة الأدب.

كانت رحلتي العلمية والتعليمية شاقة؛ حيث توقفت عن الدراسة في السنة الثانية جامعي وانشغلت بأسرتي وأبنائي والتركيز على تدرسهم وتحفيظهم القرآن العظيم، الأمر الذي جعلهم من المتفوقين، ونظرا للظروف الصعبة التي مررت بها فإني انتقلت بأبنائي إلى بيت أهلي، فكانت أمي وأبي وإخوتي وأخواتي أحسن معين لي في هذه الحياة؛ فدرَّسْتُ فترة وجيزة في المتوسط لغة فرنسية، ثم معلمة في الابتدائي، ثم شجعتني أمي للعودة إلى مقاعد الدراسة لأنها كانت ترجو من الله أن أكون دكتورة، فقامت بمهمة حضانة أبنائي ورعايتهم بمعية أبي وإخواني فاهتموا بدراستهم، وعدت أنا إلى مقاعد الدراسة الجامعية وتلك كانت حكاية أخرى: يعود الفضل فيها لأخي الدكتور عبد السلام الذي كان طالبا في الماجستير يومها، وكان يصغرني سنّا، حيث سعى جاهدا من أجل دمجي من جديد بعد12سنة من الغياب، فغيرت الشعبة القديمة إلى شعبة الأدب العربي، وتفوقت في دراستي لأنني ركزت على هدف نبيل وهو أن آخذ الشهادة كي أعمل وأعتمد على نفسي في إعالة أبنائي.

كان أخي عبد السلام حاضني وموجهي في مرحلتي العلمية واستمر في توجيهي إلى يومنا هذا . رجعت من جامعة عنابة بشهادة الليسانس سنة1999، و انتقلت إلى قرية مرسط وبدأت التدريس في ثانوية زروقي عمار بمرسط، ودخلت مسابقة الماجستير في جامعة العقيد الحاج لحضر بباتنة سنة 2000 وكانت المنافسة قوية ولكنني نجحت. ومن حسن حظي أنّ الدراسة كانت يوم الإربعاء والخميس، وقد ساعدني مدير الثانوية لحكل رمضان جعل الله ذلك في ميزان حسناته، فكنت أعوض الدروس لطلبتي وأذهب يوم الإربعاء صباحا مسافة200كلم إلى مدينة باتنة مدّة سنتين، وكنت في تلك الفترة أدْرسُ الماجستير في مدينة باتنة وأعملُ في الثانوية في قرية مرسط، كنت أقوم برحلة ماراتونية للدراسة ذهابا وإيابا؛ وفي فترة سفري كل أسبوع كنت أقرأ كتابا في الطريق وأضع المعلومات المهمة في قصاصات وقد اخترت مدونةبحثي وهي ديوان "مقام البوح "للدكتور عبد الله العشي ودرسته دراسة سيميائية، فخضت غمار هذا المنهج لأول مرة وحاولت أن أسبر أغوار ديوان من دواوين الشعر الجزائري، فكان عنوان الرسالة : "الخطاب الشعري في ديوان مقام البوح دراسة سيميائية "؛ ثم ناقشت الماجستير سنة2002، وانتقلت من التعليم العام إلى التعليم الجامعي، فتوظفت في جامعة تبسّة بالماجستير في جانفي 2003، ثم سجلت الدكتوراه في مدينة عنابة بإشراف البروفيسور عبد المجيد حنون وناقشتها في2007، وكان عنوان الأطروحة "يوسف عليه السلام في الشعر العربي الحديث والمعاصر دراسة موضوعاتية، طبقت فيها المنهج الموضوعاتي المقارن والنقد الأسطوري .

حدّدت هدفي وأنجزت رسالتي في الموعد يتقدير مشرف جدا(بامتياز مع مرتبة الشرف الأولى)، ثم، وبعد مدة وجيزة وبفضل قيادتنا الرشيدة في تلك الفترة أعطتني الدولة الجزائرية العظيمة سكنا وظيفيا في مدينة تبسّة، فانتقلت بأبنائي من بيت والدي الكبير بقرية مرسط إلى المدينة لتبدأ رحلة الاعتماد على النفس. فكنت أُدَرِّسُ في الجامعة وأُحَضَّر رسالة الدكتوراه، كان بيتي يَعُجّ بالكتب، كنت أدْرُسُ أنا وأبنائي ؛كان عبد الله ابني البكر طالبا في الجامعة، ثم التحق به محمد ثم هيبة الله ثم رحمة الله ثم عبد الفتاح ثم عبد الحفيظ الذي تعثر قليلا، كان شغلنا الشاغل العلم ؛ علّمت أبنائي الاعتماد على النفس والتعاون في البيت، وكنت أنا وبناتي نتداول على الطبخ أما العاملة فكانت تهتم بتنظيف البيت فقط.

عشت نعمة الحياة مع أولادي الستّة في كنف العلم والمعرفة والتعاون المتبادل، وكنت فخورة بأهلي الذين أوصلوني إلى برّ الأمان وفخورة بنجاح أبنائي، فأحسست أن سفينتي التي كادت تغرق في منتصف الطريق، قد وصلت إلى برّ الأمان بقائد واحد، بعد أن سندني أهلي فكانوا قارب نجاة لي، أما أخي عبد السلام فهو الأيقونة الخفية والبوصلة التي كانت ومازالت توجهني إلى المسار الصحيح لحد الآن، فهو سندي في هذه الحياة .تحمّل مسؤولية توجيه أبنائي الذكور فاقترح على عبد الله أن يدرس في القاهرة، فدرس سنة ولكنه رجع بسبب معركة كرة القدم بين الجزائر ومصر، ثم اجتاز الماجستير في الجزائر ونجح، وهو الآن يقوم بإعداد رسالة الدكتوراه.

كانت سنواتي في الجامعة حافلة بالنشاطات البيداغوجية والعلمية، كنت أحاول التوفيق بين العمل والبيت، تدرجت في ترقياتي من أستاذ مساعد إلى أستاذ مكلف بالدروس ثم ناقشت التأهيل الجامعي إلى رتبة أستاذ محاضر "أ" (أستاذ مشارك)في جامعة محمد خيضر بسكرة في2010، وبعد سنوات توّجت بالترقية إلى أستاذ التعليم العالي (بروفيسور)سنة2016.

كان تخصصي في الأدب العربي مهما جدا، جعلني أنظر للأدب نظرة إكبار وإجلال ؛لأنني عندما كنت علمية كنت أنظر نظرة استصغار للأدبِيين، ففي بلدنا مثل كل العالم العربي يتخصص المتفوقون في الطب والهندسة في حين يتخصص من هم أدنى معدّل في الأدب العربي ؛ ولكنني عندما دَرّسْتُ الأدب أحببته، وكنت أعتقد أنه سهل ولكنني وجدته صعب جدا؛ فلابد للمتعلم أن يغوص في أسرار اللغة والأدب والمناهج النقدية كي ينجز رسالة أكاديمية مميزة، فالأدب ليس سهلا كما يعتقد معظم الناس، بل هو علم ككل العلوم الأخرى وميزته أنه يصنع الإنسان، و التخصصات الأخرى تخدم الإنسان فالطبيب يعالجه والمهندس يصنع له الآلات والمعماري يصنع له بيتا، في حين أن الأدب يصنع الفكر، ويعلّمنا كيف نتكلم في المحافل العلمية، ويعلّمنا كيف نعبّر عن أفكارنا وندافع عن أوطاننا بأقلامنا، ويعلمنا كيف نستثمر تراثنا لنستشرف مستقبلنا هنا تكمن أهمية اللغة والأدب، فالأدب يبني الواقع الجميل ويصنع الممكنات، فيتحول الحلم إلى حقيقة، ومن شدة حبّي للأدب تخصص ابني عبد الله وابنتي رحمة الله في

الأدب وهما الآن في إطار إنجاز أطروحة الدكتوراه، أما هيبة الله فناقشت الدكتوراه في إدارة الأعمال والتنمية المستدامة، وهي متعاقدة الآن مع جامعة جازان بالمملكة العربية السعودية.
نصيحتي لكل الشباب أن لا يتخصصوا في الأدب إلا إذا كانوا يحبونه، لأن الحب يولّد الاجتهاد والمثابرة، وأن لايدرسوه مفروضا عليهم –كون معدّلهم لم يسعفهم لانتقاء التخصص المرغوب– لأنهم سيفشلون.

وفي الحقيقة شباب اليوم لا حول لهم ولا قوة في اختيار التخصص، لأنهم مجبرون على الدخول في مسار معين، وتلك هي المشكلة، فالشباب في مرحلة الباكالوريا يبنون صرحا من الأحلام ولكن سرعان ما تتلاشى ليصطدموا بالواقع، وشباب اليوم خاصة الطلبة لا يقبلون الأدب، ولا يُقبلون عليه ؛ لذلك نجد المدرجات في الجامعات الجزائرية بخاصة مليئة بالطالبات. حيث أصبح تخصص الأدب مؤنثا.

لا تستطيع أن تقنع شباب اليوم بتخصص الأدب لأنهم يبحثون عن تخصصات تساعدهم في سوق العمل، ونادرا ماتجد طالبا مقتنعا بهذا التخصص، ومع ذلك فقد كنت أوجه لطلبتي نصائحَ بأن أستاذ الأدب العربي مثله مثل أستاذ الرياضيات وأستاذ الفيزياء وأستاذ الإعلام الآلي ؛يتقاضون الراتب نفسه، بل إن راتب أستاذ الجامعة عندنا في الجزائر أكثر من راتب الطبيب في المستشفى. ولكن الطلبة في الجامعة يخافون المستقبل، بل إن الإحباط يحيط بهم ؛ لأن واقع بطالة الشباب الذين تخرجوا قبلهم فرض عليهم هذا الإحساس.
أما عن مساري في الجامعة فقد كنت أستاذة في مدرجات الجامعة أقدم مادتي بحب متعلقة بطلبتي وهم متعلقون بي .

– شاركت في العديد من الملتقيات الوطنية والدولية– منذ أن كنت طالبة في مرحلة الماجستير إلى يومنا هذا– في الجزائر، تونس، ليبيا، المغرب، الأردن، سوريا، مصر، الكويت، المملكة العربية السعودية.

– نشرت أكثر من ستين(60) مقالا في مجلات دولية ووطنية محكمة.شاركت

– ألفت مجموعة من الكتب:

– الخطاب السردي في أدب ابراهيم درغوثي، دار سحر للنشر، تونس2005.
– خطاب الحداثة في الشعر التونسي المعاصر، ، دار اشراق للنشر، تونس 2009.
– سيميائية الخطاب الشعري في "ديوان مقام البوح "، عالم الكتب الحديثة اربد–الأردن2010.
– سلطة النص بين المبدع والمتلقي في القصة القصيرة جدا السعودية "رياح واجراس للقاص فهد الخليوي "مدار الكتاب الرياض، المملكة العربية السعودية، 2011.
– سيرورة الدلالة وإنتاج المعنى في الأدب السعودي المعاصر، منشورات كرسي الأدب السعودي، مطابع دار جامعة الملك سعود2016.
– الرفض في الرواية السعودية المعاصرة كتاب مُحَكَّمْ، الانتشار العربي بالشراكة مع نادي الباحة2017.
– تجليات يوسف عليه السلام في الشعر الحديث والمعاصر، مقاربة موضوعاتي، تحت الطبع.
– موسوعة النقد الحداثي وجماليات الإبداع الأدبي مقاربات ومناهج سيصدر قريبا عن دار ابن بطوطة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن.

قدم العديد من طلبة الماجستير والدكتوراه دراسات حول كتبي في مجال نقد النقد، خاصة في جامعة خنشلة، وتطرقوا إلى المنهج السيميائي الذي اتبعته في تحليل الإبداع الشعري والسردي، كما قدمت الباحثة بن ضحوى خيرة رسالة دكتوراه متخصصة في النقد المعاصر في جامعة سيدي بلعباس بعنوان " سيميائية الخطاب الشعري في النقد العربي "، وقد درست كتابي "الخطاب الشعري في ديوان مقام البوح" كمشروع نقدي مع مشروع الدكتور عبد الملك مرتاض والدكتور صلاح فضل والدكتور محمد مفتاح والدكتور محمد صابر عبيد، وكانت دراستها مميزة حيث استطاعت أن تتبع هذه التجارب النقدية التي من ضمنها تجربتي. وكذلك توجد دراسات عن كتبي في العراق، اكتشفت ذلك من الخلال البحث في قوقل.

انفتحت على المناهج النقدية المعاصرة عندما كنت طالبة في جامعة باجي مختار بعنابة وكنت أميل إلى التأويل، لذلك أنجزت مذكرة الليسانس بعنوان "معركة التأويل في القرآن العظيم بين القدماء والمحدثين" وازداد شغفي بالمناهج الحداثية في مرحلة الماجستير، وكنت أجد صعوبة في مقاربة النصوص فاعتكفت على التعمّق في المنهج السيميائي والنقد الأسطوري والتناص فكان

همي استنطاق النصوص بهذه الآليات ؛وقد اخترت في مساري الأكاديمي مدونة الشعر، لما يتميز به من تكثيف دلالي يتطلب إمعان النظر وآليات إجرائية لتفجير المعاني الخفية وتأويلها، فتخصصت في سيماء الشعر، والأمر نفسه في الدكتوراه حيث طبقت المنهج الموضوعاتي على المدونات الشعرية من أجل حصر المواضيع التي استلهمها الشعراء من قصة يوسف واستعنت آليات النقد الأسطوري وهي آليات تناصية تقيس شعرية النصوص، وتقارن بينها.

وبقيت وفية للمنهج السيميائي في معظم مقالاتي ومداخلاتي وحاولت تطوير آلياتي بتطبيق التداولية والحجاج والتداولية المدمجة، أما بالنسبة للسرد فكانت دراستي له ذاتية وكان ديدني تطبيق سيمياء السرد (سيمياء غريماس)؛لأنني أؤمن أن التطبيق هو الذي يوسع المدارك وحاولت أن أطبق هذا المنهج على الروايات والقصص والنصوص التراثية كي أعرف مدى استجابة النص العربي للمناهج الغربية، فعكفت على قراءة القصص والروايات وطبقت عليها المنهج السيميائي، والتناص بحثا عن شعرية النص وجماليته، وقد كشفت لي تلك الآليات الإجرائية عن مناطق غائرة في النصوص ماكنت لأكتشفها بالطريقة التقليدية. طبقت على السرد الجزائري و التونسي والسرد السعودي .

كنت عضوا في المجلس الأعلى للمرأة، ولكنني ابتعدت عن السياسة إيمانا مني أن البحث الأكاديمي والاهتمام بشريحة الطلبة أنبل مهنة في الوجود .فعكفت على النشاط العلمي والإنتاج العلمي .

كما كنت عضوا شرفيا في اتحاد الكتاب التونسيين، كوني اشتغلت كثيرا على الأدب التونسي لأنني كنت كل أسبوعين أشارك بمداخلة عن الأدب التونسي؛ ويعود الفضل في ذلك إلى الروائي الكبير إبراهيم درغوثي الذي أهداني رواياته، عندما استضافته جامعة تبسّة ممثلة في كلية الآداب والعلوم الإنسانية، في إطار النشاط الثقافي للقسم الأدب، وفي الحقيقة كان هذا الروائي يوجه دعوته لجميع الأساتذة الذين تعرّف عليهم في الجزائر للمشاركة في ملتقيات اتحاد الكتاب التونسي، وكان البعض يستجيب وكنت من بينهم فكانت فرصة أنني اطلعت على الأدب التونسي، فخدم هذا الروائي الأدب التونسي شعرا وسردا، لأنه كان يعطينا محاور الندوة ضمن نشاطات اتحاد الكتاب التونسيين ويرسل لنا دواوين الشعر والروايات التونسية وقد أُنجزت مؤلفات

كثيرة ورسائل جامعية حول الأدب التونسي في الجامعات الجزائرية بفضل هذا الروائي، وقد جمعت مداخلاتي حول الأدب التونسي في كتابين :الأول : الخطاب السردي في أدب ابراهيم درغوثي، 2005.وكان أول كتاب لي والكتاب الثاني: خطاب الحداثة في الشعر التونسي المعاصرسنة2009.

بدأت بهذه المشاريع مسار حياتي، وكنت مشرفة على الدراسات النقدية في منتدى أوراق ممطرة الذي كانت تشرف عليه الدكتورة كوثر القاضي من السعودية، في زمن لم تكن وسائل التواصل الاجتماعي متطورة فقرّب هذا المنتدى بين المتباعدين وتعرفتُ فيه على أدباء من الوطن العربي، وقمت بمقاربة بعض النصوص الشعرية والسردية التي كان أصحابها ينشرونها في المنتدى فحلّلت نصوصا لبعض المبدعين السعوديين كالشاعر أحمد قران الزهراني، والقاص فهد الخليوي والقاص مسعد الحارثي، وانفتح مجالي بفضل هذا المنتدى الثقافي إلى الكتابة في جريدة عكاظ، بسلسلة من المقالات التي قاربتً فيها قصصَ فهد الخليوي القصيرة جدا، وهذا ما شجعه على طبع مجموعته القصصية "رياح وأجراس، ثم جمعت تلك المقالات في كتاب وسمته ب:" سلطة النص بين المبدع والمتلقي في القصة القصيرة جدا السعودية "رياح واجراس للقاص فهد الخليوي "الذي صدر عن دار "مدار الكتاب بالرياض، المملكة العربية السعوديةسنة2011.، ثم تلته دراسات أخرى حول القصة القصيرة السعودية ومنه انفتحتُ على الرواية السعودية والشعر السعودي وانجزت كتابين آخرين، وحاولت مقاربة الأدب السعودي بكثير من المناهج النقدية المعاصرة وحاولت أن انتقي من الأدب ما يثير انتباهي وما أحس أن فيه قيمة أدبية عالية؛فتنوع وسائل التواصل الاجتماعي وسهولة الوصول إلى الأفكار وإلى المقالات والدواوين والروايات بصفة عامة قد فتح الباب على مصراعيه، واختلط المميز بالرديء، فاحتار المتلقي الجديد في هذا الثراء المتدفق، ولذلك يحتاج هذا التراكم الأدبي والنقدي إلى غربلة، لأن المتلقي الجديد دخل في متاهة كبرى لا يستطيع الخروج منها إلا بمرشد يرشدة إلى الانتقاء والسير بحذر لكي يستطيع أن يستفيد معرفيا.

وبسبب تنوع هذه الوسائل تنوعت أشكال المتلقين، وكثرت الهسهسة وكثر النقد غير المؤسس في مواقع التواصل وضاع المتلقي الناقد المحترف وسط هذا الركام لذلك لابد من التمحيص واختيار الأفضل وليس الأشهر .

كانت رحلة التعليم في الجامعات العربية ثرية جدا حيث تعاقدت مع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ودرست مع أساتذة كبار كالدكتور محمد القاضي من تونس والدكتور سعيد يقطين من المغرب والدكتور صالح بن رمضان والدكتورة زاهية جويرو من تونس؛ حيث كنا نقدم لقاءات علمية في النادي الأدبي بالرياض وورش عمل في تحليل النصوص، ومداخلات علمية في التخصص، كما كان للنقاش الفعال في مجلس القسم حول خطط الطلبة والطالبات الدور الكبير في الاطلاع على انفتاح البحث العلمي وكيفية التفكير في كل بلد ومثلما أفدت استفدت ؛فوسَّعت النقاشات واللقاءات العلمية مع هذه المجموعة من مداركي المعرفية أكثر فعكفت على القراءة والتأليف، فألفت ثلاثة كتب عن الأدب السعودي ."الرفض في الرواية السعودية" حيث تتبعت فيه موضوع الرفض بنيويا من خلال الوقوف على بنية السرد وفنيات توظيف الموضوع وطرائق عرضه سرديا ثم طبقت المنهج السيميائي على موضوع الرفض من أجل استبطان الدلالات الخفية وما يقوله النص ثم انتقلت لمعرفة الأنساق الثقافية التي أدت إلى موضوع الرفض من خلال تطبيق مقولات النقد الثقافي؛وبما أن المنهج الموضوعاتي يتيح التوسل بكل المناهج فقد حاولت أن أطبق تلك المناهج من أجل الإحاطة الشاملة بكل حيثيات الرواية والموضوع الباني لها، كان هذا الكتاب محكما ضمن مشاريع البحث التي تفتحها جامعة الإمام أمام الأساتذة كل سنة .كما ألفت كتابا آخر عنوانه "سيرورة الدلالة وإنتاج المعنى في الأدب السعودي المعاصر"، وقد جمعت فيه كل مقالاتي التي أنجزتها عن الأدب السعودي، كما ألفت كتابا حول القصة القصيرة جدا لفهد الخليوي وسمته ب:"سلطة النص بين المبدع والمتلقي في القصة السعودية القصيرة جدا."

كانت تجربة تدريسي في الجامعات السعودية من التجارب التي أعتز بها جدا، ومازلت أعتز بها ؛لأنها فتحت لي آفاق عديدة.

أما بالنسبة لطلبة العلم في المملكة العربية السعودية فهم كغيرهم من طلاب العالم العربي، يسعون إلى المعرفة، ويحاولون اقتناء الكتب الكثيرة، ويحتاجون إلى من يوجههم، فشغف المعرفة ديدنهم؛ يحاولون الانفتاح على المناهج الحديثة التي لم تكن مستساغة في المملكة العربية السعودية في فترة من الفترات، ومع ذلك فقد طبقوا على رسائلهم وأطروحاتهم المنهج السيميائي والبنيوي والتناص والتعالي النصي والتداولية والحجاج، وسايروا الركب ؛ لأن وتيرة المعرفة في العالم متسارعة جدا؛ ولأن المملكة استقطبت أساتذة من المغرب العربي الكبير ومن العالم العربي والغربي من أجل توسيع آفاق المعرفة والبحث العلمي.

سأحاول في المشاريع المستقبلية أن يظل تمثيلي الوحيد وشغلي الوحيد في هو تيسير سبل المعرفة للباحثين؛ لذلك استثمرت مواقع التواصل الاجتماعي مثل تويتر و الواتساب و التلغرام في التواصل مع شريحة كبيرة من طلبة العلم والباحثين في الوطن العربي، وفتحت قناة في التلغرام أقدم فيها دورات في المناهج النقدية وتطبيقاتها لطلبة العلم وركزت فيها التطبيق على النصوص الإبداعية القديمة والحديثة ؛ فالباحث العربي في حاجة إلى التطبيق أكثر من التنظير .كما فتحت في شهر اكتوبر 2020قناة في اليوتوب كي تعم الفائدة على الباحثين والطلبة المهتمين بتحليل الخطاب بالمناهج النقدية المعاصرة.

كانت هذه بعض المحطات من حياتي العلمية والعملية، والحياة بصفة عامة رحلة صعبة جدا ولكنني تعلمت منها أن من جدّ واجتهد وتوكل على الله حسن التوكل في كل أموره سيصل بإذن الله. علمتني الحياة أنه مهما كانت الظروف صعبة لا يجب أن استسلم، ومهما تعثرت لابد أن أقف من جديد، دون كلل أو ملل.ولايأتي الأمل إلا بعد الألم .

عبد الله ابني البكر من مواليد، 1984سيناقش الدكتوراه قريبا إن شاء الله ؛متزوج وله ابن محمد من مواليد1985، ناقش الماجستير في الاقتصاد .

هيبة الله من مواليد1986، دكتورة في إدارة الأعمال عضو هيئة تدريس في جامعة جازان متزوجة ولها بنت وولد

عبد الحفيظ من مواليد 1988 طالب في كلية الحقوق

رحمة الله من مواليد1989قدمت رسالة الدكتوراه للجامعة وتنظر المناقشة قريبا بإذن الله، تحصلت على جائزة الشارقة للإبداع العربي الدورة18سنة2015 وجائزة الدولة لأدب الطفل بقطر 2017 عندها خمسة مؤلفات نقدية ورواية.

عبد الفتاح من مواليد1992 ماجستير في التهيئة العمرانية يعمل في فرنسا، متزوج وله بنت وولد.

علمتني الحياة أن الاستثمار الحقيقي هو الاستثمار البشري، ولذلك ركزت هدفي على نجاح أبنائي فنجاح الأسرة من نجاحهم، والأولاد زهور في حقل المجتمع فإذا انقذنا زهورنا سيفوح المجتمع عطرا. فإن ذبلت تلك الورود، فلك أن تتصور حقلا ذابلا والحديث قياس.أبنائي ورودي في هذا الوجود وقد فاح عطر مجال العلم تقريبا وقد وصلوا إلى برّالأمان أسأل الله لهم التوفيق في مجالهم العملي، فتوظيفهم مجال آخر أسأل الله أن يعينهم وأن يسدد خطاهم ويسدد خطى كل الشباب الذين يبحثون عن وظيفة.

علمتني الحياة أن مبدأ العطاء لا محدود، ولذلك لا أبخل بما تعلمته عن طالب العلم؛ لأن البخل في هذا المجال يعطّل المعرفة، ومبدئي في الحياة هو:

ازرع جميلا ولو في غير موضعه **فلن يضيع جميل أينما زُرِعَ

إن الجميل وإن طال الزمان به***فليس يحصده إلا الذي زَرَعَ

أتقدم بالشكر الجزيل للشاعر والمترجم الدكتور شهاب غانم الصديق الحميم والأخ الفاضل الذي جمعتني به الأيام في ملتقى الترجمة في مؤتمر اتحاد الكتاب العرب بتونس العاصمة، وقد كان وفيا في تواصله الدؤوب مع أصدقائه وقد توج هذا التواصل "بمنتدى شهاب غانم الأدبي

"جمع فيه شعراء وأدباء ونقاد الوطن العربي الموحّد وجعله منبرا للعلم والمعرفة وكانت فكرته أن يقدم المشتركين في المنتدى سيرتهم كي تجمع في كتاب.

شادية الطاهر شقروش 20-10-2020

"تلْقَاءَ مَكَّةَ أَتْلُو آيَةَ الرُّوحِ [1]"

بقلم أ. نادية عبدالوهاب خوندنة

محاضر بقسم اللغة الإنجليزية بجامعة أم القرى، ناقدة ومترجمة أدبية.

إحدى الشخصيات في " معجم أعلام النساء في المملكة العربية السعودية" للأديبة أ. غريد الشيخ، يناير 2019، والذي يضم ترجمة لنخبة من السيدات السعوديات اللاتي لهن إسهامات متميزة في مختلف القطاعات الحيوية لخدمة المجتمع.

عضو نادي مكة الثقافي الأدبي، و"المنتدى" أول صالون ثقافي نسائي بمكة المكرمة، عضو مجلس أمناء جائزة عوشة بنت خليفة السويدي (فتاة العرب) بدولة الإمارات العربية المتحدة والذي ترأسه سعادة أ. د. رفيعة غباش، عضو رابطة اللغة الحديثة بالولايات المتحدة الأمريكية، وعضو معهد توماس مور للأبحاث وكلية التعليم المستمر بجامعة ميغيل.

أكرمني المولى بالكثير من النعم والعطايا النورانية فهو المنعم الجواد الكريم، ومنها مولدي على الثرى الطاهر لموطني الغالي المملكة العربية السعودية وفي أقدس مدينة على وجه الأرض، في مكة المكرمة في 28 صفر 1383 الموافق 19 يولية 1963لوالدين كريمين هما السيدة فاطمة طه خياط والشيخ عبدالوهاب محمد سعيد خوندنة رحمهما الله رحمة واسعة، أدين لهما بالفضل بعد الله لكل العوامل الإيجابية في تكويني النفسي لتأثير شخصية والديّ اللذين أتصفا بكثير من

[1]- من قصيدة الشاعر السعودي محمد الثبيتي" بوابة الريح".

الكرم و التسامح و الحلم و صلة الرحم و الإحسان، كما اكتسبت منهما الكثير من مهارات التواصل الاجتماعي و محبة الخير للآخرين و الغبطة لهم.

و قد فرحا بقدومي لهذه الدنيا بعد إنتظار طويل فكنت الإبنة الوحيدة بعد ثلاث إخوة، نشأت في بيت العائلة الكبير في حي (الفلق) بالقرب من بيت الله الحرام، مع عائلتي وعائلتيّ جدي الشيخ محمد سعيد خوندنة وأكبر أعمامي عمر خوندنة، رحمهم الله جميعاً، في جو عائلي مفعم بالمحبة و تسوده قيم الاحترام و التقدير و توقير الكبير و العطف على الصغير و التعاون و التكاتف و المشاركة الوجدانية بين أفراد العائلة الكبيرة و نتنعم بجوار البيت الحرام و تتشرب أرواحنا الصفاء النفسي بسماع الآذان المكي المميز من منائر بيت الله، وكثرة التردد عليه للصلاة فيه دخولاً من باب (الفتح) بالقرب من المسعى من جهة المروة، و بالذات صلاة التروايح و الفجر في رمضان المبارك و لاتزال ماثلة في الوجدان رفرفة أجنحة حمام رب البيت الآمن على روحه، تفرّ من أمام المصلين الخارجين من صلاة عيد الفطر السعيد في الحرم و هم في أبهى حلل و أجمل زينة و بالذات الأطفال الصغار و قد لبست البنات الفساتين الجديدة الزاهية الألوان و المزينة بالكرانيش و الشرائط الحريرية، بينما ترى الأولاد الصغار في ثيابهم و غترهم الناصعة البياض يجاهدون ببراءتهم لإحكام وضع المشالح المقصبة على أكتافهم الصغيرة، و الكل فرح و مبتهج يتبادلون التهاني "من العائدين و الفائزين"، "كل عام و أنتم بخير ياسيدي"، "علينا و عليكم ..تقبل الله منا و منكم صالح الأعمال"، يسارعون الخطى للعودة للمنزل لتناول إفطار العيد مع جميع أفراد العائلة الممتدة و في الأغلب يكون ذلك في منزل الجد أو العم الأكبر حيث تكون سيدات البيت قد أعددن مسبقاً منذ الليالي الأخيرة من رمضان المبارك أطباقاً خاصة بفطور العيد و هي الدبيازة (نوع من المربى المصنوعة من القمر الدين المضاف إليه الكثير من المكسرات و قلائد التمر المجفف) ، و مندي اللحم، و إدام البامية، وأنواع عديدة من الأجبان و الزيتون و الحلاوة الطحينية و الحلاوة

الشامية و الزلابية .. ومع شرب الشاي بعد الإفطار تحين اللحظة التي ينتظرها جميع الأطفال بفارغ الصبر حينما يحصلون من كبار العائلة على العيدية من الأوراق النقدية الجديدة اللامعة.

كما كان السكن بالقرب من الحرم المكي له أكبر الأثر في استمتاعنا بمعايشة أكبر تجمع للمسلمين من جميع أقطار المعمورة أثناء موسم الحج، حيث كانت العادة أن يسكن الحجاج في بيوت المكيين بعد استئجارها و تهيئتها لهم من قبل المطوفين السعوديين وهي مهنة عريقة تشرف بها المكيون إمتداداً لإرث السقاية و الرفادة، و أشتهرت بها عائلات محددة حيث كان كل مطوف مسؤولاً عن

حجاج أقطار معينة، وقد كان ينزل في بيتنا في حي الفلق فيما يعرف ببرحة اللاسلكي الحجاج الإيرانيون (يطلق عليهم العجم)، وذلك قبل ثورة الخميني فكانت السلطات الإيرانية تسمح لحجاجها بإحضار ما يشاؤون من مواد إستهلاكية لبيعها في مكة المكرمة مثل الأرز الإيراني ذي الرائحة والنكهة الفريدة، والزعفران الأصلي والفستق والبرقوق المجفف (البخارى) وحلوى الكزّ و السوهان أو سلع عينية مثل السجاد الإيراني الشهير بأصالته و عراقته سواء المنسوج من الصوف أو الحرير و بأحجام مختلفة. وفي المعظم كان هؤلاء الحجاج من فئة خمسة نجوم فكانت تجهز لهم الحجرات بالأسرّةِ وتغطى الأرض بالسجاد (أو كما نسميها في مكة بالجلايل) وتوزع عليهم الوجبات الفاخرة التي يعدها لهم طاه أيراني، وكل هذه الإستعدادت كان يتعهد بترتيبها مندوبون إيرانيون بالتنسيق مع مطوفين سعوديين من العوائل السعودية المعروفة منذ القدم بطوافة الإيرانيين مثل عائلة الغنّام، وعائلة صخرة وعائلة حسن حمزة.

ومن ذكريات الطفولة الجميلة زياراتنا أنا وإبنة عمي للحاجات في حجراتهن في بيتنا لنسعد بمحادثتهن ببعض المفردات من اللغة الفارسية، والجدير بالذكر أن الكثيرين من المطوفين والتجار من أهل مكة يجيدون التحدث بالكثير من اللغات وحتى اللهجات المتعددة للغة الواحدة مثلما هو الحال في اللغات الأندونيسية.

درست المرحلتين الابتدائية والمتوسطة في مدرسة (الفتاة الأهلية) وهي من المدارس الخاصة العريقة في مكة المكرمة والتي يشكر القائمين عليها من أبناء مؤسسها الشيخ حسين فلمبان مثل المربيتين الفاضلتين أ. مريم و أ. زهرة فلمبان على حرصهم الشديد على سير العملية التعليمية في مسارها الصحيح وفي جو تربوي مثالي، بينما كان العائد المادي في آخر مراتب الاهتمام لديهم، كذلك تطبيقهم لمبدأ التعليم بالمحبة والرحمة بالمتعلمين وتوفير الأنشطة اللاصفية والمعارض الفنية وحفلات النجاح البهيجة آخر العام. وقد حصلت على شهادة المرحلة المتوسطة عام 1397 بتفوق حيث كان ترتيبي الأولى على مدينة مكة المكرمة.

ثم التحقت بالثانوية الأولى وقد تكيفت سريعاً مع النقلة الكبيرة من أجواء المدرسة الخاصة الأقرب لأن تكون عائلية إلى البيئة الجديدة في المدرسة الحكومية الكبيرة وأعداد الطالبات الكثيرة، ومن حسن حظي وجودي في فصل متميز حيث كان به سبع طالبات من أوائل مكة فكانت بيئة محفزة جداً تحفل بالتنافسية العالية و الشريفة مما كان له أكبر الأكثر في رفع المستوى التحصيلي لدى الطالبات، و من جانب آخر، سعدت الطالبات كثيراً بحضور بعض الطالبات السعوديات من جامعة الملك عبدالعزيز (فرع مكة المكرمة) من أجل التدريب العملي على التدريس، فحرصت إدارة المدرسة أن يُعطى الفصل المتميز (7/1) لأفضل المتدربات من جميع التخصصات، وبكثير من السعادة أتذكر أسماء بعض أولائي المعلمات المتدربات وهن أ. فوزية عطرجي (رحمها الله)، أ. زينب فلمبان، و أ. بدر قستي، أ. سهام حلواني و اللاتي عينّ بعد تخرجهن بإمتياز في الثانوية الأولى وأصبحن فيما بعد مشرفات تربويات استفادةً من تميزهن و خبرتهن التعليمية و التربوية.

وبرغم التفوق في جميع المواد الأدبية والعلمية وحصولي على الدرجات الكاملة فيها فقد اتجهت للقسم الأدبي لمناسبته لميولي وبالذات في مادتيّ النقد الأدبي و النحو و الصرف، وفي الصف الثالث الثانوي وباستمتاعي الكبير بمادة اللغة الإنجليزية وبقراءة الروايات المقررة بجانب الكتاب

الأساسي مثل رواية حول العالم في ثمانين يوماً، كان خياري واضحاً ومحدداً برغبتي في الالتحاق بقسم اللغة الإنجليزية بجامعة أم القرى لاحقاً، وقد تخرجت عام 1400 هـ من المرحلة الثانوية بتفوق بحمد الله و فضله وكان ترتيبي الثالثة على مستوى المملكة العربية السعودية.

الطريف أن التاريخ يعيد نفسه؛ فبعد عقدين من الزمن تخرجت صغرى بناتي من الثانوية الأولى وقد أصبحت ثانوية مطورة وتعتبر أفضل ثانويات مكة المكرمة في جودة مخرجاتها التعليمية والمستوى العالي للمعلمات والطالبات بشهادة مكتب التعليم والاشراف التربوي بمكة.

ومنذ الفصل الدراسي الأول لإلتحاقي بقسم اللغة الإنجليزية بجامعة أم القرى رسم لي القدر لقاءً بملهمتي وقدوتي ومثلي الأعلى في الحياة العلمية والعملية و هي أستاذ الأدب الإنجليزي د. عفت جميل خوقير فحرصت على السير على خطاها وتشرفت بكوني أول طالبة ماجستير تشرف عليها ثم بالعمل الأكاديمي معها لاحقاً و تدريس نفس المواد الأدبية معها.

ومن الصداقات الجميلة والتي لازلت أنعم بإستمرارها وصدق الإخوة فيها والتي نشأت أثناء الدراسة الجامعية هي صداقتي مع أ. هالة دحلان و أ. هند حسناوي و د. هيفاء فقيه.

في فبراير 1985تحصلت على درجة البكالوريس مع إعداد تربوي بتفوق وإمتياز مع تحقيق المركز الأول على دفعتي بفضل الله وبعد عملي كمعلمة لغة إنجليزية لمدة قصيرة (عام ونصف) في التعليم العام، رافقت زوجي الطبيب د. عبدالوهاب باسلوم و ابنتي شعاع في بعثة حكومية لدولة ألمانيا (الغربية في ذلك الوقت) من أجل أن يلتحق زوجي ببرنامج الدكتوراة بجامعة ألبرت لودفيغ في مدينة فرايبوغ في ولاية بادن فورتمبرغ في الجنوب الغربي وعلى حدود فرنسا وسويسرا، وبالتحديد في منطقة الغابة السوداء الشهيرة بجبالها وغاباتها وبحيراتها الساحرة.

وصلنا فرايبورغ في يناير 1987 واستقبلتنا المدينة الجميلة الهادئة المشهورة كمدينة جامعية وهي ترتدي وشاحاً أبيض، ومن التحديات التي واجهتها في رحلتي العلمية هو تعلمي اللغة الألمانية

في فترة وجيزة والتي تعرف بصفة عامة بصعوبتها ولكن تمكنت من إجتياز هذا التحدي الجديد فقد حظيت بفرصة دراسة اللغة الألمانية في معهد غوتة في مدينة فرايبورغ في جنوب ألمانيا و هو المتميز في مجاله و له سمعة دولية، و ذلك على مقعد مجاور لزوجي فكان لتشجيع زوجي لدافعيتي و حماسي الكبير لتعلم اللغة الجديدة دور هام في بذلي جهداً مضاعفاً، إلى جانب الإنفتاح الثقافي و الإجتماعي بإنشاء الصداقات و التعارف على عائلات ألمانية لممارسة اللغة، فاستطعت خلال 4 أشهر الحصول على شهادة اللغة بتقدير عالٍ (بالذات في الجزء الشفهي).

بعد حصول زوجي على شهادة في تقويم الفك والأسنان وعودتنا إلى أرض الوطن في نوفمبر 1990 في فترة حرجة أثناء حرب الخليج الثانية، وقد كان أصدقاؤنا الألمان من الجيران وزملاء العمل مستغربين من رغبتنا الكبيرة في العودة وحتى بعد عودتنا عرضوا علينا أي مساعدة لو كنا بحاجة إليها، ولكننا شكرناهم وشرحنا لهم أن الوطن هو المكان الوحيد الذي نود أن نكون فيه حتى في زمن الحرب وتحمل كل الظروف الصعبة.

بعد أن تفرغت حوالى العشر سنوات لرعاية أبنائي الأربعة عدت للتدريس بالمرحلة الثانوية ثم حصلت على تفرغ لدراسة الماجستير بكلية التربية للبنات (ضمت لاحقاً لجامعة أم القرى)، و قد أتيحت لي الفرصة في صيف 1997، بعد الإنتهاء من السنة التحضيرية لبرنامج الماجستير ، لدراسة فصل صيفي في جامعة كامبردج العريقة، مما منحي فرصة طيبة لزيادة التحصيل العلمي و فتح لي آفاقاً رحبة في خبرات البحث العلمي الموضوعي، و مكنني من التزود بالكتب و المراجع الهامة الحديثة لكتابة بحثي عن روايتي "إيما" و "الإقناع" للكاتبة البريطانية الشهيرة جين أوستن)1775–1817(التي تتمتع بمكانة عالية و منزلة رفيعة بين الأدباء الانجليز ولا يفوقها مكانة سوى الشاعر و المسرحي العظيم وليم شكسبير، و منذ النصف الثاني من القرن العشرين ازدادت الدراسات الأكاديمية المهتمة بدراسة عالمها الروائي ومن زوايا مختلفة.أمتاز أسلوبها برقي

الكلمة و سمو الأسلوب مع النقد البناء وإن كان لاذعاً للظواهر الاجتماعية الخاطئة و ذلك في إطار من الكوميديا الاجتماعية.

ومن أسباب رسوخ تفوقها في عالم الأدب الانجليزي عبقريتها في مجال عرض الشخصيات بواقعية غير مسبوقة مما جعل الرواية الانجليزية ترتدي ثوب الحداثة ومن أهم عناصر واقعية جين أوستن في تصوير الشخصيات الرئيسية في رواياتها هو تأكيدها على إظهار الجوانب النفسية المختلفة لهذه الشخصيات وذلك بإعطاء الفرصة لبطلاتها للبوح عن الذات سواء للنفس أو للآخرين.

وقد ظهرت موهبة أوستن في التأليف والكتابة منذ سن مبكرة وبالتحديد منذ الرابعة عشرة ولم يكن بالطبع ما خطته من قصص قصيرة وحكايات فكاهية ومسرحيات هزيلة قصيرة بالأعمال الأدبية الناضجة ولكنها ساعدتها على التمرس والمران وتشكيل الأسلوب الذي اشتهرت به لاحقاً.

ومن أعمالها المبكرة والتي تظهر الحس الفكاهي لديها هو عنوان العمل الذي أسمته تاريخ بريطانيا ولكن كتاباتها الباكرة لم تكن جميعها هازلة بل نجد أنها تناولت فيها بعض الموضوعات أو الثيمات والتي تناولتها بعمق أكبر في رواياتها المعروفة والمنشورة فمثلاً في رواية "كاثرين"

وهي رواية غير مكتملة أبدت فيها جهداً ملحوظاً لتناول موضوع معرفة الذات معرفة تدريجية والذي عادت وتناولته بإقتدار وتميز في أعمالها اللاحقة.

وقد كتبت ست روايات نشرت منها أربعة أثناء حياتها وهي: "العقل والعاطفة1811 "، "التحامل و الكبرياء1813" ، "مانسفيلد بارك1814" ، و "إيما1815 " و إثنتين بعد وفاتها و هي "دير نورثانقير1817" و "الإقناع1818 " و إن المتأمل لعناوين الروايات يجد إهتماماً واضحاً من أوستن بالقيم الإجتماعية و ذلك ليس بمستغرب منها فهي قد عرفت بكونها كاتبة تمثل التيار الأخلاقي وقد يخدع البعض بكون أعمالها تدور حول قصص الحب و الزواج وأنها بعيدة عما كان يمور به العصر من مشكلات و تغيرات سياسية و أنها لم تتناول ذلك سوى في آخر رواياتها

"الإقناع"، فنجد أن قصص الحب و الزواج لم تتخذها أوستن إلا وسيلة لموضوعات إجتماعية هامة و تناولها لها لم يكن بصورة سطحية بل بصورة عميقة.

وقد كنت محظوظة بزيارة مدينة باث المنتجع الشهير، وزيارة المتحف المخصص لأوستن لأنها قد أقامت في تلك المدينة لمدة خمس سنوات، كذلك زيارة عدة أماكن هامة في باث والتي كانت في الواقع مسرحاً لأحداث مفصلية ودرامية في علاقة بطليّ إحدى الروايتين اللتين تناولتها دراسة الماجستير، وهي رواية "الإقناع".

وبعد حصولي على الماجستير حصلت على ترقية لأصبح مشرفة تربوية، ولكن ذلك لم يكن هو ما أصبو إليه، فكانت مدة عملي في الإشراف التربوي بقسم اللغة الإنجليزية حوالي السبعة شهور فقط، نعمت فيها برفقة طيبة لزميلات عزيزات أتصفن بكثير من التعاون والإبداع والتنظيم فكانت رئيسة مكتب الإشراف التربوي تعهد للقسم بكثير من المهمات والتي تعرف مسبقاً أن نتائجها من التميز مضمونة.

ومع نهاية الفصل الدراسي الأول عام 2006 حصلت أخيراً على الموافقة لنقل خدماتي من وزارة التعليم العام إلى وزارة التعليم العالي (وقد ضمت الوزارتان لاحقاً) لأبدأ عملي كمحاضر أدب إنجليزي بقسم اللغة الإنجليزية بجامعة أم القرى، لأشبع شغفي الكبير بقراءة وتدريس الأدب، ومن المواد التي عهد إليّ بتدريسها: مدخل إلى الأدب، الرواية في القرن التاسع عشر، الرواية في القرن العشرين، المسرحية في العصر الإليزابيثي، الأدب البريطاني، الأدب الأمريكي، نصوص إسلامية باللغة الإنجليزية.

عملت في لجان إدارية عليا عديدة بالجامعة وتشرفت بالعمل عن قرب مع عدة عميدات ووكيلاتهن مثل أ.د. وفاء المزروع، د. نور قاروت، أ.د. منى السبيعي، د. هالة العمودي، د. هيفاء فدا.

عملت وكيلة لقسم الإعلام وأشرفت بكل بهجة وإعتزاز على تخرج أول دفعة طالبات إعلام في المملكة العربية السعودية عام2010.

وفي آخر فصل أكاديمي قبل تقاعدي المبكر في نهاية فبراير2017، كانت آخر مهمة أسندت إليّ بتكليف من عميدة الدراسات الجامعية هي تأسيس نادي مورقة للقراءة والعمل كمستشارة به وقد شهد إقبالاً كبيراً من الطالبات المحبات للقراءة من جميع الأقسام، كما دعمني بأريحية رئيس نادي مكة الثقافي الأدبي سعادة أ.د. حامد الربيعي بتزويد النادي بعدد كبير من الكتب والمؤلفات المتنوعة.

في مونتريال ولاية كيبيك بكندا التحقت للدراسة و أصبحت عضواً – حتى الوقت الحاضر –بكلية التعليم مدى الحياة بجامعة ميغيل، لثلاثة فصول أكاديمية خلال الفترة ما بين 2017 و 2019 و هي تمثل فترة جديدة في حياتي و مختلفة كثيراً، و هي فترة ما بعد التقاعد المبكر مما أتاح لي تحقيق هدفي الدائم بتطوير الذات و نهل العلم المستمر بالالتحاق بالكورسات و الحلقات الدراسية في الموضوعات الأدبية التي تستهويني مثل المواد التي تناولت روايات الكاتب الفيكتوري الشهير تشارلز ديكنز (1812–1870)، روايات أشهر روائيّ القرن العشرين جيمس جويس (1882–1941) و من أهم رواد الحداثة و مطوريّ إستعمال تيار الوعي كتقنية أسلوبية لمدرسة الواقعية النفسية مثلما كان جلياً في أعماله الشهيرة مثل "يوليسيس 1922"و رواية سيرته الذاتية "بورتريه الفنان الشاب1916 "، و كذلك رواية "مرتفعات وذرنغ **Wuthering Heights**1847" للكاتبة الرومانسية إميلي برونتي (1818–1848)، أما الكورس المخصص عن أدب السكان الأصليين لكندا **Indigenous Voices**فقد كان تجربة شيقة و مؤلمة نفسياً في ذات الوقت، كانت الجِدة –نوعاً ما – في الموضوع هي المثيرة برغم أنني ومن خلال تدريسي لمادة الأدب الأمريكي في قسم اللغة الإنجليزية كان لدي فكرة عامة عن سوء معاملة المستعمرين البيض للسكان الأصليين في أمريكا الشمالية و التي وصلت للإبادة الجماعية و تحت غطاء داعشي و سوء استغلال للدين،

و لكن العنصرية في العقود الماضية في كندا تجاوزت كل حدود الخيال مما كان له أسوأ الأثر على نفسية المتضررين كما يظهر ذلك جلياً في كتابات بعض الأدباء منهم مثل نورما دننغ (1959) و ريتشارد واقاميس (1955–2017)، وفي السنوات الأخيرة حرصت حكومة كندا على تقديم الإعتذار الرسمي للمتضررين من ظلم الماضي على لسان رئيس الوزراء ستيفن هاربر عام 2008 فيما عرف بمبادرة " الحقيقة و المصالحة".

و من ناحية ثانية وجدتها فرصة سانحة للمثاقفة و التواصل الحضاري بتقديم مجموعة من المحاضرات الثقافية في كلية التعليم المستمر بجامعة ميغيل بكندا عن وطني الغالي المملكة العربية السعودية، و على وجه الخصوص المجالات الرحبة لتمكين المرأة السعودية في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان وولي عهده الأمين حفظهما المولى، و المواقع التاريخية الهامة و التي أصبحت من مواقع التراث العالمي في اليونسكو مثل مدائن صالح، و عن شخصيات سعودية و خليجية كنماذج مشرفة للمرأة المسلمة مثل الرائدة التشكيلية أ. صفية بن زقر و أ. د. رفيعة غباش أول طبيبة نفسية إماراتية و مؤسسة متحف المرأة في دبي.

كما أسهمت في تحكيم عدة أفلام مشاركة في مهرجان **Au Contraire** بمدينة مونتريال لرفع الوعي المجتمعي بأصحاب المشكلات النفسية.

وقد كُرِّمت مؤخراً من قبل جامعة أم القرى ضمن احتفالات العيد الوطني التسعين للمملكة العربية السعودية 2020وذلك بالاحتفاء بإنجازات نساء الوطن، وذلك عن دوري في التواصل الحضاري خارج المملكة.

الإسهمات الأدبية والثقافية:

صدر لي كتاب " لطائف المعنى: دراسات في السرد الأدبي السعودي" عن دار المفردات للنشر 2019، حيث أسلط الضوء على عدة أعمال روائية وقصصية سعودية مثل " الإرهابي 20"

لعبدالله ثابت، "شقة الحرية"، "الجنية "، "سلمى" و "سبعة" لغازي القصيبي، "غراميات شارع الأعشى" لبدرية البشر، "قاب قوسين" لمرام مكاوي وغيرها، وذلك بالتحليل الأدبي و القراءة النقدية لهذه الأعمال الأدبية السردية مما يزيد القدرة على فهمها و إدراك نواحي الجمال فيها و تذوقها تذوقا أدبياً، باستجلاء لطائف المعنى و ظلاله المكنونة بين سطور السرد وعتبات النص بأسلوب يمزج بين عدد من المدارس و المناهج النقدية مثل المنهج النفسي، والفني، والاجتماعي.

وقد حظي الكتاب بمقدمة قيمة بقلم سعادة د. عفت جميل خوقير، كما حصل على عدة مراجعات نقدية من عدد من الأدباء الخليجيين المعروفين مثل الشاعر والأديب الإماراتي أ. عبدالله السبب (ستنشر بمشيئة الله في كتاب نقدي مشترك لأعضاء منتدى د. شهاب الأدبي)، و الشاعر و الأديب السعودي د. حمد الرشيد (مجلة فرقد الإبداعية، يونيو 2020) و الأديب السعودي أ. محمد بن زعير (صحيفة الجزيرة أبريل 2019).

وأيضاً كتاب "إبداعات عربية في التسامح والسلام"، المحرر العام: د. شهاب غانم، عن ندوة الثقافة والعلوم، دبي، 2019. وهو عمل مشترك لأعضاء منتدى د. شهاب الأدبي الواتسابي، ونوجه للدكتور شهاب كل التحايا والتقدير لتحفيزه وتشجيعه ودعمه للأعضاء من الكتاب والشعراء والمترجمين من كافة الأقطار العربية وذلك للمشاركة في إنتاج الكتب الجماعية من كتب نقدية وترجمة أدبية ودواوين شعرية.

كما سعدت بكتابة بحث نقدي بعنوان "بردة الهاشمي قراءة لقصيدة د. شهاب غانم "من وحي رحلة حجازية"، وقد نشر ضمن كتاب جماعي لمنتدى د. شهاب غانم الأدبي من تحرير سعادة د. عبدالحكيم الزبيدي بعنوان "شهاب غانم شاعر الحب و السلام" عن دار النابغة للنشر و التوزيع، مارس 2021.

لي العديد من الأبحاث النقدية المحكمة باللغتين العربية و الإنجليزية مثل " لقاء الشرق والغرب في المانيا" و ذلك عن تأثير الثقافتين الإسلامية و العربية على شعر أديب ألمانيا الأشهر يوهان فولفغانغ فون غوته (1749–1832)و بالذات علي آخر دواوينه الشعرية و هو الديوان الشرقي للمؤلف الغربي) 1819 (، و قد نشر البحث في الدورية الأدبية ***Contemporary Literary Review India***، فبراير2017، و هو في الأصل ورقة علمية شاركت بها الباحثة في مؤتمر اللغات و الترجمة وأثرها في الثقافات، جامعة عفت، جدة، نوفمبر 2012.

كما قد شاركت في مؤتمر اللغات والترجمة الثاني بجامعة عفت، جدة، نوفمبر 2014 ببحث باللغة الإنجليزية عن الرواية الخليجية بعنوان "الوطن المنفى: الهوية المتشظية في رواية سعود السنعوسي ساق البامبو"، وهو منشور على الموقع الإلكتروني **ResearchGate** وقد حصد لغاية منتصف شهر مارس 2021 على 1519 قراءة من باحثين مهتمين من مختلف أنحاء العالم.

كما نشر بحثي باللغة العربية عن الرائدة التشكيلة الفنانة السعودية الأستاذة صفية بن زقر (1940)و هو بعنوان "إسهامات صفية بن زقر في خدمة الثقافة والفن السعودي" كبحث محكم في المجلد العلمي للمؤتمر الأول لدراسات المرأة السعودية، جامعة الأميرة نورة، الرياض، أكتوبر 2018، و قد قدمت نسخة منه باللغة الإنجليزية كمحاضرة ثقافية بمركز التواصل الثقافي بجدة أبريل 2019 و في جامعة ميغيل بكندا نوفمبر 2019، تقديراً و إمتناناً لجهود هذه السيدة العظيمة التي تعتبر من أوائل رواد الفن التشكيلي في المملكة العربية السعودية الذين مهدوا الطريق لأجيال لاحقة لخوض غمار الفن الراقي والتي لم تكتف بالاعتماد على موهبتها الفطرية بل صقلتها بالدراسة الفنية والعلمية المتخصصة في بريطانيا، وكان ذلك أولى خطواتها في طريق الريادة لتكون أول فنانة سعودية تحصل على تأهيل علمي في تخصصها الفني. فكان الهدف **التعريف**

بعطاء صفية بن زقر الكبير والمتنوع خلال خمسين عاماً في خدمة الفن والثقافة والمحافظة على التراث الأصيل لمختلف مناطق الوطن الغالي، والعمل الدؤوب والمثابرة لتأسيس محبة الفن وتقديره للجيل الجديد و كذلك إيصال الفن السعودي للمعارض و المتاحف العالمية من خلال الدور الفني و الثقافي و الفكري لأعمالها العديدة و لمتحفها المسمى "دارة صفية بن زقر"، و قد توجت اسهاماتها بأجمل تقدير من خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان حفظه الله بمنحها أعلى و أغلى تكريم وهو وسام الملك عبدالعزيز في حفل افتتاح مهرجان الجنادرية 31عام 2017، وهو تكريم سخي وبليغ الدلالة على تمكين المرأة السعودية واعزازها بصفة عامة، وعلى تقديرٍ للفن السعودي وجهود المحافظة على التراث العريق.

كما قدمت الكثير من القراءات النقدية والمحاضرات الثقافية العامة في العديد من المنابر الثقافية باللغتين العربية والإنجليزية في داخل السعودية و في جامعة ميغيل و معهد توماس مور بمونتريال بكندا، مثل:

- المشاركة في المؤتمر الدولي الإفتراضي عن الرواية النسائية الخليجية من إعداد كلية لال غول بجامعة كلياني وأكاديمية التميزبالهند، يناير 2021.
- "على جناح طائر العقعق: قراءة نقدية لرواية سيدات القمر لجوخة الحارثي"، الحاصلة على جائزة مان بوكر للرواية العالمية في ترجمتها الإنجليزية، بنادي جدة الأدبي، فبراير ،2020، وقد ركزت القراءة على استعمال الروائية جوخة الحارثي على استعمال تقنية تيار الوعي في سردها وتصوير شخصية بطل الرواية.
- " سوناتا ضوء القمر وقصائد أخرى– إضاءة على الشاعر الهندي كوروب **.O.N.V Kurup**" في صالون الشاعرة بديعة كشغري الثقافي، جدة يناير 2020، وسيصدر قريباً كتاباً مشتركاً للدكتور شهاب غانم و د. عبدالحكيم الزبيدي و د. أمل الأحمدي و أ. نادية خوندنة يضم ترجمة إلى اللغة العربية لأربعين قصيدة من أشعار كوروب.

- محاضرة بعنوان " الفن من أجل البقاء: القوة الناعمة في أعمال الفنانة الكندية كريستي بيلكورت"، دارة صفية بن زقر، جدة3 فبراير 2019.
- " رحلة أدبية تحت ظلال النخيل" عن حضوري لمجموعة من الفعاليات الأدبية في مهرجان الآداب في دبي، قدمت في "المنتدى" أبريل 2014.
- مقالة نقدية " قراءة لرواية العار للكاتب الجنوب أفريقي كوتزييه" والحاصل على جائزة نوبل للآداب، نشرت في مجلة "اقرأ" ديسمبر 2004 وألقيت في ندوة "الثقافة في جنوب أفريقيا" معرض الرياض الدولي للكتاب مارس 2015.
- محاضرة بعنوان "الفن والجمال في قصور بوتسدام ببرلين" في الصالون الثقافي بدارة صفية بن زقر بجدة، إبريل 2008، ضمن مجموعة من المحاضرات عن الثقافة الألمانية.

الترجمة الأدبية:

من اللغة العربية إلى الإنجليزية:

في خطوة لتفعيل دور الترجمة في بناء جسور التواصل بين الثقافات وإيصال الابداع السعودي والعربي للعالمية صدر لي ترجمة إلى الإنجليزية للمجموعة القصصية للأديبة السعودية المعروفة د. زينب الخضيري "رجل لا شرقي ولا غربي" عن الدار العربية للعلوم ناشرون ونادي جازان الأدبي، مارس 2015.

ثم شاركت مع المترجم الإماراتي العالمي د. شهاب غانم ومجموعة من المترجمين العرب في اصدار كتاب "شموع ذات ألوان" 2019 وهو ترجمة لمجموعة من القصائد العربية إلى الإنجليزية حيث شاركت بترجمة قصائد لمجموعة من الشعراء والشاعرات السعوديين والعرب مثل: د. أحلام القحطاني، د. إياد عبدالمجيد، د. ثريا العسيلي، د. رياض نعسان آغا، أ. عبدالله السبب.

وتفاعلاً مع الزوبعة التي سببتها الرسوم المسيئة للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وتعليقات الرئيس الفرنسي حول الموضوع، قمت بترجمة مقالة الأديب والإعلامي السعودي د. زيد الفضيل "إشكالنا مع ماكرون... أزمة خطاب" **Our Dispute with Macron: A Dialogue Crisis**، نشرت في صحيفة مكة الإلكترونية، نوفمبر 2020.

ترجمت كذلك قصيدة للشاعر السوداني المعروف د. محمد سبيل للغة الإنجليزية كمشاركة في مهرجان القلب الشاعري في دبي الذي أسسه د. شهاب غانم، ثم نُشرت في مجلة **Contemporary Dialogues**مع ترجمة إلى اللغة المقدونية، مايو 2020.

و تصويراً لتأثير وباء العصر و الجائحة الكبرى لكورونا التي عصفت بسكان كوكب الأرض أجمعهم، كان للأدب بمختلف أجناسه دوراً في تسجيل وتوثيق هذه الفترة الصعبة التي مرت على البشرية و تمثلت مساهمتي في ذلك بترجمة لجزء كبير من قصيدة مطولة للشاعر السعودي المبدع جاسم الصحيح "كورونا والأرض تولد من جديد"، و ترجمة قصيدة الأديب الإماراتي المتميز د. طلال الجنيبي "مخاض عسير"، و قد نشرت القصيدتان في الموسوعة العالمية **Musings –During A Time of Pandemic World's Anthology of Poems on COVID** 19 ، ديسمبر 2020.

وكذلك بكتابة قصة قصيرة بعنوان "تيوليب" ستنشر ضمن كتاب مشترك لأعضاء منتدى د. شهاب غانم الأدبي الواتسابي.

و قد ترجمت ست قصائد طويلة (من الشعر النبطي) لشاعرة الإمارات الأولى عوشة بنت خليفة السويدي (فتاة العرب) ومن أهمها قصيدة "ربي يا واسع الغفران" والتي كانت آخر قصيدة لها وأعلنت بعدها إعتزالها بعد تاريخ طويل أشتهرت فيه بجزالة أسلوبها اللغوي و جماليات أخيلتها

الشعرية، وذلك ضمن مشروع تعاون مع الأديبة الإماراتية المبدعة أ.د. رفيعة غباش رئيسة مجلس أمناء جائزة عوشة بنت خليفة السويدي، هي تجربة ثقافية و لغوية غنية و ثرية جداً برغم مصاعبها لأن ترجمة الشعر في حد ذاتها –رغم أهميتها– ذات إشكالية أدبية و أسلوبية، و بالتالي فإن ترجمة الشعر النبطي الذي يزخر بمفردات كثيرة من اللهجة الإمارتية المحلية، بل أن بعضها قل إستعمالها من أبناء الجيل المعاصر، من الصعوبة بمكان و ليست بالعملية السهلة، و لكن بتوفيق الله ثم بالثقة الكبيرة التي أولتني إياها سعادة د. رفيعة و دعمها الدائم، و كذلك لإعجابي الكبير بأشعار فتاة العرب و ما تحمله من قيم و مبادئ سامية، إلى جانب تصويرها الدقيق و الحي للبيئة الجغرافية و العادات الاجتماعية لدولة الإمارات الحبيبة استطعت تجاوز هذه العقبات بنجاح.

كما ترجمت القصة القصيرة " حكاية الليلة الأخيرة" **The Last Night Tale** للأديب الإماراتي أ. عبدالله السبب (ديسمبر 2019) و التي كتبها بأسلوب شاعري بديع وفاءً للأديب الإماراتي الراحل الكبير جمعة الفيروز و ستنشر قريباً في كتاب لأعضاء منتدى د. شهاب غانم الأدبي.

من الإنجليزية إلى العربية:

ترجمت قصة قصيرة " الساعة" للكاتبة الأمريكية ***Kate Chopin*** نشرت ضمن بحث للدكتورة عفت خوقير عن الترجمة الأدبية قدم في ملتقى قراءة النص (4) بنادي جدة الأدبي فبراير 2004، كذلك عدة قصص قصيرة من اللغة الإنجليزية لعدة كتاب عالميين مثل **Saki, Morley Callaghan, Heinrich Boll** وقصة قصيرة للكاتب **Thomas Mann** من اللغة الألمانية نشرت في دوريات أدبية مثل دورية "نوافذ" و الملحق الأدبي بصحيفة "الرياض".

بعد تقديمي للقاء ثقافي ممتع في جمعية الثقافة والفنون في مدينة جدة مع للشاعرة الفيتنامية– الأسترالية **Phan Le Ha** بعنوان "روابط الشعر" في نهاية ديسمبر 2019، نشأت بيننا صداقة أثمرت عن تعاون أدبي تمثل في ترجمتي لبعض من قصائد الشاعرة مثل ترجمة قصيدة ***Call***

" ***It a Day***وقد كان يوماً" و قد نشرت في "المجلة العربية" سبتمبر 2020، و ترجمة قصيدة حوار مع الزمن ***Talking With Time*** و ستنشر في كتاب مشترك مع الشاعرة نفسها و المترجم السعودي الشاعر أ. رائد الجشي.

و بعد حصول الشاعرة الأمريكية لويز غلوك (1943) على جائزة نوبل لآداب 2020 ، ترجمت قصيدتها "فردوس الأجداد" و نشرت في الجزيرة الثقافية أكتوبر 2020، كما ستنشر قريباً في كتاب مشترك لأعضاء منتدى د. شهاب الأدبي.

أنشطة أدبية أخرى:

كتابة مقالة باللغة الإنجليزية عن عالمية الإسلام **Universality of Islam between Truth and Delusion**نشرت في المجلة الإلكترونية **Whispering Dialogue**، أكتوبر 2020.

قدّمت العديد من الدورات عن التحليل السردي الأدبي والترجمة الأدبية بجامعة أم القرى وعلى منصة زووم بالتعاون مع مؤسسة " بيت المترجم".

المشاركة في عدة لقاءات إفتراضية مثل المشاركة في اللقاء السردي بنادي مكة الثقافي الأدبي بقراءة نقدية لقصص أ. جمعان الكرت، أ. حسن الشحرة و أ. أيمن عبدالحق، فبراير 2021. و في " أمسية مناقشة كتاب (بيت) لغازي القصيبي"، من تنظيم ملتقى لأجلك سيدة اللغات ومنتدى نخبة الإبداع، ديسمبر 2020. وأمسية ملتقى اليوم العالمي للغة العربية بمحاضرة عن مكانة اللغة العربية عالمياً: الأدب الألماني نموذجاً، من إعداد إدارة التعليم بالعلا، ديسمبر 2020. إدارة حوار في فعاليتين عن الترجمة الأدبية في معرض جدة للكتاب، 2019. تحكيم عدة أعمال مترجمة من اللغة الإنجليزية للغة العربية من منشورات نادي مكة الأدبي. مقالة باللغة الإنجليزية " تحول الخزامى" نشرت في مجلة **Sandscript** إبريل 2014.

كلمة أخيرة:

بعد حمد الله و شكره لتوفيقه و تيسيره لكل النجاحات، أشكر لعائلتي دورها الكبير في تحقيق الكثير مما وصلت إليه فقد ذكرت سابقاً دور زوجي و دعمه المستمرين، وهنا أضيف لذلك الدور الرائع لأبنائي فقد كانوا طوال مراحلهم التعليمية التي تزامنت في بعض سنواتها مع دراستي للماجستير، فكانوا على قدر المسئولية و كان تفوقهم جميعاً وساماً أتوشح به فغاية المنى لأي أم هو التوفيق و النجاح لأبنائها وبلوغهم أعلى الدرجات فتلك هي أكبر مكافأة لها، فبناتي د. شعاع إستشارية في طب الوراثة من جامعة ميغيل بكندا و حاصلة على الزمالة من نفس الجامعة في أمراض العظام الوراثية، و د. بتول حاصلة على الزمالة السعودية في طب الأطفال بتفوق من جامعة الملك عبدالعزيز للعلوم الصحية، وبلقيس إعلامية متميزة خريجة الجامعة الأمريكية بالشارقة بمرتبة الشرف، صحفية في جريدة **The National**، وإبني المهندس سرور باسلوم خريج جامعة الملك فهد للبترول و المعادن رئيس قطاع النقل و اللوجيستيات بوزارة الاستثمار.

النجاح من الصف الرابع

بقلم: أ.د. عزيز ثابت سعيد

كان حشدا كبيرا تعجُ به الساحة التي يُطل عليها مكتب مدير المدرسة، لم يكن هناك معلمون ينظمون وقوف الطلبة أو اصطفافهم، بل كان الجميع يتحدث وينتظر.. وحرارة الثالثة عصرا تلفح الوجوه، بعضها شاحبة، ربما من سوء التغذية، الجميع أطفالٌ في الابتدائية، ثلة تزدحم أمام مقصف المدرسة (البوفيه) لشراء الشطائر، وجموع قليلة متكدسة هنا وهناك، تفترش الأرض بمحاذاة جدران الفصول الدراسية، لاتقاء الشمس ...غبار يتصاعد من فرط حركة الجموع في الساحة الترابية، وروائح مختلفة تنبعث من شدة لفح الشمس لأجساد الأطفال التي تتراوح أعمارهم بين السادسة والحادية عشرة.

قاربت الساعة الثالثة، الكل في انتظارٍ كمشهد يوم الزحام، وفجأة يطل مدير المدرسة ومعاونوه، فيصمت الجميع. كان مهيب المظهر، ممتلئ الجسم، آثار الصحة والنظافة، وربما النعمة، جلية في محياه وملبسه، يرتدي ثوبا أبيض وجاكته سوداء، شعره الخفيف جدا لا يكاد يغطي الكثير من مقدمة رأسه، لكنه مسرَّح بأسلوب أنيق، يلوح بيده للحشد الطلابي، و يبدأ الحديث :

"أيها الأبناء، تعلمون أننا قررنا خوض غمار تجربة جديدة في هذا الصيف، فدرَّسنا منهج سنة دراسية كاملة في الفصل الصيفي، أي في ثلاثة أشهر، وقد أبليتم بلاء حسنا، لكنني لا بد أن أقول إنه لم ينجح في هذه التجربة إلا قلة قليلة، وأنا إذ أبارك للناجحين في هذه التجربة الصيفية، أشد على أيادي الآخرين، فقد استفادوا، وليدرسوا العام الدراسي الجديد بنفس منشرحة، فمعرفتهم حتما ستزداد، وسينجحون في العام الجديد بتفوق، إن شاء الله، فلا يبتئس منهم أحد، ولا يغتم

أبدا، والآن سأنادي أسماء الذين نجحوا..." وأردف قائلا: "لم ينجح في هذه التجربة الا قرابة 20% من الذين اختاروا أن يدرسوا في الفصل الصيفي لكي يكسبوا سنه دراسية."

ما إن سمع الجميع نسبة النجاح حتى بدأت القلوب ترتجف والأيادي ترتعش، مَن المحظوظ الذي سيكون بين هذه النسبة الضئيلة المتألقة؟ كنت محشورا بين الحشود، قامة متوسطة لصبي في التاسعة، وجسم نحيل، ربما من بين أنحف من كان في الصف الرابع. كان قلبي يرجف بشدة، وعيناي ترفان كأن مسًّا كهربائيا قد أصابهما، هل أنا من بين الفريق الناجح؟ هل؟!.. قلت لنفسي: "عملت ما في وسعك، فاهدأ وانتظر."

درست دروسي ليل نهار، وبحسب ما تيسر، فأنا أعيش مع والدي فقط، أما والدتي وإخوتي ففي قرية نائية تبعد عن مدينة تعز مسير يومين، الأول بالسيارة والثاني سيرا على الأقدام، وكلتا الرحلتين فيهما عناء، إلا أن الأولى أسهل قليلا، فهي تبدأ بركوب سيارة من مواقف سيارات الأجرة إلى مدينة (إب) ثم سيارة أجرة أخرى إلى (الدليل) وهي شبه مدينة، أو إلى (السويق)، سوق أسبوعي، على الطريق بعد مدينة إب، ثم سيارة مكشوفة في طريق وعرة إلى منطقة (الكداكد)، آخر نقطة للسيارات، ولانكاد نصل إليها إلا وقت المغرب أو بعده، حيث نقضي ليلتنا هناك لنبدأ رحلة السفر الراجلة بعد صلاة الفجر، نقطع خلال اليوم الفيافي والوديان والجبال وأشباه الصحاري، ووالدي يحمل فوق ظهره صرةً لا يقل وزنها عن عشرين كيلو: فيها هدايا لوالدتي وإخواني، وملابس، وحلويات، وزبيب، وعطور وأقمشة لوالدتي، يظل يتعارك مع الصرة، رافعا إياها على ظهره كلما تدحرجت قليلا للأسفل، وإذا ما خف سيري حملني فوقها، وواصل المسير، نشرب من السيول التي في الطريق أو من أماكن سقيا ماء لفاعلي خير، نجدها

في موضعين أو ثلاثة على الطريق، يفصل بين كل منها مسير ساعتين أو ثلاث، حتى نصل القرية في الغسق، في الثامنة أو بعيد ذلك.

لم تكن في القرية مدارس! وهو ما جعل والدي – الذي تربى في عدن وعرف قيمة التعليم – يعقد العزم على تعليم أبنائه، ولأني كنت أول الذكور، فقد حملني معه حين بلغت عامي الخامس إلى تعز... حيث كنا نمكث فيها سنة إلا شهرين، ونقضي الصيف أي نحو الشهرين مع الأسرة في القرية.

ظلت القلوب من حدة الموقف كأن لها صوتًا...عزيز ثابت عبد الله...لم أصدق أنني فعلا سمعت اسمي، ربما كان ما سمعته من صنع خيالي، هل ذلك الاسم الذي سمعته حقيقة؟ تلفتُّ حولي، فإذا بزملائي يقطعون شكي بيقين: "...اسمك.. اسمك.. اصعد خذ شهادتك..." لا أدري كيف امتطيت الدرج، كيف شققت الزحام حتى أصل، سلمت على المدير واستلمت الشهادة، ولمحت عبارة ناجح ومنقول للصف الخامس، فقد كتبت بحروف بارزة، فما وسعتني الأرض ووددت لو كان لي جناح يحلق بي فوق الحضور، ربَّت المدير على كتفي، "موفق يا ابني، " ثم نادى على الطالب التالي.

هرولت مسرعا إلى الدرج ثم نزولا، أشق الزحام بصعوبة ويدي اليمنى مرتفعة حتى لا تتأذى الشهادة... وما إن وصلت إلى بوابة المدرسة الخشبية الضخمة، حتى انطلقت كالسهم... أردت أن أُبَشِّر والدي بالخبر السار...كان حفظه الله في الساعة الواحدة أمام المدرسة، بعربته النظيفة وملابسه الأنيقة، يبيع (المثلجات) الآيسكريم، ...ربما لا يزال موجودا. رباه كم سيفرحُ للخبر السار...سيفرحه الخبر كثيرا، ربما ينسيه عناء شهرٍ كاملٍ وربما أكثر من تعب صناعة الآيسكريم وبيعه..

"يا لها من صنعة منهِكة"، فإعداد الآيسكريم عملية ليست هينة، بل تتطلب جلدا وصبرا كبيرين، عملية يومية مضنية، تستغرق قرابة الخمس الساعات تبدأ من الخامسة وتنتهي في العاشرة صباحا، فعلا شقاء، يبدأ العمل بإحضار قطعة كبيرة من الثلج "يسميها ربع لادي" لا أعلم سر التسمية، لكنها قالبٌ ثلجي لا يقل طوله عن متر وعرضه قرابة النصف من ذلك، و سمكه ربما ربع متر، يجلبه من حانوت ثلج في السوق المركزي، يضع على ظهره شوال ذو حبال، ثم يضع البائع القالب فوق ظهره، ويشد الوالد الحبل ليُحْكم الحِمل، حين يصل، يضع حمله، ويقطع منه مكعبات صغيرة، ويضعها في قنينة كبيرة مجوفة، تتوسطها قنينة أخرى مخروطية نحاسية محكمة الإغلاق، بداخلها خليط الآيسكريم السائل الذي يكون قد أعده في المساء، ويظل يضيف الثلج والملح لإذابته في القنينة الكبرى التي تعمل كمولد برودة تسري في الجسم النحاسي للقنينة الأصغر المغموسة فيها، ويظل يحرك القنينة الصغيرة بطريقة دائرية، ثم بين الفينة والأخرى يفتح الغطاء ويقلب الخليط ويعجنه بأدوات مختلفة حتى يتماسك ويتجمد ويصبح آيسكريم.

وبينما هو في صنع الآيسكريم، أبدأ بترتيل القرآن وهو يسمعني، وهو في حركة دائبة، تقطيع الثلج، تحريك القنينة، تمتين السائل، إضافة ثلج، وهكذا... بعد قراءة القرآن، أذهب للبوفيه وأحضر ثلاثة أرغفة من خبز الطاوة، حسب التسمية في تعز، وهي ما يعرف بالهند بالشباتي، وكأسي شاي بالحليب، نصيب والدي رغيفان من الخبز، يأكلهما سريعا، ويرتشف الشاي بطريقة أسرع ليعود لتحضير الآيسكريم...

وحين يصبح الآيسكريم جاهزا، يثبت القنينة الأساس وحولها الثلج وسط القنينة الأكبر، ويحملها إلى عربته ذات العجلات الصغيرة، ويضع في العربة لوازم البيع من أكواب وبسكوت خاص بالآيسكريم وملاعق وماء لتنظيف الأكواب، ومنشفتين، إحداهما ليديه والأخرى لتجفيف الأدوات. حين يكون كل شيء جاهزا يغسل وجهه ويديه ويرتدي ملابس البيع النظيفة ويعتمر شالا كشميريا

أنيقا على رأسه بطريقة تعزية مرتبة، ثم يخرج إلى حي أو شارع يكثر فيه المارة لبيع الآيسكريم، وعند الظهيرة يتجه لبوابة المدرسة وقت خروج الطلبة...وهناك تكون أكثر مبيعاته...يظل في حر الهجير وهو في حركة دائمة إما يبيع أو ينظف، وتسمع مناداته من حين إلى آخر: آيسكريم...آيسكريم..، وهكذا، فإن أكمل بضاعة يومه بعد خروج الطلبة، فذلكم يوم بهيج، يستريح من لفح شمس ما بعد الظهر، وما لم يكمل فإنه يظل حتى دخول – وربما خروج – طلبة الفترة المسائية... أمام مدخل المدرسة، ...حين دخلتُ المدرسة في الساعة الواحدة كانت الكمية المتبقية كبيرة، وهو ما يعني احتمال أنه مازال موجودا أمام المدرسة.

ركضت نازلا أود لو أن الريح تحملني لوالدي، ولأن المدرسة تقوم فوق تلة فقد أطمعني ذلك بأن أطلق لساقي العنان نزولا، كمن يتمنى أن يطير، وفجأة آآآآه انزلقت قدماي، وقطعت مسافة على صدري ويدي في ذلك المنحدر شبه المعبد، كثير الحفر والحصى..."يا إلهي! الشهادة! الحمد لله..." لم تتأذى الشهادة... فرغم أن صدري أصابه ما أصابه وتكشطت أجزاء من يدي إلا أني وأنا أنزلق زاحفا ظلت يدي اليمنى رافعة للشهادة... وكأنها أهم من جسدي، بل إنها في تلك اللحظات كانت كذلك بالنسبة لي..."يا إلهي!" كنت في وضع بائس: بعد أن اطمأننت أن الشهادة لم تصب بأذى، كان همي الثاني في تلك اللحظة ألا يراني والدي في تلك الحالة: قميص ممزق وبنطال متسخ وممزق من أسفل الركبتين.. يدي اليسرى مقشورة الجلد في مواضع وشبه دامية، واليمنى مجروحة من المرفق...تحولت عيناي فجأة إلى رادار تمسحان المكان بسرعة فائقة، وعقلي يقول يا رب لا يرني أبي... وفعلا لم يرني، لأنه لحسن الحظ لم يعد موجودا، فقد أكمل بيع بضاعته وغادر. سبقني إلى ما كان يسمى السكن أو.. الدكان الذي كنا نسكن فيه...

وقفت قليلا أصلح ما تخرَّب من هندامي أمام المدرسة، وقفت أمام المخازن المحاذية لساحة المدرسة، دوما أراها مكتظة بالعتالين جيئة وذهابا يفرغون شاحنات من حمولتها في تلك

المخازن، ولكم وقفت، خصوصا في بعض الصباحات، وبيدي الناحلتين قلم وورقة، أسجل صناديق السجائر الضخمة التي تحمل على ظهور الحمالين إلى المخازن، وبعقل الطفل أظل أحسب كم علبةً من علب السجاير في كل صندوق؟ وكم يكسب هذا التاجر الكبير من السجاير في اليوم؟! وكم المدخنين من الشعب؟ وأحسب فأجد أن أرباح الرجل بالملايين يوميا! وأنظر لوالدي الذي أمام الساحة تارة يلاطف طالبا (زبونا) بأن يزيده قليلا من الآيسكريم، تسمى: "زُيَّادة" حتى يكسبه زبونا مرات قادمة، أو يترجَّى آخر أن يغادر فقد أخذ أكثر من مبلغ المال الذي اشترى به، أو ينظف الأكواب وهو يصيح آيسكريم! آيسكريم...بصوت مرتفع قليلا، يتغنى به ويُموسقه بغية لفت انتباه المارة ... يظل على هذه الحال والشمس تشوي وجهه الوسيم لساعات طوال، حتى يؤمن مبلغا يوميا زهيدا نتقوت به وبقية الأسرة... يا الله!

ترى ماذا يصنع هذا التاجر بهذه الأموال الكثيرة؟ من المؤكد أنه يسكن في بيت فيه كهرباء وماء ومعه كل أسرته، أما نحن فنسكن في ما يسمى بدكان للعزاب، لا كهرباء ولا ماء ولا دورة مياه!. يأخذ والدي حاجته من الماء لصنع الآيسكريم من مغسلة ملابس مجاورة، ونذهب لمراحيض المسجد عند الصلاة وعند الحاجة أو لحمامات مدفوعة الأجر، ونغتسل في حمامات مدفوعة الأجر في نفس الشارع...لم يكن متيسرا لعازب مع ابنه أن يُقْبل كساكن في شقة بيت، فذلك ضد الأعراف، فقط الأسر تسكن شققا في بيوت، أما العزاب ففي أماكن ملتصقة بعمارات، إن لم تؤجر كمتجر صغير تؤجر كمخزن أو سكن لعمال "شقاة"، وهذه في الغالب الأعم لا يتوفر فيها الماء ولا الكهرباء.

أطفال الحارة لا يلعبون مع من ليس له أسرة، كنت بالنسبة لأترابي ممن هم في مثل سني "ابن أبو السكريم، " لا أحد يدعوني للعب، ولا يرحبون بي إن دخلت لألعب معهم دون دعوة، ومع مرور الوقت تقبلت الوضع وتعايشت معه، كنت أكتفي بأن أشاهدهم وهم يلعبون ألعابا مختلفة،

وفقط أشجع من يفوز. لم يكن بين المجموعة: نذير، خالد، ابتسام، افتخار، انتصار، وغيرهم من الأطفال من أحس أنه يريد دعوتي للعب سوى ابتسام، أذكاهم، و أقواهم شخصية، وكانت أحيانا تفرضني فرضا، فألعب معهم على مضض منهم، فأشفق عليها وأرفض الدعوة أحيانا، كانت أحيانا تناديني إن لم يكن هناك أحد لنلعب سويا، كأنها تحس معاناتي...

كان الدكان صغيرا، مترين ونصف في ثلاثة تقريبا، بباب خشبي وبلا نوافذ... في أيام الصيف ننام والباب مفتوحا، نتحمل لسعات البعوض، فقد كانت أرحم قليلا من الحر...أحيانا نشعل مادة دخانية تخفف عنا تغوّل البعوض، ويا لرائحتها المنفرة! يدخن والدي سيجارة أو اثنتين وهو على الفراش، ينفث دخانهما، وكأني به ينفث كرات من الهم والاكتئاب مع دخان السجاير. لا أعرف والدي كان يضحك إلا فيما ندر، أو مجاملة لأحد...أو يضحك للمشتري كنوع من الواجب نحو الزبون، كنت أراه دوما مهموما، صموتا، يدخن، وأحيانا يمضغ القات بعد الغداء، ليستعين به على مشاق العمل، ومعظم من هم في سنه كانوا يمضغون القات، وكان بعد مضغ القات يصبح أكثر وجوما، متنفسه الوحيد السينما.

كنا نذهب للمسجد في المغرب والعشاء للصلاة في جماعة، بعد صلاة المغرب آخذ مصحفا ونجلس في زاوية من زوايا المسجد أو نستند لسارية وأتدرب على تلاوة سور من القرآن الكريم، وهو يستمع، وبعد صلاة العشاء، يتركني في الدكان ويذهب للسينما، يوميا وكأن السينما واجب يومي، لا يفوته فلم جديد، في أي من دور السينما في المدينة ... لم أدرك آنذاك أن هذا الشاب الفتي يشقيه بعده عن زوجته، يلوعه شوقه لها، ويضنيه حنينه لبقية أولاده...فهو لا يراهم الا شهرا أو شهرين في العام، فكيف له أن يبتسم وعمره يمضي سنة تلو الأخرى بعيدا عن زوجته، حبيبة عمره، ومعشوقته التي فضلها على غِيد عدن، وحِسان تعز، ولكن هي الحاجة، فلو

ظل في القرية لذاق الجميع مرارة الجوع. كان حين يسمع أيوب طارش، الفنان المشهور، يغني رائعة الفضول:

مهما يُلَوِّعني الحنين
شا صبر واراعي لك سنين
واعطيك كل العمر
ما دامك على عهدك أمين
وألملم أشواقي وأحراقي
وأعطيها قلوب اللائمين

يردد الكلمات مع المغني وكأن أمي هي التي تقطع له هذه الوعود، فقد كان بعض أهلها يقولون لها، وقد فضلته عليهم، ستجوعين، فهذا مغترب، ليس له زرع ولا ضرع، كناية عن عدم ملكيته لحقول زراعية يفلحها ويقتات منها هو وأسرته، فتجابههم بقوة شخصيتها، "بل سيعيشني أفضل من عيشتكم...وسيعلم أولاده ويصبحون أفضل من أولادكم..." وحين يزيد حنينه، يبحث عن مسافر إلى القرية، ويقول اكتب يا ابني رسالة لأمك، نطمئن عليها وعلى إخوتك...فأكتب ما يمليه علي، وطبعا كل رسالة يصاحبها مبلغ من المال لشراء طعام وغير ذلك لشهرين أو ثلاثة حسب ما قد توفر.

غادرت من أمام من تلك المخازن وأنا ما زلت أصلح ما تخرَّب من هندامي المدرسي وأحاول تغطية الندوب والجروح التي على يدي ورجلي، وبدأت أمشي بروية باتجاه بيتنا، أعني الدكان،

الذي يبعد أقل من ربع كيلو من المدرسة. مررت بالمحلات التجارية التي طالما مررت من أمامها، لكني مررت عليها هذه المرة متفاخرا، وكأنهم يرون أني من القلة الناجحة، "أوه لو لم أتدحرج هكذا، كنت اقتربت من المحلات ولوحت بالشهادة... كانوا سيعرفون أن ابن أبو السكريم نجح! لا بأس المهم أني نجحت." مررت بمحل الكهربائيات ثم محل المشرقي الشهير للذهب، وكان في عام 1974 من أشهر محلات الذهب، وكان صاحب المحل أنيقا، حسن الهندام، كنت أراه في الصباح يترجل من سيارته المرسيدس ذات اللون الأصفر، شعره مسرحٌ بطريقة كلاسيكية(تقليدية)، بدلاته فاخرة، وربطات عنقه حريرية جذابة. كان تماما كرجال الأعمال الذين أرى صورهم في المجلات التي يهديها لي أبو حديد، بائع المجلات المتجول، صديق والدي.

وبينا أنا أمشي شممت رائحة الحلوى الزكية تدغدغ أنفي، تأتي من الطرف المقابل للشارع، حيث محل الحلوى الشهير، لصاحبه عبد الله مهيوب، ذلك الرجل الجهوري الصوت، الضخم الجثة، لخلطته الساخنة، مذاق فريد، تأكلها في صحن صيني، ومعها فنجان قهوة مُرّة، يسمى مزغول، يُشرب بعد الحلوى حتى يعمل معادلة مع الحلوى الساحرة. كان يبيع أصنافا كثيرة من الحلوى الهندية، المجموع، الهريسة، الديس، الصوري، وتزيد الأصناف في رمضان، حيث كانت أصنافه الرمضانية مثل الرواني والمعجنات، الطرمبة، والسمبوسة من التي يشد إليها الرحال، كان محله من محلات الدور الأرضي لمدرسة ناصر الابتدائية التي تقع أمام مدرسة الثورة الابتدائية (مدرستي).

بعد محلات المشرقي، تأتي في طريقي إلى البيت محلات إخوان ثابت، وهي أسرة من بيوتات التجارة المعروفة، ثم محل ذهب مشهور لعبده محمد أبو الذهب، يليه بوفية للحليب الطبيعي، لعبده محمد أبو الذهب أيضا، كان والدي يعشيني فيها، إن كان دَخْلُ يومه مرضيا، كأسًا من

الحليب، وقطيبًا "لبن رائب"، وقطعة كيك ليست كتلك التي تباع في الأفران، عشاء ملوك، والا.. فالعشاء المعتاد، كالإفطار (واحد خبز طاوة (شباتي) وواحد شاي بالحليب) من عند القدسي صاحب القهوة المجاورة لعبده محمد، وكان للقدسي أيضا محل حلوى، لكن ليس بشهرة حلويات عبد الله مهيوب، ثم بقالة لشخص لم يكن يبتسم كثيرا اسمه عبد الباقي، ولم يكن في بقالته الكثير من البضاعة، كنت أقول لنفسي هذا الرجل لا يبتسم كثيرا ولذا لا يبيع كثيرا، ولم آبه أن أقترب كثيرا من البقالة ليرى صاحبها الشهادة، حتما لن يسألني وربما لن ينظر إلي، إلا أن أردت شراء غرض.

بعد دكان عبد الباقي كان ثمة محل لبيع الآيسكريم والماء لشخص طويل، حسن الهندام، خمسيني ربما، اسمه عبدالحق، تعارك معه والدي يوما لأنه شتمني وأطلق وابلا من السباب علي لأني تشاقيت وتشاكست – فقد أرسلني والدي بعد غداء يوم جمعة لشراء ماء بارد له، وكان الماء في تلك الحقبة هو ماء عادي من الحنفية لكنه مبرد في الثلاجة في قوارير أو قنينات زجاجية فارغة، وغالبا ما تكون قنينات فيمتو أو حتى قنينات كحول فاضية، إذ تُغسل القنينة وتُنظف ثم تستخدم في بيع الماء المبرد... جئت عبد الحق فوجدت محله مغلقا، ربما الوقت كان وقت قيلولته، وظللت أطرق الباب، وهو يرد "امش ياليد"، وأنا أطرق الباب "اشتي قارورة ماء" "ما فيش..."

لم أقتنع وظللت أطرق الباب:

"قلت لك امش ياليد... أنا... أنا"

ولم أشعر إلا بكفٍّ (أي صفعة على وجهي) أفقدني وعيي لبرهة، وكان ذلك من أبي، الذي كان حارَّ الدم في شبابه، وتربية عدن، فقد انتظر وقلق علي فلحقني، وجاء على صوت عبد

الحق وهو يزمجر "امش يا ليد .. أنا...أمك يا بن ال..." فكسر الباب وتعارك مع الرجل وكمل مضغه لعشب القات في الحبس. نعم، كان، حفظه الله، عنيفا في شبابه، لا يتحمل أحدا يسب أمي... أبدا.

بعد دكان عبدالحق، عبرت ممرًّا فرعيًا للسيارات، حيث تبدأ عمارة الغَنّامي، وأول محل فيها كان مكتبة (الوعي الثوري، للقدسي)، وعمارة الغنامي هذه كانت بالنسبة لي حارة كاملة فهي على أربعة شوارع... شقق وفندق الوحدة، ومخازن ضخمة، يخزن فيها قطع غيار السيارات، وإطارات بريجستون، فقد كان الغَنّامي وكيل تلك الشركة في اليمن. ومحله الشهير، مستودع القنال، الذي في عمارته الأخرى المقابلة لهذه العمارة "التيتانك، " كان مقصد كل أصحاب السيارات، وكان اسم المحل من أول ما تدربت على قراءته، إذ كان أبي يطلب مني قراءة اللافتات وأنا في بداية الصف الثاني، كانت بوابة فندق الوحدة على الشارع العام، شارع 26 سبتمبر، أي في طريقي، بعد مكتبة الوعي الثوري، ثم فرن خبز، ومحلات قماش، فزقاق فيه صيدلية عامر للأدوية وفي نهاية الزقاق، قريب من الصيدلية بيتنا العتيد أعني... دكاننا...

وصلت وأبي منهمك في غسل أدوات الآيسكريم...خارج الدكان، فأمام الدكان ساحة ترابية كبيرة تفصل الدكان والمنازل عن الشارع، ولأن المساحة ترابية، فهو يغسل الأدوات ويتخلص من الماء في أكوام التراب الموجودة في الساحة، أو يهرقها في مجاري مغسلة الملابس المجاورة.

"أبيبب... يا لطيف ماذا حصل؟" ...

"لا شيء سقطت وأنا أركض باتجاهك، فقد نجحت...انظر هذه الشهادة، وهذا اسمي واسمك مطبوعان... عزيز ثابت عبدالله ..."

"الحمدلله...الحمدلله... لكن يظهرأنك تأذيت في السقوط... أرني يدك.."

"لا..لا.. هي طفيفة..."

-"لا ليست طفيفة... أنت تجري مثل المجنون...أعرفك...مجنون...دعنا نذهب إلى الصيدلية نعمل مرهم للجروح..."

- "أين اسمي؟"

- "هنا..."

- "صح، "

وكان حفظه الله يتقن كتابة اسمه ثابت عبدالله فقط، أما اليوم فهو يحفظ كتاب الله، فقد تعلم القراءة والكتابة بعد عودتي من الولايات المتحدة، إذ تقاعد من عمله الجديد، العصائر، وتفرغ للتعلم ...

"نذهب للصيدلية بعد أن تغير ملابسك، نداوي هذه الخدوش والكدمات، ثم نتعشى في مطعم العلمين (فول وخبز طاوة)...، نصلي المغرب والعشاء في مسجد التوبة، ثم آخذك معي إلى السينما، فلم عن فلسطين..."

لم أدر أي أرض تقلني... يا لسروري... نجاح... وسينما... وعشاء فول مع خبز طاوة، كل هذا في يوم واحد! كان الفول ترفا خصوصا إن اجتمع مع خبز الطاوة...كان والدي إن استيقظ منشرحا، يطلب مني أن أذهب إلى مطعم العلمين "روح مطعم العلمين وهات لنا نَفَر فول مع زيت الزيتون، ومُر لقهوة الشباب في شارع جمال واشتر من الخباز سعيد أربعة أقراص خبز، " وكان لخبز قهوة الشباب مذاق لا يضاهى، ليس كالخبز الذي أشتريه كل صباح من بوفية القدسي القريبة... كان سعيد صديقا لوالدي، كنت أعطيه قيمة أربعة أقراص (أرغفة) فيعطيني

ربما ستة أو سبعة...بعد أن أحضر الفول والخبز، أذهب لإحضار الشاي بالحليب من قهوة القدسي، ثم نبدأ الفطار... الله...

يأكل أبي سريعا وأنا أتلطف، وكأني أغازل الخبز مع الفول بزيت الزيتون، ويبدأ الاستمتاع حين ينتهي والدي من أكله، الذي أراه سباقا ماراثونيا، يدع لي قليلا من الفول أظل آكله بروية مستمتعا استمتاعا لا حدود له... ذلك الأكل أفضل عندي مما سواه، قطعًا هو أفضل من اللحم الذي نأكله يوم الجمعة على الغداء، فوالدي يستريح يوم الجمعة، وبعد صلاة الجمعة نذهب إلى مطعم الشيباني الشهير في حيينا حيث يطلب والدي "برمة لحم" "أي قدر لحم صغير وخبز وأرز أو "صانونة"، وكم من معارك نشبت بيننا على مائدة الغداء، إذ هو يكلف نفسه ويشتري نصف كيلو لحم عجل رضيع من مطعم معتبر، كي آكل ويشتد عودي، فيجدني عديم الشهية للحم، يظل يحفزني ويترجاني أن آكل، فأفعل لكن بكمية قليلة لا ترضيه، أظل ألوك قطعة صغيرة لوقت طويل، لكنه يظل يحفزني ويترجاني أن آكل نصيبي كاملا من اللحم، وإذا لم ينفع الترغيب، فإنه يلقمني أحيانا قطعة مصحوبة بلكزة خفية، وصوت يشبه زئير الأسد "كل". لم أكن من محبي اللحم في صغري، ولم تكن تروق لي "الكزبرة" في المرق، وطهي اللحم في المطاعم ليس كطهي أمي...

اليوم سيكون العشاء فولا مع زيت الزيتون، في مطعم من أفضل مطاعم الفول في المدينة ... الله! وسينما ... وافرحتي واسعادتي.. في تلك اللحظة، تمنيت لو أطلت ابتسام فأخبرها بنجاحي، حتما ستفرح كثيرا، قطعا ستقول لبقية أصدقائها إني نجحت...ربما هذا يقربني منهم قليلا، فيقبلون أن ألعب معهم...لم يكن هناك من أطفال، فقط الحاج علي، الجمَّال، يطعم جمله الرابض بجانب الجاري في الساحة التي أمام الدكان بعد يوم عمل له، يحمل البضائع ويجرها

من شارع لآخر، تلك كانت وظيفته. كان جارنا، ينام في دكان ملتصق ببيت أهل ابتسام...أسرته في قريته القريبة من تعز، وليس معه أحد من الأولاد...

"شوف يا عم علي، درست الصف الرابع في الفصل الصيفي ونجحت للصف الخامس... شوف هذي الشهادة"

"ما شاء الله.. الله يحفظك يا ابني... تستاهل .. أعرف أنك سُبيع... الله يخليك لأبيك."

عدت للدكان، أغير ملابسي، وأنا أدندن، " سينما... سينما... وأخيرا سيأخذني أبي معه السينما.. اليوم سأعرف ما هي السينما...!"

أيامي في المكتبة

بقلم: شيخة عبد الله بن جاسم المطيري

صورة بملامح رسمها عامُ 1987م لطفلة تبتسم في المكتبة، تحشر طفولتها بين الكتب، ووجها ذا الأعوام السبعة بين أمنيات القراءة التي كانت قد أتقنت جزءاً منها، كانت تحب ابتلاع الحروف تتذوق طعمها، ولا تنسى كيف أنها يوماً فكرت بشكل جاد أن تبتلع قطعة مغناطيسية رأتها على سبورة تعليمية لأختيها اللتين تكبرانها ببضعة أعوام. ما هذا الشيء الأسود الذي تستطيع الحروف أن تلتصق من خلاله؟ هكذا جربت الإجابة وابتلعت القطعة السوداء. ومن حسن حظها أن الأسرة تنبهت لحالة الاختناق فأخذتها للمستشفى سريعاً. ولم تكن تدرك أن ذلك كان الاختناق الأول بالحرف، فأن تكون شاعراً يعني ذلك أنك ستظل مصاباً بمتلازمة الحرف المختنق ويظل المغناطيس يلصقك بالحياة، وأنت تحاول أن تقول وتختنق وتتنفس وتختنق.

لا أعرف من أخذ لي تلك الصورة ولكن أغلب الظن أنه عمي علي عمي الوحيد والذي يحب التصوير منذ طفولته، أنا شيخة صاحبة الصورة وصاحبة الوجه المستدير في تلك الصورة، والتي ابتلعت قطعة المغناطيس وأصوات الباعة المتجولين وقليلاً من جدران الحي، ولدت في الثاني من يونيو عام 1980م وكما تقول أمي إن ولادتي كانت المناسبة التي جمعت المتخاصمين من بعض أفراد العائلة. لقد ولدت بخصلة بيضاء كثيفة جعلت الممرضات يستغربن شكل هذا الكائن الجديد، " ماما هذا بنت عجوز " هكذا علقت إحدى الممرضات وهي تسلمني إلى أمي. وكبرت كما يكبر الأطفال الفضوليون، يطرحون عشرات الأسئلة على كائنات خرافية، لأن العالم لم يكن يوماً مقنعاً بالنسبة لي. كنت أحب الهرب كنت أركض نحو باب خلفي للبيت يطل على زقاق منسي، ولعلي هنا أستذكر أول صديق لي كنت أخبره عن يومياتي، لقد صادقت كل شيء، عرفت الصداقة وأنا في الرابعة من عمري حين ألفت جداراً لمزرعة النخيل في بيتنا القديم، وكان فيه ما

يشبه بيت الفأر، كنت أتكور أمامه وأخبر فأري الخيالي عن تفاصيلي اليومية. ومن الفأر إلى أشياء أخرى وأخرى وبينها بعض البشر.

كان بيتنا القديم قد أكرم كل مجموعة منا بغرفة نوم تتكاثف في سمائها أحلام النائمين، وكنت أنام مع جدتي وأختَيّ، وقبل أن أنام كنت أتأمل سقف الغرفة، أتحاور مع الضوء الوحيد في سمائها، وأرسم منه أشكالاً كثيرة، حتى أغفو. في ذلك البيت كانت هناك غرفة لم تدخل ضمن التقسيم الطبيعي للأفراد الساكنين فيه، ولم يكن يدخلها سوى والدي. لذا قررت في يوم من الأيام أن أقتحم خصوصية ذلك المكان وأكتشفه. دخلت فرأيت ما جعلني أبتسم وأتلفت حولي وكأن المكان أشبه بالحلم. ما هذا ؟ كتب كتب كتب، في كل مكان وبأحجام وأشكال متنوعة. كان كل ما يربطني بالكتاب في ذلك الوقت هو كتاب المدرسة، الذي كنت ألتهمه التهاماً وأحفظه عن ظهر قلب، فأنا منذ الصف الأول الابتدائي أتقنت القراءة بشكل جيد جداً مما جعل معلمتي (نجية) – رحمها الله – تكرمني بعظيم اهتمامها.

أعود إلى ذلك المشهد في مكتبة والدي، فأراني أمام رف مليء بكتب متشابهة في حجمها وطريقة كتابتها، فأخذت كتاباً منها عنوانه (خواطر وذكريات) فتحت الكتاب فإذا به يشبه ما نتعلمه في المدرسة من (محفوظات) وقد كانت هذه الكلمة تطلق على القصائد التي كنا ندرسها في مادة اللغة العربية، ولكننا كنا ننشدها إنشاداً حتى يسهل حفظها. ولذا كنت أظن أن الإنشاد هو الطريقة الوحيدة التي نقرأ بها الشعر. فبدأت بقراءة ذلك الديوان وحفظت ما فيه بشكل سريع جداً رغم أنني لم أكن أعرف معاني بعض الكلمات، ثم انتقلت للديوان الذي يليه (أمير الحب) وحفظته وهكذا إلى أن حفظت كماً كبيراً من هذه القصائد التي عرفت لاحقاً ومع اتساع الوعي أنها كانت دواوين الشاعر الدكتور مانع سعيد العتيبة. وعلي هنا أن أعترف اعترافاً يخص تلك القصائد، لقد أخبرت أُختَيّ أنني بدأت بتأليف الأناشيد وكنت أسمعهما كل مساء مجموعة منها، ومن حسن حظي لم يكتشف أحد تلك الخدعة فلم تكن تلك الأناشيد إلا قصائد الدكتور مانع العتبية. وهذا ما جعلني أحرص على حفظ مجموعات أكبر حتى يستمر التأليف والإنشاد. وهكذا كانت زياراتي للمكتبة

تتكرر. إلى أن جاء اليوم الذي خطت فيه أناملي الصغيرة أول محاولة بريئة للكتابة. كنت حينها في السابعة من عمري تقريباً وكتبت مجموعة أبيات أذكر منها:

أميرة صغيرة تدور في البحار

تبحث عن أبيها والثعلب المكار

هذا كل ما أحفظه منها، وقد رأيت من خلال هذه الأبيات أنني أصبحت ذات شأن كبير، فكتبت الأبيات على جدار من جدران بيتنا وعلى جدار مزرعة النخيل وعلى تراب الحي، ومن تلك المحاولة استمرت المحاولات بالكتابة ورسم العالم من خلال الكلمة والنشيد. لم أكن حينها أمتلك المصطلحات الخاصة بالشعر، ولم أكن بحاجة لذلك فالعلاقات الحقيقية لا تحتاج مدخلاً رسمياً للدخول.

عام 1988م وفي بداية نوفمبر من ذلك العام انتقلنا إلى بيتنا الجديد، وانتقلت المكتبة معنا، واتخذت لها مكاناً مناسباً في البيت الجديد، كما فعل كل منا، أما أنا فكنت في كل يوم أزداد تعلقاً بالكتب وتحديداً كتب الشعر الفصيح، وأرجع ذلك إلى بداية اللقاء بدواوين الشاعر الدكتور مانع العتيبة فدواوينه هي التي أدخلتني عالم الشعر والقراءة من أجمل الأبواب.

كانت الحياة تنضج من حولي، واتسع كل شيء في عالمي، لكنني كنت محافظة على عالمي الخاص، الذي أتخيل فيه شخصيات خيالية أعيش معها وأحاورها، كنت طفلة تحب اللعب وتحب الدراسة وتجمع بينهما بالطريقة التي تناسبها هي، لم أكن أطيق القوانين والأنظمة، وكانت لي طريقتي الخاصة في اللعب، ألعب مع إخوتي الأولاد الذين يصغرونني سناً، ومع بعض بنات الجيران، ولكنني كنت أفضل اللعب وحدي، كنت ألعب بالعرائس وبطريقة تختلف عن الفتيات

الأخريات، فقد كنت أحاور الألعاب باللغة العربية الفصيحة، ولم يكن الحوار يخلو من الاتكاء على الشعر، فقد كانت الحكايات التي أعيشها مع ألعابي تكتمل بالقصيدة إنشاداً كما اعتدت، وهذا يعني أنني بحاجة إلى دواوين شعرية فصيحة، تعينني على إكمال المشهد.

أنا أعرف تماماً أين أجدها، فقد كنت في تلك الأيام عرفت مكتبة والدي بشكل أفضل واستطعت أن أجد فيها مكان الدواوين الشعرية الفصيحة. فبدأت باختيار ما أريد وأخذه إلى غرفتي، والاستعانة بالدواوين في إلقاء كم أكبر من القصائد، ولكن الأمر لم يكن كما أريد تماماً، فقد كانت الغرفة مشتركة بيني وبين أُختَيّ. وما كان مني سوى أن أتخذ لي مكاناً قصياً، ووجدت أن سطح البيت هو المكان المناسب لي، أعني لنا أنا وألعابي والكتب. فأخذت حاوية ورقية صغيرة ووضعت فيها ما أحتاج من الدواوين وحفظتها على سطح البيت. وكنت كلما احتاج الأمر إلى تجديد وإضافة أضيف من مكتبة والدي بعض الكتب.

لاحظ والدي أن دواوين الشعر الفصيح تتحرك ويحدث فيها ما يشبه تفاصيل المطارات. كتب تذهب وكتب تعود، كتب تصعد وكتب تنزل، فسألني بشكل مباشر: " تحبين الشعر؟" ولم أكن أعرف ما الذي يقال رداً على ذلك السؤال. أنا أحب ما يحدث ولا أعرف تماماً إن كنت أحب الشعر أم لا. أنا أحتاج الشعر هذا كل ما كنت أشعر به. فما كان من والدي إلا أن جمع لي ما يمكن له أن يجمع من الدواوين فبدأ بالتواصل مع أصدقائه الشعراء وطلب منهم دواوينهم لأن ابنته شيخة تحب الشعر. وأذكر حينها أنه أكمل لي مجموعة الدكتور شهاب غانم ومجموعة الشاعر سلطان خليفة الحبتور وبعض المتفرقات من الدواوين الأخرى. فبدأت أضيف تلك الكتب إلى حاويتي الصغيرة التي كانت في أصلها حاوية لحفظ زجاجات الماء. ولعل هذا المشهد يعيدني الآن إلى أول محاولة لي بإنشاء مكتبة تشبه مكتبة والدي وتشبه مكتبة المدرسة. وقد كان أول كتاب وضعته في الرف الأول المتواضع والوحيد كتاب اللغة العربية للصف الرابع الابتدائي، ثم بدأت بجمع الكتب الدراسية للمراحل المختلفة كانت نهاية العام الدراسي تمثل لي فرصة جيدة

لاقتناء ما سيتخلص منه إخوتي من كتب لا يحتاجون إليها. وكنت أجمع تحديداً كتب اللغة العربية.

كنت في ذلك الوقت أيضاً قد اكتشفت مكتبة الحي (مكتبة الصفا العامة) وكنت أجلس في قسم الأطفال بكل هدوء أقرأ وألون وأمرر خجلي في الفعاليات التي كانت تقيمها المكتبة. ومن جميل ما اكتشفته هناك كانت القصص الصوتية، إذ كانت بعض القصص تأتي مع شريط تسجيلي صوتي نستطيع من خلاله أن نقرأ ونستمع، وكانت المكتبة قد وفرت أجهزة سمعية لاستخدام تلك الأوعية الصوتية. وهنا وجدت نفسي في عالم جديد. هناك من يقص علي القصص، صوت لا أعرف صاحبه لكنني أَلِفتُه بشكل جيد. وقد بقيت وفية لتلك المكتبة إلى المرحلة الجامعية والدراسات العليا.

كنا أنا وإخوتي في طفولتنا محظوظين بوالد يهتم بتطوير قراءتنا، فكان يشتري لنا الكتب والبرامج التعليمية وبرامج تعليم اللغة الإنجليزية. ومن ضمن مجموعات قصص الأطفال التي أحضرها لنا والدي، كانت هناك مجموعة أنيقة جداً وفاخرة في شكلها وألوانها النابضة بالحياة ولم تكن من الورق العادي، بل كانت من الورق المقوّى السميك. كانت تلك القصص قصصاً عالمية اشتهرت بين أطفال العالم بسبب توظيفها في الرسوم المتحركة.

ولعل طفلة فضولية مثلي ما كان يقنعها فقط أن تقرأ القصة ولكنها كانت تحوم حول حمى الكتاب، تبحث عن أهمية المعلومات الأخرى التي توضع على الكتب، فكان أن وقع نظري على رقم هاتف مكتوب أمامه " إذا أردت أن تستمع للقصة فاتصل على الرقم التالي" وكما هو متوقع قمت بالاتصال، واتبعت التعليمات التي جاءتني من الرد الآلي لأستمع إلى ما أريد من القصص. وأخبرت يومها جميع إخوتي بالاكتشاف العظيم. وكنا نتصل كثيراً ونستمع ونستمتع، كان ذلك الحدث في العطلة الصيفية مما مكننا من قضاء أغلب الوقت في الصباح مع القصص المسموعة. ولكن الأمر انتهى وبشكل مضحك، فقد جاء والدي يوماً من العمل يحمل ورقة عليها بعض

التفاصيل والأرقام، وسأل غاضباً: "من منكم يتصل بهولندا؟" ولم نكن نعرف ما هي هولندا هذه، لكننا فهمنا لاحقاً أنها دولة بعيدة.

اعترفت ببراءة وقلت له إنني وجدت هذا الرقم على القصة واتصلت، وكنت طبعاً أكثر الناس اتصالاً بتلك الهولندا التي فهمت أنها كلفت والدي كثيراً من المال.

تمر الأيام وتبدأ أحلامي بالتشكل شيئاً فشيئاً، ويزداد ارتباطي بالكتب والمكتبة، وكنت في المرحلة الثانوية أحاول أن أوسع مكتبتي الصغيرة بما يصلني من الهدايا وبما كنت أقتنيه من معرض الشارقة للكتاب فلم أكن أعرف مكاناً أحصل من خلاله على الكتب سواه، كانت تسعدنا تلك الرحلات المدرسية التي تأخذنا إلى عالم الكتب والقراءة، ومشاهدة الجموع الغفيرة من البشر التي تجتمع على أرض معرض الشارقة لتحظى بأصدقاء جدد. ولأنني كنت أخجل من طلب المال من والدي، فكنت أجمع مصروفي المدرسي لأشتري الكتب، وحين تطور الأمر قليلاً عرفت بعض الأماكن الأخرى لبيع الكتب ووجدت مكتبة توفر بعض كتب الأدب ودواوين الشعر، وقد اتبعت حينها طريقتين للحصول على ما يكفي من المال، الأولى أنني كنت أضحي بملابس العيد الفاخرة وأشتري أبسط الأشياء وأقلها ثمناً والطريقة الثانية هي بيع بعض القطع الذهبية التي كنت أمتلكها، وهكذا كنت أحصل على بعض المال لأشتري الكتب التي أريدها. كنت سعيدة بذلك الفعل الذي يشعرني بقيمة الكتاب الذي أقتنيه وأنه أغلى عندي من مظاهر الحياة الفارغة.

أنهيت المرحلة المدرسية وأنا أعرف أين سأكمل دراستي وماذا سأدرس فقد كان هذا القرار بشأن التخصص مُتخَذاً من المرحلة الابتدائية، حين عرفت النحو للمرة الأولى فكان أشبه بأغنية، وكان اكتشاف مكتبة الجامعة شيئاً جديداً ومختلفاً، فالكتب هنا فيها شعر أكثر وفيها حكايات الشعراء، وما قاله عنهم النقاد، وما حملته عنهم الأيام. درست اللغة العربية وآدابها وكانت مرحلة التعليم تأخذني إلى مجالس الوطن العربي التي تفيض علماً وأدباً من وطني الإمارات إلى الخليج والوطن

العربي، هكذا أخذتني الكتب على جناحيها نحو ذلك التاريخ والحاضر. فكان مزيجاً رائعاً شكل لدي ملامح الحياة الثقافية.

ولأن الله – سبحانه وتعالى – قد أكرمنا بعلماء أجلاء تعلمنا على أيديهم، فقد حظيت بفرصة جديدة مع مكتبة جديدة، كنا في السنة الجامعية الثانية، وطلب منا الدكتور غازي طليمات – رحمه الله – أن نستخرج بعض المعلومات من مكتبة (مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث) وكان ما يربطنا بهذا الاسم – جمعة الماجد – أنه صاحب الجامعة التي ندرس فيها، فذهبت مع إحدى الصديقات إلى ذلك المكان لنجده مكاناً عامراً بالكتب القديمة والحديثة والمتنوعة شكلاً وحجماً، رحب بنا أمين المكتبة (أحمد زكي) وعرّفنا على طريقة تقديم الخدمة المكتبية، فجلسنا قرب كتب التخصص وبدأنا رحلة البحث والكتابة، ثم أصبحنا نتردد كثيراً على هذه المكتبة، نقرأ وننهي متطلبات الأبحاث الجامعية، وكان أساتذتنا أيضاً يجلسون على طاولة قريبة منا، مما كان يتيح لنا أن نتحاور معهم ونسترشد بآرائهم، وكان أكثرهم تفاعلاً معنا الدكتور محمد رضوان الداية، الذي كان يثير الأسئلة ويجعلنا ننطلق للبحث، لقد أحببنا مركز جمعة الماجد من خلاله. ربطنا بالمكان ارتباطاً جميلاً، واستمرت علاقتنا بالمركز وكانت تكبر وتكبر حتى وقت تخرجنا.

لقد ارتبطت بذلك المكان ارتباطاً وثيقاً، وكنت أحرص على زيارته باستمرار، ولأكون صادقة لم أكن أقرأ دائماً وإنما كنت أحب تأمل الكتب على أرفف المكتبة، مما جعلني أحفظ أشكالها وألوان أغلفتها وأماكنها، وكنت قارئة مزعجة كما أظن، فكلما دخل قارئ للمكتبة اتجهت إليه أسأله عن موضوع بحثه وأرشده إلى مجموعة من الكتب تنفعه، وكان أمين المكتبة ينظر إلي بانزعاج إلى أن قال لي يوماً: "ما رأيك أن تجلسي مكاني؟" وكنت أبتسم وأقول لنفسي: "ليت هذا يحدث".

إننا الآن في شهر ديسمبر عام 2003م، كنت مع والدي متجهين لمركز جمعة الماجد، وربما فاتني أن أقول إن والدي كان على علاقة وثيقة أيضاً بالمركز فقد كان يزورهم باستمرار وبينه وبين موظفي المركز صداقة عميقة، كنا في السيارة وجاء اتصال لوالدي من إحدى الموظفات

معه في العمل تخبره أن السيدة التي تم تسجيلها في دورة المخطوطات والمكتبات التي يقيمها المركز تعتذر ولن تستطيع المشاركة، وهم بحاجة الآن لسد الفراغ بأي شخص مهتم بالموضوع، أنهى والدي مكالمته وسألني: "هل ترغبين بالتسجيل في دورة المخطوطات؟ ستبدأ بعد أيام هنا في المركز" وأنا لم أدخل دورات في حياتي إلا دورة سباحة في طفولتي وكانت ليوم واحد ولكنني في أول لقاء مع الماء غرقت وأنقذني والدي. فهل سأنجو هذه المرة؟

قبلت الدعوة بسرعة فأنا أحب المكتبة وأحب المخطوطات وأعرفها بعد أن درستها على يد الدكتور حاتم الضامن – رحمه الله – ووجدتها فرصة جميلة. وجاءت نهاية ديسمبر من ذلك العام لتبدأ الدورة وأبدأ صفحة جديدة من حياتي.

كنت أحاول الاجتهاد ما استطعت لأن أتعلم كل شيء عن المخطوطات والمطبوعات، وقد حصلت على أعلى درجة في الامتحان المفاجئ الخاص بجزئية المخطوطات، وكان الأستاذ سعيداً بي وباهتمامي، ولا أنسى أنه حين أراد أن يعلن درجات الامتحان قال: "الحاصل على أعلى درجة هو ذلك الشخص الذي رأيته اليوم وقت استراحتكم يبحث في المكتبة ويسألني عن مخطوط ما" لقد كان الجميع في الغرفة المُعَدّة لتناول الطعام، وكنتُ منشغلة بجزئية كانت تدور في رأسي، وكم كان يعجبني نظام البحث عن المخطوطات في الجوارير التي تضم بطاقات الفهرسة، كان للبحث اليدوي طعم مختلف يجعلك تُعمل كل حواسك.

وكنت في تلك المرحلة أعرف بشكل جيد موظفي المكتبة، ومن بينهم الأخت سناء التي كانت تشرف على المكتبة، والتي فاجأتني بعرض جميل وهو أن تقدم أوراقي لإدارة المركز لأعمل معهم في المكتبة، وافقت طبعاً ومن غير تردد فلم أكن أعمل حينها، فأخذتني إلى مدير المركز في ذلك الوقت السيد ناصر خليفة وعرضت الأمر عليه. فسألني بعض الأسئلة وطلب أن يرى أوراقي فأخبرته أنني لا أملك أي خبرة، أنا أدرس الآن في مرحلة الدراسات العليا وأحضر معكم دورة المخطوطات، ثم طلبني في لقاء آخر وسألني عن المكان الذي أفضل العمل فيه، أجبت على

الفور أنني أريد العمل في قسم المخطوطات. فأخرج ورقة وضعها أمامي لأقرأ ما فيها وكان ذلك ما يسمونه عقد العمل، لم أستوعب ماذا يفعلون في مثل هذه المواقف ولكنني استحضرت المشاهد السينمائية ووضعت توقيعي على الورق دون أن أسأل أي سؤال، ضحك الأستاذ ناصر يومها وسألني عن الراتب المتوقع فأجبته أنني أكتفي بأي مبلغ مقابل العمل هنا.

أنهيت دورة المخطوطات والمكتبات وحصلت على درجة الامتياز، ولأنني كنت كثيرة التردد على المركز ويعرفني بعضهم وكنت حينها أخط بعض محاولاتي الشعرية التي كانت ترافقني من طفولتي، ولا أنسى أيضاً أنني قدمت أصبوحة شعرية في المركز وأنا في السنة الجامعية الثالثة إذ أخذنا أستاذ مادة البلاغة الشاعر الدكتور وليد قصاب إلى المركز ضمن مجموعة من الطالبات اللواتي كانت لديهن بعض الكتابات، وقرأت يومها قصيدة عن الأم. هذه المشاهد جعلت إدارة المركز تمنحني شرف إلقاء كلمة الخريجين في دورة المخطوطات والمكتبات أمام معالي السيد جمعة الماجد – حفظه الله – وكان يوماً لا أنساه، فبعد انتهاء الحفل كنت متجهة لقسم المخطوطات لأنهي بعض الاختبارات المتعلقة بالوظيفة والتقيت بالسيد جمعة الماجد في الطريق فقال لي: "أهلاً بك في المركز" ومن هنا بدأ العمر الجديد.

إننا الآن في 17 من يناير عام 2004م وهذا هو اليوم الأول الذي أدخل فيه المركز وأنا موظفة لا أحمل معي واجبات الجامعة ولا متطلبات الأساتذة، دخلت قسم المخطوطات وأنا أحمل في ذاكرتي بعض ملامحه مما بقي في الذاكرة من زياراتنا للقسم مع الدكتور حاتم الضامن أستاذ المخطوطات.

دخلت واستقبلتني الوجوه الطيبة بابتسامة، وكان في مقدمتهم الأستاذ عبد القادر أحمد عبد القادر – رحمه الله – نعم إنه هو ذلك الأستاذ الذي تتلمذت على يديه في دورة المخطوطات، ذلك الذي قال لهم أعرفها لقد كانت طالبة مجتهدة وكما كان يقول "مخها نظيف". الأستاذ عبد القادر الذي علمني هو الآن سيصبح مسؤولي المباشر في قسم المخطوطات.

بدأت حكايتي في قسم المخطوطات وسط مجموعة من المفهرسين والمفهرسات وبدأ الأستاذ عبد القادر يترك لي حرية اكتشاف هذا العالم كما أريد، يضعني أمام بعض القضايا ويختبر قدرتي على حلها، وأظن أنني لم أخيب ظنه أو هكذا أرجو.

مرت الأيام وأنا أنهل من هذا المعين الصافي ما يعينني على الوقوف بثبات على هذه الأرض، لم أتخيل أنني سأقضي مدة طويلة في العمل ولكن الذي يجرب معنى أن يكون في مركز جمعة الماجد لا أظن أنه يفكر في سواه. إنني الآن وفي وقت كتابة هذه الوريقات أتممت عامي السابع عشر ثم أطمع أن أزيد. كنت أعمل بوظيفة باحث علمي في القسم وبدأت بفهرسة بعض المخطوطات المصورة على المصغرات الفيلمية (المايكرو فيلم) ثم انتقلت بعد مدة قصيرة لأبدأ بفهرسة المخطوطات الأصلية وكما أذكر فقد كنت الفتاة الوحيدة التي تعمل في المخطوطات الأصلية.

وأذكر أنني حين كنت أعجز عن إيجاد مؤلف المخطوط أو عنوانه أكتب بعض الأبيات الشعرية، والمضحك أنني بعد كتابتها كنت أهتدي للمعلومة. كما كنت أسجل يومياتي مع بعض المخطوطات وكنت أقلق حين يبقى المخطوط دون مؤلف، وكنت في بعض الحالات أرى المؤلف في منامي يعاتبني أو يخبرني أننا سنلتقي غداً، كان الإحساس عادة يقودني للعنوان والمؤلف وكنت فقط أستند على بعض المعلومات لأتأكد ويتأكد الآخرون أن إحساسي كان صحيحاً. وقد تم تفريغي في العامين الأخيرين لي في القسم لأعمل على رصد المخطوطات المجهولة والبحث عن عنوانها ومؤلفها.

وقبيل أن أتم العام الخامس لي في قسم المخطوطات تم نقلي لقسم الثقافة الوطنية، كان ظاهر الأمر أنه تكليف إداري أعلى، ولكن قلبي حينها كان يشعر أن مصيبة حلت عليه، كنت أستيقظ ليلاً وأفكر ماذا فعلت لأترك هذا المكان، وبقيت أبكي أياماً وشهوراً ولم أستطع تجاوز الأمر إلا بعد عدة أعوام، ورفضت في البداية أن يعطى مكتبي في المخطوطات لأي شخص آخر فقد كنت

أجلس هناك وقت الاستراحة. ومرت الأيام وتأقلمت مع القسم الجديد الذي كان يقدم الخدمة المكتبية للباحثين في مجال الدراسات الإماراتية، ثم اتسعت الرقعة قليلاً لأكون بين مكتبة قسم الثقافة الوطنية وبين قاعة المطالعة التي تقدم الخدمة للباحثين في مجالات المعرفة كلها وبأشكالها المتنوعة من مخطوطات ومطبوعات ودوريات ورسائل جامعية، هذه القاعة هي المكتبة التي سألني فيها يوماً أمينها عن جلوسي في مكانه، نعم يا أحمد ها أنا الآن هنا، لقد ترك أحمد زكي المكتبة قبل أن أتعين بأربعة أشهر ولا أدري هل علم بعد ذلك أنني أجلس في مكانه، لقد أصبحت أمينة من أمناء هذه المكتبة. أمارس دوري الطبيعي في تقديم الخدمة للباحثين بعد أن كنت أحاول المساعدة دون أي مسمى وظيفي.

لقد كبرت في هذه المكتبة التي فتحت لي أبواب الحياة في الشعر والإعلام والثقافة والسفر، إن كل شيء جميل في حياتي مرتبط بهذا المكان، هذه المكتبة علمتني كيف أصل للعالم وكيف أكون واثقة وأنا أزور المكتبات العالمية وأعرفهم بي وبأنني أعمل في مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، فأجد منهم كل الترحاب والاستقبال الجميل، إنني أحمل المركز معي أينما ذهبت لأنه جزء أصيل من حياتي وتكويني. لقد حصلت على الماجستير في موضوع المكتبات الخاصة بالمركز وهذه المكتبات لها حكايات طويلة لا يسع المقام هنا لذكرها، وحصلت على عضوية جمعية الإمارات للمكتبات والمعلومات، وعضوية جمعية المكتبات الخاصة ببريطانيا. وإنني الآن أشتغل على عدد من الأبحاث المتعلقة بتاريخ المكتبات والمخطوطات.

ولأن هذا المكان حياتي، عدت إلى مكتبتي الخاصة في المنزل والتي كانت في حاوية من ورق مقوى ورف صغير أصبحت الآن مكتبة ببناء حقيقي، عدت إليها وقلت لها: "على إحدانا أن تبقى في مركز جمعة الماجد ولأنني قابلة للفناء وأنتِ قابلة للبقاء، ستكونين هناك تدلين العابرين من بعدي علي، وستخبرينهم أنك امتداد طبيعي لحب نشأ منذ الطفولة للكتاب، وأيقن أن مركز جمعة الماجد هو المستقر الآمن له".

والآن مكتبتي الخاصة تسكن أروقة المركز، ستعيش هنا وتبدأ حياتها الجديدة بين أيدي الباحثين، أما أنا فسأظل أحفظ في ذاكرتي أيامي في المكتبة.

ملحق بأعضاء الملتقى في أثناء إعداد الكتاب

(مع حفظ الألقاب)

الإمارات

1 الهنوف محمد
2 إيمان اليوسف
3 أسماء صديق المطوع
4 أميرة بوكدرة
5 بدرية الشامسي
6 بلال البدور
7 حارب الظاهري
8 حسن النجار
9 خالد الظنحاني
10 ذياب المزروعي
11 رفيعة غباش
12 زكي نسيبة
13 سعيد حارب
14 سعيد حمدان
15 شهاب غانم
16 شيخة المطيري
17 شيماء المرزوقي
18 طلال الجنيبي
19 طلال سالم
20 عبد الحكيم الزبيدي
21 عبد الله محمد السبب
22 علي عبيد الهاملي
23 محمد صالح بداه
24 محمد عبد الله نور الدين

25 محمود محمد نور

26 مريم الهاشمي

27 نادية النجار

28 ناصر الظاهري

29 نايف الهريس

30 يوسف الحسن

البحرين

31 صفاء العلوي

32 عبدالحميد القائد

الجزائر

33 شادية شقروش

34 محمد الدراجي

السعودية

35 أحلام الحميّد القحطاني

36 أحمد يحيى الغامدي

37 أمل عايد الأحمدي

38 ثريا العريض

39 جاسم الصحيح

40 حامد أبو طلعة

41 عبد الله بوخمسين

42 عفت جميل خوقير

43 محمد الجلواح

44 ميسون أبوبكر

45 نادية عبدالوهاب خوندنة

46 نعيمة أحمد الغامدي

سلطنة عُمان

47 سعيد الصقلاوي

48 محمد قراطاس

السودان

49 الصديق عمر الصديق

50 عبد القادر الكتيابي

51 عمر أحمد قدور

سوريا

52 أكرم جميل قنبس

53 جميل داري

54 رياض نعسان آغا

55 مصطفى النجار

56 نادية داغستاني طرابيشي

57 إياد عبد المجيد

العراق

58 ساجدة الموسوي

59 شاكر نوري

60 غانم جاسم السامرائي

61 وصال العلاق

فلسطين والأردن

62 إبراهيم السعافين

63 جمال مقابلة

64 رائد الحاج

65 عمر عتيق

66 محمد المقدادي

67 نجاة الفارس

68 نصر بدوان

69 نوال حلاوة

الكويت

70 سالم الرميضي

71 طارق فخر الدين

لبنان

72 إخلاص فرنسيس

73 عدنان قداحة

74 وائل الجشي

مصر

75 أحمد عفيفي

76 ثريا العسيلي

77 حسن شهاب الدين

78 زكريا أحمد عيد

79 عبد الوهاب قتاية

80 محمد أبو الفضل بدران

81 محمد مصطفى أبو شوارب

المغرب

82 حسن الأمراني

83 محمد الرباوي

الهند

84 رحمة الله نوفل

85 مجيب أدفاني

اليمن

86 أحمد المنصوري

87 رعد أمان

88 عزيز ثابت

89 نجيب باوزير

90 همدان دماج

91 وليد الزيادي

الكتب الصادرة عن منتدى شهاب غانم الأدبي

1. شموع ذات ألوان– قصائد باللغتين العربية والإنكليزية، مبادرة 1001 عنوان، الشارقة، 2019م
2. إبداعات عربية في التّسامح والسّلام– مجموعة مقالات، ندوة الثقافة والعلوم، دبي، 2019م
3. مرفأ الحكايات– قصص قصيرة، نبطي للنشر، أبوظبي، 2020م
4. شهاب غانم شاعر الحب والسلام، دار النابغة للنشر، القاهرة، 2021م
5. أشعار في عتبات الأعمار، نشر إلكتروني، 2021م
6. قصائد حب إلى وطن النجوم، تحت الطبع